مي زيادة

سيرة حياتها وأدبها وأوراق لم تنشر

د. خالد محمد غازي

الكتاب: مي زيادة .. سيرة حياتها وأدبها وأوراق لم تنشر

الكاتب: د. خالد محمد غازي

الطبعة: ٢٠١٥

الناشر :وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر.الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

APA

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

محمد غازي ، خالد

مي زيادة .. سيرة حياتها وآدابها وأوراق لم تنشر – د. خالد محمد غازي – الجيزة – وكالة الصحافة العربية، ٢٠١٠.

تدمك: ٨- ١٥٨-٤٤٦- ٩٧٧ – ٩٧٨

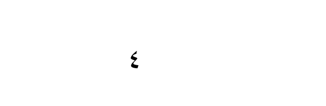
١– مي ماري بنت الياس زيادة ، ١٨٨٦– ١٩٤١

أ – العنوان ٩٢٨.١ رقم الإيداع / ٥٢٠٨ / ٢٠١٠

مي زيادة

سيرة حياتها وأدبها وأوراق لم تنشر





"أتمنى أن يأتي بعد موتي من ينصفني ويستخرج من كتاباتي الصغيرة المتواضعة ما فيها من روح الإخلاص والصدق والحمية، والتحمس لكل شيء حسن وصالح وجميل، لأنه كذلك لا عن رغبة في الانتفاع به..".

من رسالة لميّ زيادة إلى د. يعقوب صرّوف
فبراير ١٩١٩

الإهداء

إليها..

وقد أعطت ما أعطت وأخذت ما أخذت!!

إلى الساعات الحلوة والأيام العصيبة.

حضور يتجدد رغم الغياب

هذا كتاب قراؤه كثيرون..
بيد أن القليلين هم أولئك الذين ينزفون من مخيلتهم وزمنهم، لينبشوا في صفحات الأمس وذكراته، ليعيدوا تشييد الماضي وإحيائه من جديد..

ومي زيادة، شخصية استثنائية، بكل ما تحويه الكلمة من معنى، امرأة عاشت بطقوس المستقبل وقوانيه في ماض محفوف بالتأويلات وقصور الرؤيا، ولذلك فإن هذه الأديبة التي "خرجت عن النص" في وقت مبكر، ما تزال تستهوي بحياتها وأفكارها أجيالاً جديدة.. ورغم ظهور أديبات بعدها، فإن الأضواء التي تسلطت عليها لم تتوجه إليهن، وبذلك بقيت هذه الإنسانة حاضرة في أذهان القراء، ولم تتوار صورتها أو تتلاش، كما حدث مع الكثيرات..

هذا الحضور لتلك الغائبة يتأكد يوماً بعد آخر، ونحن نشهد المزيد مما يكتب عنها في الصحافة الثقافية، وما يصدر من كتب حولها وعن أدبها..

ولابد من القول إن تلك الكتابات – رغم من الكثرية الكاثرة التي دونت عنها – لم تشف غليل القارئ، ولم تكشف عن جوانب، وأغوار بعيدة في شخصية مي زيادة، التي أثارت جدلاً واسعاً في حياتها وبعد رحيلها.. اللهم إلا مؤلفات قليلة حاولت أن تتحرى الدقة والصدق.

ليس بودي أن أتحدث هنا كثيرا عن مي.. فسوف أترك لها أن تتحدث عن نفسها، من خلال هذا الكتاب، لقد عشت مع مي في مؤلفاتها التي جعلتني أتمثلها نصب عيني، واعتمدت على مؤلفاتها كركيزة أساسية لكتابي، فكثرت في صفحاته الاقتباسات والإشارات لمؤلفاتها.. ولم ومؤلفات الكاتب مرآة لذاته وحياته ؟!

هذا الكتاب، يلقي السمع، ويرسل البصر، لا أكثر، وراء مبدعة، أردت أن أنفض بعضاً من التراب عنها كإنسانة ومبدعة، فحياة "إيزيس كوبيا" الحافلة والمثيرة لا يمكن لأي سطور اختزالها.. والأزمنة والأمكنة التي احتضنت تلك الحياة ما تزال حاضرة وقريبة بنكهتها وأصالتها وعناوينها، وأي بهرجة قول مهما فتنا بها لا يمكن أن تكون بديلة، لبهرجة تلك الحياة الدافقة التي عاشتها مى.. حتى اتهموها بالجنون!! فيا مي زيادة.. طوبى لك بجنونك.

المولف

الفصل الأول

روافد التكوين الأولى.. نفسية الأنثى وعقلية الأديبة

- الطفولة والصبا
- بين العلم والأنوثة
- الدراسة والصحافة
- اللغة العربية والأديان

الطفولة والصبا

في بلدة "الناصرة" بفلسطين – موطن السيد المسيح – ولدت ماري زيادة في الحادي عشر من شهر شباط عام ١٨٨٦، من أب لبناني هو "إلياس زخور زيادة" الذي كان لبنانيا – ماروني المذهب، وقد هاجر من قرية "شحتول" في جبل كسروان بلبنان – وهي موطنه – إلى فلسطين في النصف الثاني من القرن الماضي إلى "الناصرة"، واشتغل معلما في مدرسة "الأرض المقدسة"، وقد كانت "الناصرة" في ذلك الوقت تقع ضمن نطاق الحكم العثماني المسيطر على بلاد الشام.

وفي قرية "الناصرة" تعرف "إلياس" على "نزهة خليل معمر" وهي فلسطينية المولد والموطن – سورية الأصل – أرثوذكسية المذهب، تنحدر أسرة أبيها من بلدة "أهدان" في شمال لبنان، حيث عرفت فيها منذ القرن السابع عشر، وتنحدر أسرة أم "نزهة معمر" من قرية "الحصن" الواقعة على هضبة في شرق الأردن اليوم، التي هي امتداد لجبل حوران، غير أن أجداد "نزهة معمر" نزحوا عن سورية إلى

فلسطين في مستهل القرن التاسع عشر.. ولفتت "نزهة معمر" نظر "إلياس زيادة" بوعيها الثقافي ومطالعاتها الكثيرة، وحفظها مئات الأبيات الشعرية لشعراء مرموقين، بالإضافة إلى شعورها الديني العميّق ونزعتها الصوفية التي تتضح جلية في حفظها الكثير من شعر ابن الفارض وغيره من شعراء التصوف الإسلامي.. تم زواج "نزهة" من "إلياس" ورزقا بطفل وطفلة، غير أن الطفل اختطفه الموت فتوفي صغيرا [1]، فأسبغ الوالدان الحنان على طفلتهما الوحيدة "ماري" فلقيت الرعاية منذ طفولتها المبكرة.

"أليس الاسم هو أول علامات الفرد في جماعته؟

على أي شيء يحتوي الاسم؟

يسأل شكسبير بلسان جولييت ومن منا لم يتساءل عن اهتداء البشر إلى التسميّة، وعن رائدهم في ذلك؟

ألا تصغى إلى همس خفي وراء الاسم والكنية عند سماعها للمرة الأولى، كأن لها ذاتا خفية وراء المعنى الظاهر؟

إلا أن الشاعر القائل "الأذن تعشق قبل العين أحيانا"، عبر عن جانب من حقيقة روحانية عميقة ومضت له في لحظة إلهام وإشراق.. راجع ما شئت من الأسماء التي تعرف أصحابها معرفة شخصية أومعنوية، ترى استحالة تبديل اسم بسواه، كأنما تلك اللفظة التي يعرف بها المرء عن طريق الانتحال أو بالمناداة منذ الولادة، أصبحت جزءا أساسيا من ذاتيته، أو صارت على الأقل من أدل الدلائل

---

[1] رثته مي في إهدائها إليه كتابها "ابتسامات ودموع" فقالت في إهدائها ".. إلى الطفل الذي رحل إلى خالقه ويتّم فيّ عاطفة الحب الأخوي فحرمني من حنو الأخ وقبلته وابتسامته ودمعته.. إلى أخي الوحيد الذي تقاسمه الأثير والثرى..".

عليها، وفوق ذلك فإن معنى الاسم الواحد يتغير بإطلاقه على أشخاص مختلفين، هذا شيء يعجز الوصف إلا أننا نشعر به بجلاء.. ترى الآن شخصية الفرد تتفاعل وشخصية الاسم بامتزاجها بها[٢]؟!

لقد آثرت "ماري زيادة" اسم "ميّ"من دون الأسماء الأخرى وشغفت به..ولم يكن أحد يعلم أن "ماري" ستغير اسمها إلى اسم آخر يشترك معه في أول حروفه – وهو حرف الميم – ويفترق عنه في نواحٍ شتى، فـ"ماري" اسم إفرنجي النغمة لم تألفه الأذن العربية، على حين أن اسم "ميّ" اسم عربي [٣] خفيف.. رشيق في نطقه، ومن المعروف أن الأسماء الثلاثية في اللغة العربية تتميّز بخفة الوقع على الأذن وخفة النطق والوزن، وقد أطلق العرب اسم "ميّ" على بناتهن تحببا ومصغرا عن أميّة. وقد تسمتْ "ميّ زيادة" بعدة أسماء أخرى غير ماري، وميّ منها إيزيس كوبيا، عائدة، كنار، شجية، السندبادة البحرية الأولى، مداموزيل صهباء، خالد، رأفت.. ووقعت بهذه الأسماء بعض مقالاتها وقصصها ورحلاتها.. عجبا، كل هذه الأسماء لفتاة واحدة.. قلقة.. حائرة، لم يسلم من حيرتها حتى اسمها فتغير معها بتغير الظروف والأحوال.. وفي أول رسالة كتبتها ميّ إلى جبران خليل جبران في ٢٩ مارس ١٩٢١ كتبت تقول: "أمضي ميّ بالعربية، وهو

---

(٢) ميّ زيادة: المؤلفات الكاملة، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٨٢، جـ١، ص ٣١٨.

(٣) ورد اسم "ميّ" في كتب الأدب القديم . وتردد في قصائد الشعراء، فأبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني ذكره في الجزء السابع من كتابه الذي تحدث فيه عن السيد الحميّري وشرح معنى "مي يختج" بالخمور والنبيذ الناضج والشاعر الأموي ذوالرمة يقول أبياتا في محبوبته ميّ الأموية، منها قوله:

خليلـــي عـــدا حـــاجتي مـــن هواكمـــا ومـــن ذايواســـي الـــنفس إلا خليلهـــا

ألمـــا بمـــيّ قبـــل أن تطـــرح النـــوى بنـــا مطرحـــا أو قبـــل بـــين يزيـــلها

اختصار اسميّ، ويتكون من الحرفين الأول والأخير من اسمى الحقيقي الذي هو ماري، وأمضي إيزيس كوبيا بالفرنجية، غير أن هذا لا أسمى ولا ذاك، إني وحيدة والدي، وإن تعددت ألقابي".

ونعرف تفاصيل أكثر من معنى اسم "ميّ" من حديث لها إلى مجلة "المكشوف" نشر في عدد ١٦ آيار ١٩٣٨: "وهو – أي اسمها – قليل التداول في تسمية الفتيات.. ومن أسماء عرائس الشعر، واتفق كذلك أنه مكون من أول حرف وآخر حرف من اسم ماري، كما أن ميّ MAY باللغات الأوروبية تصغير ماري للتحبب، وأخيرا لأنه الاسم الذي أحبته والدتي وسميّت به يوما من الأيام.. ووالدتي هي التي اختارت لي اسم ميّ، فقد تذكرت أنها عندما كانت في المدرسة عهد إليها مرة بتمثيل دور "ميّ" في رواية لكورتاري"[٤]، وكان مترجم الرواية قد عرب الاسم CAMILLE إلى ميّ فكانت حلاوة هذه الاسم لا تزال على شفتيها، بالرغم من مرور السنين.."[٥].

تلقت "ميّ" مبادئ القراءة والكتابة في قرية الناصرة، وعلى وجه التحديد في دير المدينة الذي ذكرته في كتاباتها، وقد انتقل والد ميّ "إلياس" هو وأسرته الصغيرة إلى لبنان وعمل بالتدريس في قرية "عينطورة"، وهكذا فارقت "ميّ" بلدة الناصرة مرتع طفولتها وصباها، ولكن ظلت صورة الناصرة في مخيلتها تقول عنها: ".. إيه يا ناصرة.. لن أنساك مادمت حية، سأعيش دوما تلك الهنيهات العذبة التي قضيتها في كنف منازلك الصامتة: سأحفظ في نفسي الفتية ذكري هتافات

---

[٤] المقصودة هنا مسرحية هوراس (HORACE)

[٥] فاروق سعد: باقات من حدائق ميّ، مؤسسة نوفل، بيروت، ط ٣، ١٩٨٣م، ص٦١.

قلبي وخلجات أعماقي.. لقد كنت لي مدينة الأزاهر العذبة، ومجال التنعم بأطايب الأوقات في وجودي غير أني ويالأسف سأبتعد عنك، سأبتعد عن أكوام غيومك، وعن كواكب ليلك، لن أرى بعد المنازل الدافئة التي احتفظت ببسمات صباي وأماني وأحلامي، غير أني سأحمل ذكري كل هذه الأشياء تافهة كانت أم عظيمة كأعز ما لدى في الوجود.."[٦].

وقد شاءت الأقدار ألا ترجع إلى الناصرة مرة أخرى، ولكن ظل لسانها يلهج بذكر أهلها، وانطبعت ذكرياتها عن الناصرة في مخيلتها، حتى بعد سنين وهي في القاهرة، وقد استعادت تلك الذكريات وهي تكتب عن شاعرة الطليعة، عائشة التيمورية، تقول ميّ: "كان ذلك في تلك البلدة بفلسطين، وقد بدا الحي متجليا ببهجة الأعراس وبهائها لزواج ذلك الوجيه الثري، ونصب صوانا عظيما على سطح الدار الواسعة ليقام فيه مهرجان الفرح كل ليلة، فما يخيم الظلام إلا وتعزف الآلات الشرقية تحت الخيمة الوضاءة بتألق الأنوار ومعالم الزينات، الغاصة بوجوه القوم وأعيانهم من تلك البلدة وضواحيها..إذ ذاك يهرع أهل الحي إلى الشرفات والنوافذ وسطوح المنازل يتسمعون إلى آهات الطرب الشائعة في الفضاء، حتى لتتهادى أصداؤها نحو ما جاور من جبال الجليل، والأطفال مغتبطون بأن يحتضنهم صدر دافئ ويحميهم من أهوال الظلام، فتتنبه منهم النفوس لتفهم أعجوبة الألحان. كنت على ذلك في ليلة فإذا بصوت ينشد على نقرة العود:

---

[٦] المرجع السابق: ص٥٠،٥١ .

كحـل بعينيـك أم صـبغ مـن الـرحمن
جفن من السحر أو سحر من الأجفان
خـال بخـديك أم صـنع مـن الـديان
توهت فكر الأنام في الجفن بالحنان
تبـارك الله مـا أحـلاك مـن إنـسان" [٧]

وبعد دراسة ميّ بـ"دير المدينة" التحقت "بمدرسة راهبات عينطورة"، وهي في الثالثة عشر من عمرها، حيث أرسلها والدها لتدرس في القسم الداخلي بين عاميّ ١٩٠٠ – ١٩٠٣ م، لقد نشأت ميّ في ظل تعاليم الدين، فنشأ في نفسها نور الحياة والإيمان وخشية الله، وهذا الجو لا يستطيع أن يصوره ويعلم فيض هذا الشعور إلا من عاش فيه، فيجد نفسه صافية نقية لا تحمل شيئا دنيئا ولا دنسا من الدنيا.

علينا أن نتخيل "ميّ" وهي منسدلة الضفيرتين على كتفيها، وكان شعرها الأسود يزيد وجهها الملائكي المستدير جمالا وضياء.

لقد نشأت بين أبوين يختلفان في المذهب. فالأب ماروني المذهب والأم أرثوذكسية، فلم تتحيز إلى أحدهما في مذهبه، بل التزمت منذ نشأتها خير ما في سجيتها.

وتفتحت مداركها على التوجيه الديني من والديها ومن معلماتها الراهبات المتصوفات للتعبد والتدريس، فنشأ قلبها الصغير المتفتح يغرد نقيا في ظل

---

[٧] ميّ زيادة: المؤلفات الكاملة – جـ١، ص٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥ .

سماحة تعاليم الدين، فازدهرت ملكاتها نابضة بصدق التعبير والتصوير وعذب الكلم وأروعه، وفي مدرستها أحست أن بوعيها المبكر القدرة على التأمل والتدبر، فعلى حداثة سنها وقتذاك كانت تطيل من حولها، وهي تسمع مثلا معلماتها أو مرشد مدرستها.

كانت ميّ ذات طبيعة غنية خصبة، تحب الجري واللعب والضحك وأي بنية لا تحب ذلك؟، وتبتكر في اللهو أساليب طريفة ترفعها في تقدير رفيقاتها.. ولكنها كانت وحيدة الروح، وكثيرا ما تنزح عن ميدان اللعب إلى الحجر المنفرد في أطراف الساحة، فتجلس هناك ناظرة إلى البحر البعيد..كانت تحسن ركوب الخيل على حداثة سنها، وقد قطعت على ظهر الجواد سهولا وجبالا نبضت حياة التاريخ تحت الأرض منها، وبين الأشجار، وعلى الصخور وحول القمم، ما شهدت جلال الطبيعة إلا عادت إليها تلك الذكريات مع صدى الأغاني التي ينشدها أهل المضارب في الظلام.

تكونت بينها وبين الراهبات صداقة حارة، تنشأ أحيانا بين النساء الجامعات بين غزارة العواطف وحدة الذكاء.. لقد كانت في مدرستها – البعيدة عن أهلها – من شدة توقد تفكيرها، ورهافة شعورها في عزلة صامتة تلقي ستائر سوداء على وجودها في المدرسة، فكانت في وحدتها رغم حداثتها، تنادم في طويل الليالي فكرة الموت التي غشيت إحساسها بالزمن ملففة بالوجوم، فقالت في إحدى يوميّاتها: "قد بدأنا شهر مارس، ما أسرع مرور الزمن، إذا أنا شعرت بالزمن متعجلا كل هذا التعجل في حداثتي، فماذا عسى يكون عندما أتقدم أعواما فأخرى؟ وبعدئذ، عندما أمسي عجوزا، أنا أتراني أصل إلى ذلك العمر؟، وكيف يكون المرء

عجوزا؟، كيف يشعر عندئذ وكيف يفكر؟ يخيل إليّ أني سأرحل قبل ذلك، وأن الموت سيحملني غضة الشباب فيطير بي إلى حيث تسبح الملائكة في هذا الأيام، ذلك لأني لا أفهم الحياة التي يقول مرشدنا الروحي، إنها مشكلة المشاكل، ما هذه الحياة التي قال عنها إنها مشكلة المشاكل، وإنها سريعة سرعة السهم المنطلق في الفضاء؟

ما معنى هذه التقلبات، وهذه الحاجات، وهذه الأنظمة المتولدة، أبدأ هنا وهناك،؟ فيَّ، وفي غيري ونحن نراها شيئا طبيعيا، وإن آلمتنا وأسخطتنا.. وانتقلت من تأمل إلى تأمل، حتى انتقلت إلى فكرة الموت.

كم ذا سمعت أن هذه الفكرة كانت تعزية القديسين ورجاء لهم، فما كنت أحاول أن أفهم، بل كنت أنصرف عن ذلك بسرعة لأطمئن وأستريح غير أني اليوم انتشرت في نفسي فكرة الموت مع لذة الشعور بها انتشارا لألحان مع الأرغن العازف"(٨).

إن ما سردته "ميّ زيادة" – في سانحتها السابقة التي اقتبسناها من كتابها "سوانح فتاة" –كان هو ما عانته وعاشته، وإن تلك الذكريات الصبيانية كان لها أعمق الأثر في تكون شخصيتها الإنسانية والأدبية، تقول بعد أربع عشرة سنة من ذكرياتها في المدرسة: "وهل نحن الآن غير أطفال؟ وهل الشباب والكهولة والشيخوخة سوى مظاهر أخرى من الحياة الدائمة الطفولة؟ ما مر بي يوم إلا زدت اعتقادا أن ما نراه، ونشعر به، ونختبره في الحداثة إنما هو، هو ما نشهده متتابعا من عام إلى عام، ولكن بصورة أكبر في ميدان العالم الوسيع"(٩).

---

(٨) وداد سكاكيني: ميّ زيادة في حياتها وآثارها، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٢٩، ٣٠ .

(٩) ميّ زيادة: المؤلفات الكاملة، جـ ٢، ص ٥٨١، ٥٨٢، ٥٨٤. ٥٨٥، ٥٨٦.

إن شعورها بالكآبة والتشاؤم وهي فتاة دون الخامسة عشر من عمرها، يرجع إلى شعورها بالوحدة والاغتراب والبعد عن أهلها، فقد كانت تقضي أيام الآحاد والأعياد في المدرسة، في حين تنصرف رفيقاتها وزميلاتها إلى بيوتهن دونها، فوجدت دنياها الأولى في الدير مع الراهبات، حيث كانت تسرح روحها في ملكوت الألحان السماوية والتأمل الغيبي، غير أن هذه الوحدة كانت لها عيوب ومميزات، فمن عيوبها أنها تجعل المرء يشعر بالكآبة وتفيض نفسه باليأس، كذلك نرى أن الجو الاعتزالي جو رهيب يحتاج إلى صبر وجلد، فما بالك إذا كان هذا بالنسبة لفتاة صغيرة بعيدة عن أهلها لم تتجاوز الخمسة عشر عاما! غير أن لهذه الوحدة مميزات، فهي فرصة عظيمة وطيبة، لأن يخلو المرء بنفسه فيتفكر ويتدبر، وإذا نظرنا إلى تاريخ أعظم الأدباء والفلاسفة وجدنا أنه لا تخلو مرحلة من مراحل حياتهم من العزلة والوحدة والبعد عن الناس، ففي الوحدة يري المرء الدنيا بمنظور آخر.. منظور التعقل والتدبر، غير أنها أيضا توسع مدارك الإنسان وتسمو بغرائزه وسلوكه وإنسانيته.. ولم يكن لحياة ميّ في المدرسة سلوى سوى معانقة روحها للطبيعة، فقد كانت عاشقة لها، متذوقة لجمالها، حيث كانت ترنو إلى القمم، وتتأمل السفوح ويسرح طرفها، فيعكس ذلك شفافية نفسها ونقاء سريرتها وقربها إلى الله.

وكانت في مرحلة نشأتها المبكرة ذواقة للفن بصفة عامة، فأجادت العزف على البيانو، وقرأت أشعار الصوفيين العرب، وأعجبت إعجابا كبيرا بابن الفارض، وعلى أيدي الراهبات أجادت اللغة الفرنسية، وحفظت الكثير من أشعار الفرنسيين أمثال دي موسيه، ولامرتين، وحاولت قرض الشعر بالفرنسية، نشرت ما كتبته في

هذه المرحلة في كتاب لها صدر عام ١٩١١ بعنوان "أزاهير حلم" وكان أول كتاب صدر لها في عالم التأليف.

وفي سنة ١٩٠٤ انتقلت من مدرسة عينطورة إلى "مدرسة الراهبات اللعازريات" في بيروت (التي كانت قائمة في آخر محلة الخندق العميق عند الشارع المعروف اليوم باسم شارع الأمير بشير).

تسلطت روح الاستبداد والقهر والاضطهاد في لبنان في حين أن الحريات كانت سائدة في مصر وقتذاك، فكانت ملاذا لأحرار العرب، وملجأ لرجال الفكر والرأي والأدب والتجديد، إذ كان يلجأ إلى حماها كل من ضاق بالحكم العثماني، الجائر، أو ضاق طموحه في أرضه ووطنه، فيحمل آماله وطموحه، ويرحل إلى مصر، ليتصل بأسباب النهضة العربية المعاصرة ففي عام ١٩٠٨م، ضاقت "الناصرة" بالأسرة الصغيرة، "فإلياس" – والد ميّ –كان يمارس التدريس بأجر زهيد لا يكفيه ولا يرضيه، وزوجته قد حاورته وألحت عليه كثيرا في أمر الهجرة إلى مصر، فقد كانت الزوجة تتطلع إلى حياة أفضل في مصر ومستقبل مرموق "لميّ" فيها.. وميّ نفسها كانت مشوقة إلى الانطلاق حيث تتفتح مواهبها، وكان إلياس يعلم أخبار الأدباء والمفكرين اللبنانيين الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية وإلى مصر حاضرة العالم العربي، التي اجتذبت الكثير من المفكرين والأدباء اللبنانيين وغيرهم، وكان لهؤلاء المفكرين تأثيرهم الذي لا يجحد على الحركة الأدبية في مصر وفي العالم العربي، فقد سيطرت على الحركة الثقافية ثلاث دور لبنانية هي: الأهرام، الهلال والمقطم.

وهاجرت أسرة ميّ الصغيرة إلى مصر.

وفي المدينة الكبرى (القاهرة) لم يكن أمام والد ميّ إلا أحد أمرين: إما أن يحترف الصحافة، أو يعمل بالتدريس، وفي بادئ الأمر مارسهما معا، ثم انصرف إلى الصحافة.

وقد توافقت هجرة "ميّ"إلى القاهرة مع اكتمال أنوثتها، فأصبحت امرأة ناضجة آسرة الجمال، وقد راقت الحياة الجديدة لها، رغم المصاعب التي واجهت الأسرة الصغيرة في بداية حياتها في القاهرة، تلك المدينة الضخمة، النابضة بالحركة فأين هي ميّ "الناصرة"، تلك البلدة الهادئة الحالمة!

وجاهدت مع أبيها في مدينة القاهرة، فدرّست اللغة الفرنسية لبنات بعض العائلات الكبيرة من ذوي النفوذ والثراء، وتفتحت زهور الأمل في نفسها، واستبشرت خيرا بالحياة الجديدة، فبعد عامين من نزوحها للقاهرة أضحى والدها صاحب ورئيس تحرير صحيفة "المحروسة" التي كان يعمل محررا بها، حينئذ بدأت موارد الأسرة تتحسن، كما أن منصب والدها جعلها تتعرف على طبقة من الكتاب والصحفيين المرموقين وذوي النفود، وخالطتهم بحكم عمل الأب، وساعد ذلك على تبلور موهبتها كأديبة، وازدياد شغفها بالاطلاع، فدرست – آنذاك – اللغتين الإنجليزية والألمانية ثم عكفت على التمكن من اللغة العربية بعد نشر ديوانها "أزاهير حلم".

ولم تنس الناصرة، فهجرتها إلى مصر تركت في نفسها آثارا عميقة، كتبت فصلا بعنوان "أين وطني؟" في كتابها "ظلمات وأشعة"ت قول: "..عندما ذاعت أسماء الوطنيات، كتبت اسم وطني ووضعت عليه شفتي أقبله، وأحصيت آلامه مفاخرة بأن لي كذوي الأوطان وطنا، ثم جاء دور الشرح والتفصيل فألممت

بالمشاكل التي لا تحل، وحنيت جبهتي وأنشأت أفكر، وما لبث أن انقلب التفكير فيَّ شعورا، فشعرت بانسحاق عميق يذلني، لأني، دون سواي تلك التي لا وطن لها"[١٠].

".. ولدت في بلد، وأبي من بلد، وسكني في بلد، وأشباح نفسي تنتقل من بلد إلى بلد، فلأي هذه البلدان أنتمي، وعن أي هذه البلدان أدافع"[١١].

بعبارات سلسلة عبرت "ميّ" بها عن تساؤلات واستفسارات عديدة طرحتها على نفسها، ولا عجب أن أحداث حياتها تحمل الإجابة على تساؤلاتها، "ولدت في بلد"..نعم.. قد ولدت ميّ في بلدة الناصرة بفلسطين.

"وأبي من بلد".. فوالدها "إلياس زيادة" من "شحتول" إحدى قرى قضاء كسروان في جبل لبنان.

"وأميّ من بلد "أمها"، "نزهة معمر" فلسطينية الأصل من الجليل.

"وسكني في بلد".. فقد استقرت أسباب العيش لها ولأسرتها الصغيرة في القاهرة.. ويظل تساؤل ميّ الحزين معلقا دون إجابة: "فلأي هذه البلدان أنتمي؟!".. "ولأي هذه البلدان أدافع"؟!

ألم تقولي يا ميّ، إنه ليس للعلم والفلسفة والشعر والفن وطن، لكن ما بالك تسترسلين في تساؤلك وتضاعفين صعوبته فتقولين: "فصرت أعلم أن للعالم والفيلسوف والشاعر والفنان وطنا، صرت أعرف ضعف الإنسان الذي مال إلى النوم والراحة، طلب مضجعا ناعما لجسمه المضني لا مرجأ واسعا يتناول منه الحر والبرد، ولا بحراً عرمرما تبتلعه منه اللجج"[١٢].

---

(١٠) المؤلفات الكاملة: جـ٢، ص ٣٦٤.

(١١) المرجع السابق: ص ٣٦٥.

(١٢) المرجع السابق:ص ٣٦٨.

العلم والأنوثة

قال الذين عرفوا "مي" والتقوا بها إنها كانت ربعة القوام، لم تملأ جسمها، ولم تكشف عن نحافة.. مستديرة الوجه، أما لون بشرتها فحنطي مشرق باسم شفاف، يجلل وجهها شعر أسود فاحم السواد، تنوس ضفيرته المجدولة أو ضفيرتاه، على عاتقها بربطة حريرية.

وتلعب على شفتيها ابتسامة الخفر، فكانت من أبعد النساء عن الاسترجال وأشدهن أنوثة، فكانت كل حاسة من حواسها وجارحة من جوارحها تنم عن ذكائها، فعيناها اللامعتان وتعبيرها الحار، ولطف إشاراتها وحسن حديثها، كل ذلك جعلها تؤثر في مستمعيها بحديثها إلى جانب ما في شخصيتها من اللطف والدعة واللين.

تقول السيدة هدى شعراوي عن خلق ميّ: ".. لقد رأيت فيها إنسانا غير عادي، لقد حباها الله – وهوواسع الفضل – بعقل كبير، ولكن قلبها كان أكبر من عقلها.. فقد كان ذلك القلب يتسع لمعان شتى من الرحمة والعطف والحنان، فما

عرفتها تدنت إلى دنية أو تنزلت إلى أسفل.. وكانت واسعة آفاق التفكير، فما عرفتها وقفت عند حد محدود، وكانت بعيدة الإدراك فما رأيت منها قصورا فيه.. ومع تلك الصفات المحبوبة، والمزايا الموهوبة كانت بعيدة عن الغرور، منزهة عن الانخداع، فما عرفتها زهيت زهيت بعلم أو تاهت بذكاء أو أدلت بتفكير.. ولكنها كانت تعرف قدر نفسها في تواضع جميل، وبساطة محبوبة.. ولم تكن مي على وسانتها ووضاحة وجهها جميلة بالمعنى الصحيح للجمال، ولكن نفسها كانت أجمل من وجهها، وروحها أجمل من صورتها.. فكانت بين الجميلات لا تبدو أقل منهن فتنة ولا أضأل نصيبا من الجاذبية، لقد كان يجمل مي بين الجميلات، ويزينها بينهن.. شيء خفي لعله هو الذي حير الشاعر فقال:

شـيء بـه فـتن الـورى غيـر الـذي
يدعى الجمال ولست أدري ما هو

وليس في الأمر عندي سر مستغلق، ولا خفي مبهم، فسر جمالها كان في روحها والجمال المعنوي الروحي هو ضرب من الجمال يسمو على كل جمال[1].

كان بريق الذكاء يتلألأ في عينيها السوداوين اللتين كانتا نبعين للحياة التي لا تفنى، تديرهما في الوجوه والوجود فيضا من الحنان والجمال، وتتلقي بهما سر الطبيعة التي أحبتها صغيرة وتجافت عنها كبيرة، ولو شئنا أن نتصور منطقها ومبسمها لوجدنا العينين والشفتين تتكلم معا بنبرة عذبة مذوبة بالسحر الحلال، فما سألت من شهد مجلسها وسمع حديثها في عز شبابها ونضج ثقافتها – وزحمة المتقربين منها إلا غاب عن حضوره لحظات وانطلق وراء الخيال المجنح،

---

[1] محمد عبد الغني حسن: مي أديبة الشرق والعروبة، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٣، ص ١٦٨.

وقد ارتسمت على وجهه لمعات صيتها ونمنمة ملامحها وصدي صوتها في تصوير "مي" بريشة وهمية مغموسة بألوان شعوره وتقديره، ويكاد ذلك الفيض الروحي الجمالي من خلقة "مي" وخصالها يعجز آخرين عن تصوير هذه الإنسانة الموهوبة فيما كانت عليه لمحاتها، وصفاتها ممن عاشروها ورافقوا خطاها حية فارقت دنياها، إذ كانوا يتصورون شكلها وأسلوبها فتونا في فتون دون أن يحددوا مدلولا أو يقيدوا موصوفا لها في هذه المخلوقة الساحرة، وكأنما وصفها ابن الرومي بقوله:

كـــم غريـــر بحـــسنها قـــال صـــفها
قلـــت أمـــران، هـــين وشـــديد
أهـــي شـــيء لا تـــسأم العـــين منـــه
أم لهـــا كـــل ســـاعة تحديـــد

على أن أعجب تمثيل وضعها فيه أديب عرفها فقال:"إن ميا في صورتها كانت مثل نغم ميلودي منسجم، كل لحن فيه على حده يجود بصوت،وفي ائتلافه نغم ملائكي واحد، كذلك كانت هيئة مي وملامحها، فعيناها تحيران بما فيهما من شعاع، وأنفها الأقني الذي يمسك بعصا ناظم الجوقة يؤلف قسمات وجهها الذي يحتل فيه الفم الوردي عطر أنوثتها وبسمة فنها[٢].

ورسمت مي لنفسها صورة بديعة لوصف نفسها في رسالة بعثت بها إلى صديقتها السيدة (جوليا طعمة دمشقية) تقول فيها: "أصحيح أنك لم تهتدي بعد إلى صورتي فهاكها استحضري فتاة سمراء كالبن أو كالتمر الهندي، كما يقول

---

[٢] وداد سكاكيني: مرجع سابق، ص ٢٣، ٢٤.

الشعراء، أو كالسمك كما يقول متيم العامرية، وضعي عليها طابعا سديميا – فليسمح لي البلاغيون بهذا التعبير المتناقض – من وجد وشوق وذهول وجوع فكري لا يكتفي، وعطش روحي لا يرتوي.. يرافق أولئك جميعا استعداد كبير للطرب والسرور، واستعداد أكبر للشجن والألم – وهذا هو الغالب دوما – وأطلقي على هذا المجموع اسم مي ترى من يساجلك الساعة قلمها"[٣].

إن جمال الصورة في "مي" لم يكن في لمحات وجهها وحدها، ولا في رشاقة جسمها وحركاتها، وإنما كان نبعه الصافي من أعماقها ومما أوتيت من بصيرة ملهمة وعبقرية فاتنة وأنوثة مهذبة.

كانت صورة وجهها تلوح وتتحرك بسر ترتبط به أغوار نفسها، وكانت هذه النفس، مثل نبع كهربي يعطي النور وجهها الصبوح، وفي الغواني الحسان وجوه تستهوي الأعين بجلودها وملامحها، كما تستهوي الصور المرسومة والتماثيل المنحوتة لفاتنات سابيات، لكن الجمال فيها منعزل عن باطنه الحي وسره المفقود. أما جمالها في صورتها وشخصيتها فكان متمثلا في منطقها وسلوكها، متجسما في ثقافتها وتفكيرها، فياضا في شعورها وأنوثتها، وقد تذوق أفذاذ من الرجال هذا الينبوع من جمال الأنثى في حقيقته وصورته، وكانت وهي تفيض بهذا الجمال الأسمى على من يلقاها ويعرفها تشعره بعصمة روحية وأدبية تطيف بهما الأبصار في غير رياء أو تمويه.

ولو أدركنا سر هذا الجمال في صورتها وما وراء ملامحها لرددناه إلى ما أوتيت نشأتها الدينية وبيئتها الأولى من إيمان بالله وخشية من عذاب الضمير

---

[٣] محمد عبد الغني حسن: مرجع سابق ص ١١، ١٢.

وطول تفرسها في وجه" البتول" وهي تتأمل في صفاء وجهها، إلى بصيرتها المتفتحة عن إلهام وإخلاص وكيف تفوتنا القدوة التي طبعتها عليها أم كانت معلمتها الأولى؟ أما الأب "إلياس زيادة" فكان يرعاها كالزهرة النضرة في مطلع الربيع، ولا يصدق أن عينيه تريان إنسانا كان هو سبب وجوده في الدنيا وغير نادم من أجله، بل كان يزهو بها ويعتز ويرى في فتاته بشرى نبوغ أصيل(٤).

أما وقد حضرت أمامنا صورة واضحة لمي زيادة فلا بأس أن نرى انطباعات الشعراء حول وصف مي.. يقول إسماعيل صبري مخاطباً مي:

زيني الندى وسيلي في جوانبه
طفا يعم رعايا اللطف رياه
ريحانة أنت في صحراء مجدبة
من الخمائل حيانا به الله

وقد خص "شبلي الملاط" شاعر الأرز، مي زيادة بقصيدة نظمها عام ١٩٢٢ منها قوله:

كأن الله من سحر ودرٍّ
أتاح لميّ لاحظة وفاها
وشاور أمها لما براها
وشاور يوم كوّنها أباها

---

(٤) وداد سكاكيني: مرجع سابق، ص ٢٣، ٢٤.

فجـــاءت مـــيّ معجـــزة تنـــاهى

مـــن المعنـــى إليهـــا مـــا تنـــاهى

وإذا كان لكل شيء بداية فحتما ستكون له نهاية.. فكل زهرة مصيرها بعد النضرة والنضج إلى الجفاف والذبول.. هكذا الحال مع مي، سارت حياتها بخطوات سريعة إلى الهموم قبل الأوان، فعرفت الشيخوخة والمحن في ريعان شبابها، فألح عليها الحزن والغم فاكتأبت وزهدت في كل شيء حولها، وتعكرت ملامح وجهها، وإذاكانت قد غابت صورة مي المحسوسة.. فإن صورتها الحقيقية الخالدة ما تزال باقية في مؤلفاتها وآثارها.

يقول الأستاذ العقاد عن شخصيتها: "كانت مثقفة قوية الحجة.. كانتتناقش وتهتم بتحرير المرأة وإعطائها حقوقها السياسية، كما كان فيها بعض صفات الرجال من حيث إنها جليسة علم وفن وأدب وزميلة في حياة الفكر، أي أن اهتمامها كان موزعا بين العلم والأنوثة.."[٥].

وكأنها كانت تقرأ ما تبوح به عيون الأدباء والمفكرين حولها، فكتبت عن العيون تقول:

جميع العيون وجميع أسرار العيون.

تلك التي يظل فيها الوحي طلعة خبأة.

وتلك التي تكاثفت عليها أغشية الخمول.

وتلك التي يتسع سوادها أمام من تحب، وينكمش لدى من تكره

وتلك التي لا تفتأ سائلة: من أنت؟ وكلما أجبتها زادت استفهاما

---

[٥] فتحي رضوان: مي كتابة وخطيبة، مجلة "أدب ونقد"، القاهرة، ع ١١، ١٩٨٥،ص ١١.

وتلك التي تقرر بلحظة: أنت عبدي!

وتلك التي تصرخ: بي احتياج إلى الألم، أليس بين الناس من يتقن تعذيبي؟

وتلك التي تقول: بي حاجة إلى الاستبداد، فأين ضحيتي؟

وتلك التي تبتسم وتتوسل.

وتلك التي يشخص فيها انجذاب الصلاة وانخطاف المصلي.

وتلك التي تظل مستطلعة خفاياك وهي تقول: ألا تعرفني؟

وتلك التي يتعاقب في مياها كل استخبار، وكل انجذاب، وكل نفي،و كل إثبات العيون جميع العيون! ألا تدهشك العيون؟!

وأنت ما لون عينيك، وما معناهما؟ وإلى أي نقطة بين المرئيات أووراءها ترميان؟ ثم إلى مرآتك! وانظر إلى طلسميك السحريين، هل درستهما قبل اليوم؟ تفرس في عمق أعماقها تتبين الذات العليمة التي ترصد حركات الأنام، وتساير دورة الأفلاك والأزمنة.

في أعماق أعماقها ترى كل مشهد، وكل وجه، وكل شيء.. وإذا شئت أن تعرفني – أنا المجهولة – تفرس في حدقتيك يجدني نظرك في نظرك على رغم منك.."[٦]

كانت ميّ شخصية شرقية أصيلة – فرغم اطلاعها على الأفكار الغربية.. المتطرف منها والمعتدل.. ورغم أن مكتبتها كانت لا تخلو من كتاب جديد في مذهب جديد أو رأي مبتكر، لكنها لم تتأثر بأي رأي هدام أو يخالف شخصيتها الشرقية التي ظلت متمسكة بها، ولم تكتفِ بالقراءة كوسيلة من وسائل المعرفة،

---

[٦] المؤلفات الكاملة: جـ ٢،ص٣٢٢،٣٢٣ .

بل سافرت إلى أوروبا أكثر من مرة وشاهدت عواصمها، ورأت بعينيها أحوالها ومشاهدها، فلم تأخذ عادة سيئة من الغرب، بل استعملت بصرها كما استعملت بصيرتها في الكتب وما تحمله بين ضفافها، فحافظت على عادات الشرق الموروثة ودافعت عن الشخصية الشرقية فما عرف عنها – إطلاقا– إنها احتقرت عادة أو تقليدا شرقيا حسنا.. ومن مظاهر تمسكها بشرقيتها، أنها أتقنت أكثر من لغة أوروبية كتابة وقراءة، ورغم ذلك لم تتكلم غير العربية.

"ولقد ذكر الأستاذ العقاد أن الأدباء تذاكروا يوما في مجلسها مناقب رجل من أعظم الرجالات في مصر، فشاركتهم إعجابهم به وثناءهم عليه، ولكنها استأذنت بعد ذلك أن تؤاخذه أمامهم على أمر صغير.. ولم تكن مؤاخذة (مي) هذا الزعيم، إلا أنه بدأ يحادثها باللغة الفرنسية بعد أن قدمها إليه الأستاذ أحمد لطفي السيد، وأصر هذا العظيم على محادثتها بالفرنسية وأصرت هي على الرد بالعربية"[٧].

لقد غضبت مي من ذلك "الزعيم الأعظم" لأنه لم يخاطبها بلغته ولغتها والحقيقة أن "مي" كتبت ببعض اللغات الأجنبية في صحف ومجلات أجنبية، ولكن هذا لم يكن من قبيل ادعاء العلم، لأنها كتبت لمن لا يعرفون العربية بلغاتهم التي يحسنونها أو يعرفونها، فلم تهجر مي اللغات الأجنبية في سبيل محافظتها على شرقيتها وعروبتها، بل استعملت هذه اللغات لتدافع عن الشرق والعروبة.. تقول عن الشرق "..لقد أعطى الشرق الغرب أديانا وأخلاقا وفلسفة

---

[٧] مجلة الرسالة: القاهرة، ع ٤٣٥ .

إلهية وأنبياء وإلها، فتلقاها الغرب شاكرا وارتقي بها.. أفيخجلنا أن ننتفع باختباراته الدنيوية وعلمه والدنيا دنيا الجميع كما أن الخالق إله الجميع..؟ "[٨].

وتحث الإنسان العربي على دراسة الآداب الغربية، بحيث يظل ما يبدعه عربيا، ألم يأخذ دانتي فكرة مسرحيته من مصادر عربية، ومع ذلك فقد ظل أدبه إيطاليا؟ ثم ألم يأخذ شعراء فرنسا في القرن السابع عشر من الآداب الإسبانية والعربية والإنجليزية واليونانية واللاتينية، وظل أدبهم فرنسيا.

ما يلفت نظر دارس شخصيتها أن بسمتها الأولى في الحياة كانت مغلفة بغشاء من الدموع والحزن، حتى أن أول كتاب ترجمته مي، كان عنوانه الأصلي "الحب الألماني"، لكن العنوان لم يرق لها فبدلته إلى "ابتسامات ودموع"، وهذا العنوان يحمل – بلا شك – دلائل قاطعة على ما في شخصيتها، تقول في مقدمة ترجمتها للكتاب "الحب الألماني.. كلا، ليس هذا حبا ألمانيا فقط، بل هو خلاصة بسمات الإنسان وعبراته، فنسميه "ابتسامات ودموع"، فإن كان ذلك تزييفا لفكرة المؤلف الواجب احترامها على كل مترجم، فهو صادق من حيث اقتناعي الخاص، أمين للصورة التي ارتسمت منه في نفسي.."[٩]

استمع معي إلى مي وهي تتحدث عن نفسها:

"كان ذلك في صيف ١٩١١ وبي تيقظ الفتاة الأول، واستفسارها الصامت إزاء المسائل الكونية والعمرانية والروحية، وإعجابها المتحفز للاهتمام والتحمس.. وبي كذلك خجلها وحيرتها وترددها.

---

[٨] المؤلفات الكاملة : جـ ٢ ،ص٥٣١ .

[٩] المؤلفات الكاملة: جـ٢ ،ص٦٢١ .

وكنت كئيبة.. كنت أكتئب لغير سبب، وأكتئب للعوامل الدافعة بالاجتماع، الشاغلة أفراده ليلا ونهارا ..حتى إذا احتميت بحمي الطبيعة وألقيت عليها اتكال روحي رافقت الكآبة حبي واتكالى، الكآبة خاتمة شعور الإنسان إزاء الجمال، والقباحة، والخير والشر، والعدل والظلم، والكره والحب، والفوز والخذلان، إليها تنتهي حركات التأثرفي جميع حظائر النفس كأن لا شيء وراءها سوى المبهم والمجهول والظلام الدامس.. أهي ناتجة عن شعور المرء بضعفه حيال قوة العالم، وبعجزه عن تحويل الأشياء من مجراها؟ قد يكون.. ولكن الواقع أن التنهد والامتثال نهاية كل عاطفة وكل فكر، كما أن كل عمر بشري يختم بإرسال الزفرة وإسبال الجفون.كنت قبلئذ أسير لا ألوي على شيء، إن وقعت عيني على شخص، أو طرق سمعي موضوعا نظرت في هذا وذاك نظرة استخبار سطحي، أما هناك فطفقت ألقي على نفسي أسئلة منطلقة من جهلي المتعطش إلى الارتواء.. من أنا؟ ما هو موقفي في الدنيا؟ لماذا تزعجني بعض الأحاديث وتسخطني بعض الوجوه في حين ارتاح لأحاديث أخرى وتجذبني وجوه غيرها؟ لماذا أحب هذه ولا أحب تلك؟ لماذا ينفث في روعي وجوب احترامه، فأسعد بتوجيه عاطفه جليلة إلى موضوع يليق بها، بينما ذاك الآخر لا يلهمني غير الهزء والامتهان؟ لماذا يفرحني الناس وأفرحهم؟ لماذا يؤلمني الناس وأؤلمهم؟ ومن أين لي ولهم هذه القدرة العميقة النافذة؟ أسئلة نقضي العمر ناشدين عنها أجوبة ولا نفوز قبل الموت بالجواب الشافي، هكذا صار كوخي الأخضر سجنا اختياريا، وشرفته نافذة مفتوحة على ميدان العجائب والغرائب، وقد تسنى لي أن أستعرضها وأتفحصها بفكري سائلة عن ماهيتها دون أن يكون ثمة سامع أو مجيب.. الفكر! ما أجذب

الفكر إذا هو مزج بطلاوة العاطفة وخيمت عليه أوشحة الخيال! عشت السنوات الأولى من حياتي دون تفكير، وها قد غدا الجناح الملون بألوان قوس السحاب يضرب جبهتي ليفسح له فيها وكرا فصار كل موضوع، وكل شخص، وكل مشهد طبيعي ينفحني بتأملات زرقاء، وردية ذهبية، فضية.."[١٠]

فكانت تطيل التفكير في غرائب الحياة والتغلغل في أعماق الأشياء للتطلع إلى المجهول أو لتفسير اللامعقول، كان هذا من أهم أسباب الكآبة والحزن لديها، لدى تلك الإنسانة المرهفة الحس، التي كانت تتألم لآلام الحياة والأحياء.. وتظل مي تفتش عن السعادة بين ضباب الدموع، وتسأل الله في إحدى قصائدها الفرنسية قائلة:

"يا أيها الخالق! إن الحياة مراحل آلام، وسلسلة أوجاع، ولجة دموع، ومع ذلك فطرت الإنسان على السرور وأعددته للسعادة. أين السعادة السامية الموعودة؟ أفي العلا؟ أم في سمائك الزرقاء الجميلة بين الشموس التي لا تحصى والعوالم اللامتناهية؟ ويتجلى تأثر مي بالطقس الداكن، والجو القاتم فيما كتبته من يوميات على لسان "عائدة"، وما عائدة إلا صاحبتنا مي نفسها! فهي تقول في إحدى هذه اليوميات من صباح يوم الثلاثاء ٧ ماس ١٩١١: "ساعات النهار تسير ببطء، على أن الشمس لم تشرق اليوم إنها تختفي وراء الغيوم، وتتلفع بدثار من الأسرار، الجو رمادي الأديم، والأفق متشابه الألوان في جميع جهاته، والأرض مغتمة حسري، والمطر على وشك الانهيار".

---

[١٠] السابق، ص ٦١٨، ٦١٩ .

"هذا الطقس يلقي على نفسي غشاء من الاكتئاب والتخدر.. عندما يكون الجو رماديا كذلك يكون وجداني، إني أوثر الشمس بازغة تبهج العالم، والسماء أوثرها صافية في زرقتها السنية.. والنور أن يغذي النبات ويحيي الأزهار أفضل عندي من أن أرى الرياحين منكسة الورود، والورود ذابلة الكؤوس تحت دفق المطر".

وقد كانت صلبة العود على الآلام، كما كانت تعجب من الناس بأصلبهم على الآلام عودا، وإن ما حملته في حياتها الخاصة من الألم وخاصة بعد موت والديها – وهما عمادها وسندها في الحياة – لما ينوء بإنسان أن يحمله، وكانت النتيجة في النهاية أنها عجزت عن الاحتمال وأن صبرها نفد من طولما فعل الزمان بها، فاستسلمت في آخر الأمر ولكنها كانت –كما كانت – فذة في عبقريتها وبين بنات جنسها.

وظلت مي – أكثر حياتها – تمجد النفس الكبيرة التي تقوى على الألم ولا تنهزم أمامه إلى أن كان الألم أخيرا أقوى وأكبر من طاقتها ومما تحتمله نفسها فألقت سلاحها، ولها في تمجيد النفوس الكبيرة الصابرة قصيدة فرنسية تقول فيها:

"ما أشرفك أيتها الأنفس التي تجردت من الثروة! وأنت أيتها الأنفس المتجبرة التي لا تحطمها أحداث الدهر!

وما أسمى شموخ الأنف الذي لا يذله الفقر!

وما أنبل القلوب الشهمة التي ثقلها الآلام ولا تخنع.

الفرح يهملك بعد ابتسامه الطويل، والأخطار تحيق بك من كل صوب، والشدائد تمزقك، والدموع السخينة التي تذرفينها في وحدتك تقرح عينيك وتضرم قلبك.. غير أنك ستبقين الكبيرة، فالشرف مقرون بعذابك النبيل، والسعادة تفوق الإدراك والوصف"[11].

يقول الأستاذ طاهر الطناحي: "لقد كانت "مي" ذات عاطفة مرهفة، وكان الأسى يبدو واضحا في كتاباتها الأدبية، ولعلظروف حياتها التي بدأتها وحيدة، لا تهنأ بإخوة وأخوات يؤنسونها في هذه الحياة الدنيا، إلا أخ واحد لم يعش إلا قليلا، ثم صمت بالموت، هي التي أثرت في نفسها هذا التأثير.. ثم مات والدهاعام ١٩٢٩، ولحقت به والدتها بعد بضع سنوات، بقيت بلا أب، ولا أم، ولا أخ.. وذات ليلة كنت أزورها، فرأيتها جالسة وحيدة، فجري حديث بيني وبينها عن الحياة وغايتها، وما فيها من سعادة وشقاء، قالت: "هل تظن أن في الحياة سعادة أو أننا بالحياة سعداء".. ثم قالت: كأني بابن الفارض يعني "السعادة" بهذه الأبيات:

صفاء ولا ماء، ولطف ولا هوى
ونور ولا نار وروح ولا جسم
ويطرب من لم يدرها عند ذكرها
كمشتاق نعم كلما ذكرت نعم
على نفسه فليبك من ضاع عمره
وليس له فيه نصيب ولا سهم

---

[11] محمد عبدالغني حسن: مرجع سابق،ص٣٦، ٣٧، ٣٨.

ثم سكتت، نظرت إلى السماء، واغرورقت عيناها بالدموع.."[12] ورغم ذلك، كانت مي لا تخلو من روح الدعابة يقول الأستاذ طاهر الطناحي [13]، وهو من رواد صالونها ومن المقربين إليها في أواخر أيامها.." ذات مساء أثناء زيارتي للآنسة مي – لحظت على مكتبها صورة رشقتها أمامها، فسألتها قبل أن أتبينها: "لمن تكون هذه الصورة؟"فأمسكتها بيدها، وأطلعتني عليها، فإذا هي للشاعر المرحوم ولي الدين يكن أهداها إليها، وقد كتب تحتها بخطه هذا البيت:

كـــل شــــيء يـــا "مـــي" عنـــدك غـــال
غيـــر أنـــي وحـــدي لـــديك رخـــيص

وقد حدثتني عنه أنه كان معجبا بها، مشغوفا بحبها وكثيرا ما كان ينظم شعرا فيها سجل بعضه في ديوانه المطبوع، ولم يسجل الآخر.. وقد كانت على الرغم من أنها لم تبادله حبا بحب فإنها كانت تعطف على نفسه الرقيقة، وشعوره المرهف، وكانت تفسح له في زيارتها حتى وهو مريض في أواخر أيامه، فقلت لها إن هذا البيت يدل على لوعة وأسى، وشعور صادق.. غير أن روي "الصاد" روي نادر ثقيل، فما كدت أنتهي من هذه العبارة حتى لمعت عيناها الذكيتان، وأمسكت بريشتها في رقة وهي تهز رأسها، وتعطف عنقها كعادتها في الحديث، وناولتي إياها في ابتسام ماكر وتحد ظريف، وقالت:"إذا كنت تنتقد روي هذا البيت، فإني أطلب منك أن تشطره الآن قبل أن تقوم من مكانك، ولن أسمح لك بالانصراف المباح، ولو جلست هنا إلى الصباح، حتى تجعل الشطر شطرين، والبيت بيتين".

---

(12) طاهر الطناحي: مرجع سابق، ص ١٣، ١٤.

(13) المرجع السابق: ص٢٨،٢٩،٣٠ .

فأردت التخلص والاعتذار حتى يذهب الليل ويأتي النهار، ولكنها أصرت، وكان في إصرارها لطف وخفة وجمال، فأثار وجداني، وحركت شعوري، فما وسعني إلا أن أتناول منها القلم، بعد دقائق ناولتها هذا التشطير:

كـــل شـــيء يـــا مـــيّ عنـــدك غـــال
يتمنـــــاه فـــي الحيـــاة الحـــريص
قـــدغلا فـــي حمـــاك كـــل أديـــب
غيـــر أنـــي وحـــدي لـــديك رخـــيص

فلما قرأته انبسطت أساريرها، وطربت، وكانت تطرب للشعر وتحبه. وذات مساء.. زرتها كعادتي، فبعد حديث طريف أخرجت من مكتبتها ورقة مطوية نشرتها أمامي ثم قالت: "لقد أعددت لك الليلة امتحانا ثانيا"! فقلت لها: أو لم يكف امتحان الأسبوع الماضي".. قالت: "هذا بيت لشاعر قديم يسأل فيه سؤالا فعليك أن تجيب عليه شعرا"وهو:

مـــاذا تقـــول إذا أتتـــك مليحـــة
كحلاء.. في يدها كعين الديك [١٤]

فقلت لها: "هذا السؤال عسير، يحتاج إلى تفكير". ثم جئتها في الأسبوع التالي بهذا الجواب:

أصـــبو لمبـــسمها وطيـــب عناقهـــا
وأقـــول هـــل مـــوتي جـــوي يرضـــيك
وأجيبهـــا – لـــو نـــاولتني كأســـها
لا خمـــر غيـــر ســـلافة مـــن فيـــك

---

[١٤] أي في يدها كأس خمر صافية كصفاء عين الديك.

فضحكت في جمال، وقالت: "لعلك من العشاق المتيمين" قلت لها: "إنني متيم بنبوغك"، قالت:"فاحتج على ذلك" قلت: "أنت التي أثرت شعوري، وأفشيت سري".. فابتسمت في لطف وأدب.. وبعد انتهاء المجلس انصرفت، ثم كان صباح اليوم التالي، فبعثت إليها بهذين البيتين:

أفشي لها الشعر ما في القلب من كعد
فقالت: "احتج" قلت الله في كبدي..
الله يا "مي" في نفس معذبة
تشكو إليك، ولا تشكو إلى أحد ..

الدراسة والصحافة

أتيح لميّ منذ طفولتها أن تتلقى الدراسة والثقافة في معهدين للراهبات، الأول بقرية "الناصرة" بفلسطين، والثاني بعينطورة اللبنانية، ولكل معهد من هذين المعهدين نظمه الخاصة في الدراسة والتحصيل العلمي، ومن هنا فالتلميذات مقيدات بنظام معين، ولا شك أن "ميّ" قد تفاعلت مع هذا المناخ، الذي اتسم بالصبغة الدينية في الدراسة والمعيشة، وانعكس هذا بلا شك على حياتها وأدبها فيما بعد.

ولقد وصفت في يومياتها، بمدرسة عينطورة على حداثة السن، بعض معلماتها الراهبات، معجبة بحدة الذكاء فيهن ورقة الشعور وصدق المجاهدة للتغلب على النفس، حتى إنها، وهي في بوادر المراهقة وظمأ الإحساس إلى الحنان والجمال وصفت المعلمة التي أحبتها، وطاب لها درسها قائلة: ".. من ذا لا يحب نور عينيها المتألق؟ ومن ذا لا يحب الحلاوة في أجفانها المسبلة.."، أما واعظ الدير والمعهد الذي كان يلاحظ ذكاءها وشذوذها عن رفيقاتها في الوحدة

والمطالعة وفي محاولتها التمرد على النظام المدرسي، لتشعر بأنها ليست كبقية الطالبات في تفكيرها واستعدادها، فقد ذكرته في يومياتها قائلة:

"يروعني من المرشد جزالة صوته، وصدى ذلك الصوت المتورع في المعبد رهيب، ويروعني منه علو أفكاره وشرف تعبيره، لن أصف هيئته وحركته وكلامه، وجبهته هي جبهة العلم والذكاء والإدراك، ونظرته نظره الفيلسوف الذييكتب ويرحم ويتجلد على كل هيئة تغلب عاطفة الصلاح"[١].

ولما كانت ميّ تواقة إلى المزيد من العلم والتحصيل، فقد عكفت في بيتها وحدها تقرأ الكتب الأدبية والفلسفية، وتعرفت من خلال قراءتها على مفكرين وأدباء شعرت أنهم أصدقاء لها، تجمع بينها وبينهم روابط وثيقة من نوع ما.. من هؤلاء المفكرين الذين أعجبت بهم: لامرتين وراسينوهوجو وشاتوبريان وبيرون وغيرهم.. ومن الكاتبات: دوستال ودوسفينيه وجورج صاند وغيرهن. واطلعتعلى الكثير من كتب التاريخ والفلسفة والموسوعات الأدبية، فكان تحصيلها الخاص سبباً رئيسيامن الأسباب التي ساعدت على تنمية مواهبها الأدبية والإبداعية، فمي كانت في ظمأ دائم لا يرتوي إلى المطالعة التي ضاقت بها أمها، وخشيت عليها منها: "فالصبايا نظائرها تواقات إلى استقرار في زواج يؤمن لهن رفاق الحياة في مودة وأمومة، أما مي فكانت الأيام تزيدها تعلقا بالكتاب والقلم، فلما سمحت الجامعة المصرية خلال الحرب العالمية الأولى بانتساب الطالبات إلى بعض الأقسام فيها سارعت إلى دراسة الأدب والفلسفة، وكانت العربية السابقة بين أجنبيات تبادر إلى الجامعة قبل أن تبدأ المحاضرات، فتتأمل في هذا الينبوع

---

[١] وداد سكاكيني: مرجع سابق، ص٩٤

الفكري الجديد، الذي جاءت تستقي منه على ظمأ وشوق، وبقيتثلاثة أعوام مثابرة على البحث والمحاضرة في الجامعة التي استهوتها وعدتها منار الفكر العربي الحديث، وكان فيها الرعيل الأول من الجامعيين والمصريين الذي تلقوا دراستهم في بعثات للغرب، وشاركوا في وضع القواعد والخطط للدراسة الجامعية، وبين هؤلاء كان فوج من المستشرقين الذين أحبوا مصر والمصريين جاءوا بتجاربهم وبالأفكار التحررية ومناهج البحث والتأليف والمحاضرة"[٢].

ففي عام ١٩٦١ كانت "ميّ " بين زميلاتها الطالبات تستمع لأحاديثهن، قبل المحاضرة وهي أحاديث لا تتجاوز الكلام عن الأزياء والسينما وأشكال القبعات، ولنترك القلم لميّ تصفلنا زميلاتها وتصف لنا الجامعة:"كنا نجتمع هناك كمؤتمر دولي التأم لعقدالهدنة وتقرير شروط الصلح، أو كمؤتمر نسائي غرضه المطالبة بحقوقه والمجاهرة بمبادئه على أن الأحاديث الدائرة بيننا لم تكن لتدل على شيء من ذلك، لأنها كانت مقتصرة على أخبار الكونسرتات والسينما والأزياء وأشكال البرانيط الحديثة، وكان يتخلل هذه الثرثرة النسائية المحضة ضحك طويل "يدب دبيبه" في كل موضوع تجاذبت أطرافه فتاتان، فكيف به إذا صار ضجة فتيات كثيرات".

ومن عجائب الحديث النسائي أن السيدات إما يصغين جميعا ولا تتكلم منهن واحدة وهذا أندر من النادر، وإما يتكلمن جميعا في آن واحد ولا تصغي منهن واحدة.

---

[٢] المرجع السابق: ص ٥٠ .

وكانت الحالة الثانية حالنا في اجتماعاتنا، نظل عليها حتى يعرض لنا ذكر موضوع الدرس فيهدأ ضجيجنا بغتة ونسمع جميعا المتكلمة فينا ولا نحجم عن بث الآراء والمناقشة أحيانا، ونبقي "عاقلات" حتى يمر في الحديث خيال نكتة صغيرة فنعود إلى الثرثرة والضوضاء والضحك المتقطع المتواصل.. اجتماعات لطيفة كاجتماعات الفتيات في كل زمان ومكان، ولكننا لم نكن لنهتم "بسر" الغرفة التي تجمعنا جدرانها ولم أنتبه لذلك "السر".. إلا يوم وجدتني هناك وحدي ناظرة إلى ما نشر على الجدران من رسوم أعاظم الكتاب والمفكرين.يقال إن في العالم– وقتها – نحو ثلاثمائة جامعة، ولكن كانت الجامعة المصرية أحدث هذه الجامعات سنا، وأقلهن فائدة (لأنه ليست لألقابها حروف شتى يجرها الطلبة وراء أسمائهم)، فهي مع ذلك آخذة مكانها بينهن ولها ميزة خاصة بكونها جامعة أهلية.. أما الجامعة المصرية فمفتوحة للجميع، ولا تقلل من فضلها حداثة سنها، إن كل صغير مستودع آمال كبيرة، لأن له قابلية النمو والتأثر.

قال ألفرد ديموسه (وهو الشاعر الذي أعطي قوة التعبير عن أعمق العواطف بألطف الألفاظ): "كأسي صغيرة، لكني أشرب من كأسي". وعلى هذا القياس للمصريين أن يقولوا: "جامعتنا صغيرة، لكننا نتعلم في جامعتنا".

ليست الجامعة ينبوع علم وأدب لطلبتها وطالباتها فحسب، بل هي مهبط وحي لي، حين أبلغها قبل ابتداء الدرس الذي أبتغي حضوره بدقائق أقضيها بالانتظار والتأمل، فكم من أفكار جميلة أنستني ما يحيط بي من آثار الحياة الإضافية! وكم من تأمل التقط موضوعه نظري بين وريقات خضراء، وكم من حلم وجدت خطوطه مرسومة في جو قاعة الدرس وألوانه محبوكة بخيوط الأشعة المطلة

علينا من النافذة! أفكار وتأملات وأحلام رفرفت على حينا وغنت في نفسي كالأطيار، ثم فتحت جناحها الذهبي ساعة جاء الدرس ينبهني فتحت جناحها، وانطلقت تعدو إلى آفاق بعيدةأجهلها وأحبها، لأن لي فيها أطيارا خيالية .. وتعليقا على مقالة ميٌّ المعنونة بـ"غرفة في مكتبة" والتي نشرتها في "يوميات فتاة" كتب الأديب أنطون الجميل رسالة إلى ميّ في ١٥ إبريل ١٩١٥ يعلق فيها على مقالتها السابقة: "يا ميّ.. قرأت اليوم ما كتبته في" يوميات فتاة"، عما جال في صدرك من العواطف أثناء تلك الدقائق الوجيزة التي قضيتها بين صور مشاهير الكتاب في إحدى غرف الجامعة المصرية، وتلوت على مهل كمن يتلو صلاة، أو يترنم بأنشودة ما أوحي إليك من الإلهام، منظر أمراء الفكر مصورين على الجدران من ديكارت، وكورنيل، وراسين، وموليير إلى فولتير، وهوجو، ما أجمل هؤلاء الرجال بل أنصاف الآلهة، تذيع مفاخرهم بعد أجيال فتاة شاعرة، وتمجد أرواحهم بلغة لم يعرفوا منها إلا الاسم، وليدة جبل الزيتون، وربيبة جبل الأرز، تنشر مآثر عظماء أبناء السين بلغة سكان المضارب!

تلك يا ميّ.. ما أجمل خلود الفكر!.. أليس هو أدعيإلى الغبطة من خلود النفس ؟! أنت لست بالغريبة عن هذه الأرواح الخالدة، كما أنها ليست بالغريبة عنك، فمحبو الجمال. كمحبي الحقيقة.. أولاد طين واحد، بل أبناء أسرة واحدة.

أنا لم تقع عيني على هذه الصور التي وصفتها، ولكني أشك في أن المصور الذي رسم بألوانه هيكلها الفاني قد أجاد إجادتك حين صورت بألفاظك وعباراتك روحها الخالدة وفكرها الباقي.

أنا لا أكتب إليك مقرظا، فلقد طالما عرفك المعجبون بأدبك الزاهر، وعلمك الوافر، كاتبة تستولد فؤادها الرقيق أسمى العواطف، فتلبسها مما تحكيه مخيلتها الفنية حلة قشيبة، وتجملها بجواهر عقلها السليم.. فلا بدع إذا وصفت فأبدعت".

".. لا.. أنا لا أكتب لأقرظ تلك التي تقرظها أعمالها وحياتها الفكرية، بل لأدون خواطر جالت في الصدر لدى تلاوة تلك الصفحة من اليوميات، فحملت القلب على التأمل والتفكير..دونت هذه الأفكار.. كما دونت تأملاتك اللطيفة في تلك الغرفة.

صدقت: إن للغرف أرواحا لو تكلمت الجدران لكانت أفصح من هوجو وفولتير.

وصدق الشاعر العربي:

واستجمعت دار هند ما تكلمنا والدار لو كلمتنا ذات أخبار

أي نفس شاعرة لا تحس مثل ذلك؟.. أليس القائل:

والدار تملكني – ويلي– وصاحبها فلي مليكان: رب الدار – والدار

أصدق وأدري بثينات النفس البشرية من المتنبي حيث، يقول:

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

على أن المتنبي قد أكمل فكرة هذا يوم قال:

لك يا منازل في القلوب منازل أقفرت أنت، وهن منك أواهل

ألم يدرك شعراء العرب هذه العاطفة أحسن من سواهم حينما كانوا يستهلون قصائدهم بتحية الأطلال البالية، وندب الربوع الدارسة ؟!

أنا لا أمر بمكان فيه شيء من بقايا الماضي القريب أو البعيد – إن كان في الماضي قرب أو بعد – إلا وأستسلم إلى التأملات المحزنة. كم من النفوس تألمت وبكت حيث نتألم ونبكي ورجت وتعزت، حيث نرجو ونتعزي، فتعرفت مثلنا الأمل المحيي، والقنوط المميت!!

أجل، لعل تلك الأوراح تطل علينا من عالمها الثاني، وتشاركنا في دموعنا وابتساماتنا لاشك أنها ترثي لحالنا، بل تضحك منا– تضحك منأفراحنا، ونحن نعتقد أنه لم يعرف الفرح أحد قبلنا – وتضحك من أحزاننا، ونحن نتوهم أنه لم يشعر بالحصزن قلب غير قلوبنا وتضحك من حبنا، ونحن نتصور أننا دون سوانا فقد اخترعنا الحب!

هذه السطور، يا ميّ علقيها على حاشية بحرف ضئيل على متن يومياتك الجميلة ولعلك فاعلة، فينعكس عليها شيء من نور فكرك الثاقب يجعل لها بعض الرونق في عينيك المتألمة "[٣].

ولما أنشأت ميّ صالونها الأدبي، كان لها في الجامعة المصرية أساتذة وأصدقاء لقيت منهم كل تشجيع وتقدير.

ولا شك أن لتردد ها على محاضرات الجامعة أبلغ الأثر في التأثير عليها كأديبة، لاسيما أنها احتكت بأعلام الأدب العربي المعاصر وبعض المستشرقين البارزين، فدرست تاريخ الفلسفة العامة، والفلسفة العربية، وعلم الأخلاق على

---

[٣] طاهر الطناحي: أطياف من حياة ميّ، كتاب الهلال، القاهرة، ع ٢٧٩، ١٩٧٤، ص ٤٥، ٤٧،٤٦.

المستشرق الإسباني "الكونت ديه جلارزا"، وتاريخ الآداب العربية على الشيخ محمد المهدي، وتاريخ الدول الإسلامية على الشيخ محمد الخضري، إلى أن انتهت الحرب العالمية الأولى، وقامت الحركة الوطنية المصرية، وهنا كانت يقظتها الأدبية الصحيحة والخلق الجديد اللذين أمدتها بهما تلك الحركة بروحها.. وكانت من الطلاب البارزين النابغين في الجامعة، وكانت لها مكانة مرموقة في نفوس أساتذتها وزملائها الطلاب، يقول د. زكي مبارك عن ميّ:

".. هي فتاة أعرفها جيدا، فقد كانت رفيقتي في الدرس، وزميلتي في طلب الأدب والفلسفة بالجامعة المصرية، وهي المداموزيل صهباء..

وعرفت منذ يومئذ أن الآنسة ميّ معناها المداموزيل صهباء.. رافقتني بالجامعة المصرية ثلاث سنين، وكان الطلبة يختلفون معي اختلافا شديداحين كنا نعرض لتقدير مواهبها الأدبية، فسألنا الأستاذ المهدي أن يحكم فيما شجر بيننا من خلاف، وكان فينا من يفضل باحثة البادية ومن يقدم ميّ فقال الأستاذ: تلك أجزل وهذه أرشق.. "[٤].

من مظاهر تكريم زملائها في الجامعة المصرية، أنهم انتدبوها لتمثلهم في إلقاء خطبة باللغة الفرنسية في تكريم أستاذ الفلسفة "الكونتدي جلارزا"، في الحفلة التي أقاموها له في مساء ٣١ إبريل ١٩٧١ في حديقة فندق شبرد بمناسبة انتهائه من تدريس الفلسفة اليونانية لهم[٥]، كذلك باسم أساتذة الجامعة وطلابها ألقت "ميّ" خطبة وداع للشيخ محمد الحضري ـ مفتش أول اللغة العربية

[٤] انظر مقال عروس الأدب للدكتور زكي مبارك، مجلة صوت المرأة، القاهرة "عدد خاص بميّ زيادة" ١٩٤٩.

[٥] الخطبة معنونة بـ "البعث العتيد" ونشرت في كتابها (كلمات وإشارات /١)، انظر المؤلفات الكاملة.ص.

في وزارة المعارف الذي كان يدرس تاريخ الأمم الإسلامية في الجامعة المصرية – والشيخ محمد المهدي وكيل مدرسة القضاء الشرعي الذي كان يدرس تاريخ الآداب العربية، وألقت "مي" خطبتها [٦] في تكريم الأستاذين في الحفلة التي أقيمت في شبرد في آخر كانون الثاني (يناير) ١٩١٨ م . ولم تستمر في دراستها الجامعية، فقد شغلتها الصحافة والعطاء الفكري عن مواصلة الدراسة الجامعية.

وماذا عن تجربة ميّ في الصحافة؟

لقد كان لمقالاتها في الصحافة المصرية دور اجتماعي كبير، فكان لأسلوبها مذاق خاص في العرض.. ينضج بالعاطفة واللطف الفطري والمشاعر المرهفة، وكان لثقافتها الأجنبية والعربية أعظم الأثر في كتاباتها.. فكانت تحرر في "المحروسة" بابا ثابتا بعنوان "يوميات فتاة"، كتبت فيه العديد من الآراء والمقالات الجريئة، بأسماء مستعارة وكان من أسمائها المستعارة: "شجية، خالد رأفت، ايزيس كوبيا، عائدة، كنار، السندبادة البحرية الأولى".وقد ابتدعت ميّ في الصحافة مجالات سبقت غيرها بها.

فعندما أنشئت صحيفة "السياسة الأسبوعية" – في سنة ١٩٢٦، عرضت هذه الصحيفة على"مي" أن تتولى فيها تحرير القسم النسائي، لكن مي رفضت هذا التخصص، وابتكرت في تحرير "السياسة الأسبوعية" بابا جديدا أطلقت عليه اسم "خلية النحل".. وكان قوام هذا الباب من أبواب تحرير الجريدة أن يتقدم من شاء من القارئات والقارئين ببعض الأسئلة، وأن يتولى من شاء من القارئات

---

[٦] الخطبة معنونة بـ"وداع الأستاذين"، المرجع السابق، ص ٤٦.

والقارئين الإجابة عن هده الأسئلة.. وكانت كل وظيفة الصحفية المشرفة على تحرير هذا الباب هياختيار الأسئلة والأجوبة وإعادة صياغتها صياغة لائقة، وكان هذا الباب أول باب يقبل عليه شباب القراء في سنة ١٩٢٦، وكان إقبالهم على هذا الباب يمثل جانبا من إقبال القراء على الجريدة وهكذا برهنت – ميّ – على تفهم سباق في الفن الصحفي.. لكن هذا العمل كان أول وآخر عمل "فني" أدته ميّ للصحافة.

لقد حاولت صحيفة "الأهرام" أن تجتذب "مي"، لأن تكون عضوا في أسرة تحريرها، بل لقدأعدت لها مكتبا خاصا، والعجيب أن مكان هذا المكتب كان في غرفة رئيس التحرير، ولكنها كانت أذكى من قبول هذا العرض، وظلت صلتها بـ"الأهرام" صلة الكاتبة الحرة التي لا تختلط بأحد في الصحيفة التي تنشر مقالاتها.." [(٧)].

وإني أختلف مع الأستاذ حافظ محمود في رأيه الذي ذهب إليه وهو "أن مي كانت خطيبة وشاعرة أكثر منها كاتبة. ومع هذا فإن ما بقي منها هو ما كتبته في كتبها فقط، لأن خطابتها وشاعريتها، كانتا من خصائصها الذاتية التي ذهبت معها فنسيها الناس، بل قد نسوا أيضا أنها كانت صحفية.. "[(٨)].

والحقيقة أنه لو كان ما ذهب إليه الأستاذ حافظ – في رأيه – صحيحا لما بقيت بين أيدينا اليوم آثار "مي" ومؤلفاتها، وإذا كانت ميّخطيبة وشاعرة أكثر منها كاتبة فقد أجادت ميّ – بشهادة أدباء عصرها – الخطابة بالدرجة نفسها التي

[(٧)] حافظ محمود: عمالقة الصحافة، كتاب الهلال، القاهرة، سبتمبر ١٩٧٤، ص١٢٠، ١٢١.

[(٨)] المرجع السابق: ص١١٩، ١٢٠.

تجيد بها الكتابة!! وما دامت الكتابة المتمثلة في مؤلفاتها التي بين أيدينا، فهي مرآة صادقة للحكم على ميّ زيادة الخطيبة.

وإذا كانت ميّ خطيبة جيدة، فهي أيضا كاتبة جيدة، لأنها هي التي تكتب الخطب لنفسها.. تلك الخطب البليغة، القادرة على إثارة الخيال وجذب الانتباه، كما أن خطب ميّقد طبعت في كتب فيما بعد "في حياتها وبعد وفاتها" إذن فخطب ميّ باقية ولم تفن [٩]، كما أن كتاباتها باقية أيضا.أما مي الشاعرة.. فلم تنظم شعرا باللغة بالعربية في حياتها إطلاقا، إنما نظمت وترجمت قصائد لشعراء فرنسيين، ونشرت هذه الترجمات والخواطر المكتوبة باللغة الفرنسية في كتابها الأول "أزاهير حلم"، وهو أيضا باق لم يفن لأن الأعمال الجيدة خالدة.

وإذا كانت خطابة "ميّ" وشاعريتها من خصائصها الذاتية.. فالخصائص الذاتية للمبدع هي التي تميزه عن أقرانه وعن أدباء عصره، فبدون الفروق والخصائص الفردية، الذاتية، لا يمكن الحصول على أدب وفكر متميز ومتنوع، وإن تلك الخصائص الذاتية هي من أهم عوامل بقاء الفكر وخلوده..

وإذا كان الناس قد نسوا هذا (وبالطبع يقصد الأستاذ حافظ عامة الناس) فإن خاصة الناس، وهم الفئة المثقفة القارئة لم تنس هذا .. وأحسب أن من واجبنا –كتاباً ونقاداً وباحثين – أن نذكر الناس بهذا ولا ننسيهم إياه، بإطلاق أحكام عامة جائرة لا تسندها حجة ولا برهان.

---

[٩] المؤلفات الكاملة: كلمات وإشارات جـ ١، ٢.

اللغة العربية والأديان

إذا رجعت إلى القدر الذي يمسك بعربة الوجود الدوار، فلا يفوته في وظيفته الكبرى أن يتعهد الموهوبين، وأن يترك في الطريق المتعثرين والعاجزين.. رأيناه قد أمسك بعربة "مي" وسحبها حتى جناح الناصرة من آفاق فلسطين إلى ربوع النيل، لأمر قدر وكتب في لوح مي، وهي نفسها التي فلسفت مرحلة القدر، حيث كانت تقول بعنف، إن القدر لا يتفرغ إلا للخالدين!

وكانت وهي تردد هذا القول لا تدري أنها ستكون في عداد هؤلاء.. ولو نظرنا إلى من سبقوها في مثل تلك النقلات والرحلات أو تبعوها وجاءوا بعدها، لرأينا مراصد الأفلاك تدور عليهم، ولا تقف بالتوفيق إلا على أمثالها.

وقديما قيل إن الماء يأسن في مكانه ويسيغ إذا جرى وانحدر، وقد جرت مياه مي في منحدر النيل الذي سقى التاريخ ومازال يرويه وتشهد الشعوب على جانبيه تداول العصور، والقاهرة شهدت نضوج فكرها.. وانتسابها للجامعة.. واحتكاكها برواد حركات الإصلاح والانبعاث لانطلاق المرأة العربية إلى التحرر

والإحساس بالوجود، كانت كاتبتنا بهذه المشاهد اليومية أشبه بقادم على روض جديد أخذ الصباح يتجلى في أفقه، وبدأت بذكاء تطل بأشعتها عليه لتملأه حياة ونورا، فأخذ والدها يرى في وجهها الخير والمجد، وأخذت هي تستشف ليومها وغدها ما تعده لنفسها من ثقافة ومكانة تحقق أملها، وكان أملها عريضا بعيدا وصفته في مقالاتها وكشفت عنه في حياتها التي كتب لها القدر خطاها التي مشت بين الحقيقة والخيال[1]، فنجد "مي" قد لفتت الانتباه إلى موهبتها، لاسيما بعد نشر ديوانها الأول، ومقالاتها الأولى في جريدة والدها "المحروسة"، فكانت تكتب فيها بابا ثابتا بعنوان "يوميات فتاة" إلى جانب مقالات أخرى فلسفية وأدبية واجتماعية.

وقد وجدت مقالاتها جمهورا كبيرا من القراء للنفس النسائي في كتاباتها وعفويتها في التناول والعرض، فمن غير تكلف كانت تعبر عن طبيعتها النسائية، لا تكذبها مرة واحدة، فكانت تنتزع القراء من المادية إلى الروحانية والمثل العليا والقيم السامية، كانت ثقافتها في تلك المرحلة ثقافة فرنسية، فقد اطلعت على الأدب الفرنسي، وسير نوابغه في مدرستها، فقد كانت الدراسة فيها باللغة الفرنسية، فلما شهد والدها إتقانها للفرنسية، وعدم إجادتها اللغة العربية وهي عربية المنبت، بدأ والدها ينبهها ويحثها على ضرورة إجادة لغة قومها وهي العربية.. وكان لأستاذ الجيل "أحمد لطفي السيد" فضل كبير في تحولها إلى مناهل الثقافة العربية والقرآن الكريم، وكان أول لقاء جمع بين لطفي السيد ومي في بيروت وأعجب من يوم أن رآها.. بذكائها ودفاعها عن المرأة العربية، وقد

---

[1] وداد سكاكيني: مرجع سبق، ص ٤١ .

وإلى أستاذ الجيل زيارته لبيتها ليمرن قلمها ولسانها على التعبير والقراءة وليجعل القرآن الكريم رائدها في تعلم البيان.

وقد ردها هذا إلى الشعور العميق بأصالتها، فنزع من لسانها وتفكيرها العجمة والاكتفاء بالثقافة الأجنبية، حتى تعلقت بأصول التعبير في اللغة العربية، وكان "أستاذ الجيل" يشرح لها مافاتها من المعاني والصور ومي تتذوق بلاغة القرآن الكريم وما فيه من روعة جذابة، وكانت مي ساعتها تشعر بسعادة غامرة وإعجاب كبير، لأنها كل يوم تتطور في إجادة العربية قراءة وكتابة.

ولم يضن عليها لطفي السيد بجهده، فحمل إليها العديد من الكتب العربية مثل "النسائيات" لباحثة البادية، وديوان محمود سامي البارودي، وتحرير الفتاة لقاسم أمين وغيرها، وسهرت "مي" تقرأ وتبحث وتحفظ باجتهاد وتنهل من التراث الأدبي العربي.. ومن آرائها أن القرآن الكريم هو مصدر جميع العلوم، وهو الذي حافظ على اللغة العربية وتراثها، وأنه هو مصدر الحضارة العربية، تقول مي: ".. لقد ذاع القرآن بسرعة لم يظفر بها كتاب قبله ولا بعده، ولم يقصر انتشاره على الشعوب التي نزل بينها، وتوافقت مع تعاليمه ومدركاتها وطبيعتها، بل خضعت له بعدئذ أمم لها من حضارتها السحيقة ما قد يعد كافيا لتفلت من سطوته ورفض الإذعان لأحكامه.. ولقد أوجد القرآن دينا عربيا، ودولة عربية، وأحكاما عربية، وآدابا عربية، صارت كلها أجزاءً قومية واحدة ربطت شعوبا لم تكن العربية لغتها، لذلك قال جماعة من المؤرخين، إن التمدن العربي كان تمدنا إسلاميا صرفا.

والقرآن مصدر جميع العلوم التي عني بها المسلمون في أوج حضارتهم، فلتفسير آياته وسوره وجدت علوم الكلام وعلوم المنطق، ولتفهم ما فيه من نظام

وتشريع وجدت علوم الشرع والفقه، ولم تكن غاية المؤرخين الأولين من العرب إلا تحديد وقت نزوله وتدوين الأحاديث النبوية، أليس الجغرافيون الأوائل أو علماء المسالك والأمصار، هم الذين مضوا من أقاصي إفريقيا وآسيا لتأدية فريضة الحج، ثم عادوا يصفون رحلتهم وما رأوه في البلاد البعيدة من الجديد غير المألوف؟ ألم يكن غرض علماء اللغة إيضاح ما غمض من آيات القرآن وتطبيق قواعد الصرف والنحو على نصوصه؟ ألم تطلب أرصاد الفلكيين وعمليات الرياضيين لتحديد ساعات الصلاة وتوقيت مواعد الحج والصوم؟ ألم تستدع مسائل الوقاية الصحية، والنظافة اهتمام الأطباء، كما ظلت بعد تحثهم على البحث والتنقيب؟.. نعم لم يهتم العرب في ذلك الدور بعلم من العلوم إلا لأن آيات القرآن قضت بمعرفته لاجتلاء معنى غامض، أو شرح قول مستغلق، ومذاهب علماء الكلام هي التي نبهت أبحاث الفلاسفة ومناظراتهم فكانوا بما نقلوا وما أوجدوا أساتذة الفلسفة الحديثة، سبق القول إنه قد اشترك مع العربية لغتان أخريان بكونهما قوميتين، نشرتا عقيدة دينية ومذهبا سياسيا بين شعوب مختلفة، أي اليونانية واللاتينية، فقد كانت اللاتينية مستعملة من كمبانيا في إيطاليا الجنوبية إلى الجذر البريطانية، ومن نهر الرين إلى جبل الأطلس، واستعملت اليونانية من أقاصي صقلية إلى شاطئ دجلة والفرات، ومن البحر الأسود إلى تخوم الحبشة، لكن ما أضيقه انتشارا إذا ما قوبل بانتشار العربية التي امتدت إلى إسبانيا وإفريقيا حتى خط الاستواء وجنوب آسيا وشمالها إلى ما وراء بلاد التتر!

أما اللغة الفصحى فقد استولت على جميع أنحاء الشرق الإسلامي، وإن لم تكن لها الغلبة كلغة كلامية على بعض اللغات في الشرق والشمال، فقد أوجدت

تبديلا محسوسا في الفارسية والهندية، والهندستانية والتركية ولغات إفريقيا ولهجات التتر.. كذلك في اللغات الحديثة المشتقة من اللاتينية أو المقتبسة منها، كلمات كثيرةذات أصل عربي.. لقد عدت اليونانية في صف اللغات الميتة بعد سقوط مدينتها.

فما الذي حفظ العربية حية بعد زوال مدنية العرب بقرون سبعة؟ إن الذي كان باعثا على تكوين المدنية العربية هو الذي ما زال حافظها إلى اليوم: هو القرآن! .. لذلك ستظل اللغة العربية حية ما دام الإسلام حيا وما دام في أنحاء المسكونة ثلاثمائة مليون من البشر يضعون يدهم على القرآن حين يقسمون" [٢]،

وكانت "مي" بعد اتجاهها وتحولها إلى العربية محبة لها كل الحب، شاغلة نفسها بمسائلها ومشكلاتها.. ومقترحة مسائل لتجعلها متمشية مع مقتضيات العصر وتطور الزمن.

ولقد شغلت حينا بالمجمع اللغوي الذي كان ينعقد في دار الكتب المصرية بدعوة من مديرها أحمد لطفي السيد، وكانت متابعة لجلساته، فلما شغل السيد بالسياسة وانضم إلى الوفد المصري، عطلت جلسات هذا المجمع، فعز عليها ذلك التعطل وحثت الأعضاء على أن يجتمعوا في منزل واحد منهم أو في مكتبة أحمد زكي "باشا"، ولامتهم على أن يتركوا مشروعا جليلا كهذا يغرق في الماء أو يطير في الهواء كأكثر مشروعاتنا الشرقية.

ولقد أثارت كلمة مي الأولى عن المجمع اللغوي موضوعا للمناقشة على صفحات جريدة "الايجبشان ميل"، وبدأ من هذه الجريدة أو بعبارة أصح – من

---

[٢] المؤلفات الكاملة: جـ ١، ص ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٧.

كاتب فيها – ما أثار غضب "مي" ومي إذا غضبت.. غضبت غضبة مضرية لم تهتك حجاب الشمس أو تقطر كما قال الشاعر العربي قبلها..[٣] ولكنها هتكت أستار الذين تهكموا من مهمة المجمع لوضع أسماء عربية للمسميات الحديثة، فهي كانت تميل إلى فكرة استعمال ألفاظ عربية بدلا من استعمال ألفاظ أجنبية ليست من لغة العرب ولا من أوزانها وحقلها في قليل أو كثير، وتدافع "مي" عن رأيها بقولها: "لماذا لا يجوز للمجمع اللغوي، ولكل كاتب عربي أن يؤثر استعمال ألفاظ عربية دون التعبيرات الإفرنجية؟ أليست الحال كذلك عند جميع الشعوب".

وترد على الجريدة الإنجليزية بقولها: "ولو اقتصرنا على لغتها (الإفرنجية) دون غيرها ألا تذكر "الإيجبشان ميل"، أن الإنجليز أنفسهم يفضلون الكلمة السكسونية الأصل على الكلمة اللاتينية؟ وأن كبار كتابهم إذا وجدوا أمامهم كلمتين اثنتين تؤديان المعنى تماما إحداهما سكسونية، والأخرى لاتينية، سارعوا إلى استعمال الكلمة الأولى لأنهم يرونها أفصح وأبلغ؟ فلماذا ينكر علينا ما هو في نظرهم عين البلاغة وكل الحق"[٤] هكذا كانت مي بليغة في ردها وفي دفاعها عن "المجمع اللغوي" الذي يحافظ على كيان اللغة العربية، فكأنها قالت ما قاله الشاعر حافظ إبراهيم على لسان اللغة العربية:

وسعت كتاب الله لفظا وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظات

فكيف أضيقُ اليوم عن وصف آله ... وتنسيق أسماء لمخترعات

---

[٣] محمد عبد الغني حسن: مرجع سابق، ص ٧٥، ٧٦، والإشارة إلى بيت الشاعر:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية ... هتكت حجاب الشمس أو قطرت دما

[٤] المؤلفات الكاملة: جـ ١، ص ٤٣١.

وجاء عام ١٩١٩، وفيه تفجرت الحركة القومية والنهضة المصرية، وظهرت جماعة يرون أن اللغة العربية لغة صعبة التعلم، وأن العامية أصلح للتعبير، وأقدر على أداء مهمتي التخاطب والكتابة من اللغة العربية الفصحى، وكان "اسبيروبك" أحد الذين نادوا بهذا الرأي، زعما منه أنه يريد الإصلاح ويبني رأيه على بنود ثلاثة:

أولا: صعوبة تعلم اللغة العربية.

ثانيا: تضاعفها بين فصحى أو كتابية وكلامية أي عامية.

ثالثا: يعترض على إنشاء المجمع اللغوي ويحدد وظيفته، أو بالأحرى هو يحذف الحدود من تلك الوظيفة ويجعلها شائعة.

وقد قامت "مي" بالرد على البنود الثلاثة بحجج قوية، فالأدلة عندها حاضرة، والأمثلة لديها معدة مهيأة تقول في ردها: "أما الصعوبة فإذا كانت بينة في اللغة العربية فهي غير محصورة فيها، وأية لغة تخلو من صعوبة اللفظ أو التعبير والكتابة أو القواعد أو الزوائد التي لا منفعة لها؟ حتى ولو كانت حديثة مختلطة كاللغة الإنجليزية، فكيف بالعربية، وهي من أمهات اللغات وميزتها على جميع اللغات الشائعة في كونها اللغة القديمة الحية رغم الزمان.. إن الذين تعلموا منا الإنجليزية يعرفون صعوبة نطقها، ويعجبون للحروف الكثيرة التي لا تظهر في اللفظ، ومع ذلك فلا يحذفها الإنجليز ويرغمون أبناءهم ومتعلمي لغتهم على إجهاد النفس فيما لا طائل تحته.. حتى اللغة الفرنسية.. نجد في كتابتها صعوبة لا شبه لها في اللغة العربية، فما قد يكتب عندنا بثلاثة حروف يقتضي أحيانا عندهم تسعة حروف، والحركات التي تجد اليوم عندنا من يثور عليها، ويطلب حذفها موجودة عند الفرنسيين وإن اختلفت وظيفتها اللفظية بعض الاختلاف، وتصريف

الأسماء الذي يحرجنا في العربية موجود عند الألمان وعند اليونان الذين يضرب بهم سبيرويك المثل.

إن اليونانية الحديثة بتصريفها وحركاتها وقواعدها ليست دون العربية صعوبة وتزيد عليها في اشتباك الأبجدية، وحسبي أن أذكر من ذلك أن حرف الياء يكتب عندهم على سبعة أنواع تارة بالحرف المفرد وطورا باتحاد حرفين من حروف العلة.."[٥].

وترى "ميّ" أن نبذ اللغة العربية الفصحى، والاستعاضة عنها باللغة العامية اعتراف بالعجز والخذلان، لأن اللغة تنتعش بانتعاش الأمة وتجمد بجمودها.. ورأت أيضا في العامية خطرا على الفصحى، ولم تأذن للأولى أن تدخل حرم الثانية وهو مقدس، ولم تجر مع الجارين في سبيل مناصرة العامية، ولم تحرم استعمال العامية في الشوارع وفي غيرها مما يسهل معه التخاطب بها، لكنها حرمت تسجيلها في اللغة الراقية خشية أن تفسد عليها جمالها وتهذيبها، ومن هنا نرى أن الذوق عند ميّ سليم مهذب.. ولم تقتصر سلامته وتهذيبه على ما كانت تكتبه، بل ظهر في أحاديثها التي تدل على لطف نفسها وسلامة فكرها.

ولا يفهم القارئ من هذا الموقف النبيل الذي وقفته من اللغة العربية واللهجة العامية أنها كانت متزمتة متصلبة، أو "شيخة" أكثر من الشيوخ.. أنفسهم أو أنها متطرفة إلى أبلغ غايات التطرف، ولكنها كانت قواما في رأيها مع احترام

---

[٥] المؤلفات الكاملة: جـ ١، ص ٤٣٨، ٤٣٩.

القواعد والأصول ويظهر اعتدالها في قولها: "وما نطمع فيه ويعمل له التعليم والتهذيب هو رفع العامة إلى فهم أوسع وأحذق[٦].."

ولا شك أن "مي" قد عانت صعوبة النحو العربي، وما فيه من خلاف في المذاهب بين البصريين والكوفيين والمتقدميين والمتأخرين، وأدركت قيمة الوقت الذي يضيع في فهم مسائل النحو وأبوابه الصعبة، ولذلك تقدمت بعدة مقترحات للمجمع اللغوي، هذه المقترحات تتلخص في أربعة أمور:

أولا: أن يؤلف لجنة تبحث في كتب العرب، ففيها بحر زاخر من الألفاظ والمسميات والمفردات الرشيقة البليغة التي نجهلها فيستخرجون منها ما يمكن الانتفاع به.

ثانيا: أن يؤلف لجنة أخرى توجد لجميع المسميات والمعاني والأدوات الجديدة تعبيرات سهلة إن لم تكن في كتب العرب فعن طريق النحت والاشتقاق والتعريب لتقرير ما يتفاهم به أهل جميع الأقطار، فلا يكون كل من كتابهم قاموسا لذاته ومجمعا متفردا.

ثالثا: أن يؤلف لجنة ثالثة ترجع إلى عمال السكة الحديدية وباعة الأقمشة والأثاث وأدوات الزينة والطب والهندسة والصناعة والزراعة وسائر شئون الحياة ومرافق المعيشة التي اتسعت دائرتها بيننا، فتتعرف مصطلحات كل جماعة ومهنة، وتأخذ عنهم الأسماء التي عربوها وتواطأوا على استعمالها فتتناولها، وتهذب منها ما هو خليق التهذيب وتدونه في القاموس الذي يتحتم تأليفه.

---

[٦] محمد عبد الغني حسن: مرجع سابق، ص ٧٨، ٧٩.

رابعا: أن يلخص لنا المجمع القواعد في كتاب وافٍ على اختصاره على نحو ما يفعل الإفرنج، بحيث يضمن للمتعلم الإلمام بها فيعالج اللغة ويكتبها كتابة صحيحة في أقرب وقت ممكن. هذا أهم ما يقوم به مجمع لغوي عربي، على ألا ينفرد مجمع قطر واحد بتقرير الألفاظ وتدوينها، لأن اللغة ليست له وحده، بل عليه أن يعرض خلاصة أبحاثه على علماء الأقطار الأخرى ومجامعها فيبحثونها، ويكون التقرير في آخر الأمر بالإجماع قدر المستطاع[٧].

لقد كانت مقترحات كاتبتنا بناءة.. وعلى الرغم من مرور عشرات السنوات عليها فإن هذه المقترحات في حاجة إلى إعادة النظر إليها والعناية بها والعمل على تنفيذها وتأتي أهمية هذه المقترحات من كونها تيسر قواعد اللغة العربية، وتعني الإصلاح لا الهدم.. وقد صدقت حين كتبت تقول:

".. الإصلاح ليس الهدم دوما، بل هو في الغالب تبديل وصقل وتكييف إذ ليس في صالح الأمة إنكار الماضي الزاخر بالمجد الأدبي والحكمة، وكما أن الفرد الواحد من الناس لا يأتي العالم مستقلا عن أمسه وغده، بل يأتي متصلا على رغم منه بما سبقه وبما سيلحقه، فكذلك اللغة التي هي وحدة حية، ورثنا معها الحق في أن يكون لنفسيتها مجموعا وأفرادا أثرا فيها"[٨].

ولما اشتد قلم ميّ في العربية واتسع وعيها لدقائق اللغة وانبسط تفكيرها في مناحي الثقافة، أخذت تنشر مقالاتها في "المحروسة" جريدة أبيها وفي "الزهور"[٩].

---

[٧] المؤلفات الكاملة: جـ ١، ص٤٤٤.

[٨] المرجع السابق: ص٤٣٩، ٤٤٠

[٩] مجلة "الزهور" لأمين تقي الدين وأنطون الجميل.

وربما فضلت على مقالات الرجال لقيمتها وأنوثتها وكانت "المقتطف" و"الهلال" تحتفيان بما تنشر فيهما "مي"، وقد جعلت الكاتبة من ذاتها ناقدة نتاجها، غير مستغنية عن آراء المقربين لديها، مستعينة بتوجيه أستاذها الثاني "يعقوب صروف" صاحب "المقتطف" الذي كان يبدي لها عنفه بملاحظاته ولم يكن إلا عنف الأب الرحيم الذي يريد لوحيدته المدللة ما يجنبها الخطأ في صنعها ويهديها إلى أقوم سبيل، وكان ذلك في بداية عهدها بمجلته وتشجيعه، ولما اتهمها بأنهاتكتب في العربية لغة غربية غضبت غضبة محببة.. ودافعت عن نفسها بلباقة ربحت فيها، وحرصت فيما بعد ألا تترك لأستاذها مجالا لنقده المتهكم.

ومما جاء في ردها: "أعترف بأن معرفتي اللغات الأخرى قبل العربية جعلتني أشبه جماعتنا بتلك المرأة، التي لم تخرج في حياتها من قرية لا تزيد منازلها على السبعة عدا.. وكانت تقول فيها إنها أجمل مدينة في العالم، وإنها أم الدنيا، وتلك المعرفة جعلتني أسائل نفسي كلما قرأت مقالا لبعض من يدعون أعاظم الكتاب وفطاحل الشعراء قائلة: وماذا وضع هؤلاء الأقطاب من ذاتيتهم فيما كتبوا، بل أين الذاتية التي لا أجد لها أثرا؟ "ثم ما لي أنا أشرح ميولي وأبرر سروري اللغوي، إذا كان هنالك من يستحق الملام، فأنت هو، أنت الذي تنصلت من الأسجاع والحواشي يوم كانت هذه روح العصر، لو أردت أن أقلد أحدا لقلدتك، لكنني أكره التقليد الذي يشوه المقلد ويمسخ المقلد وأنا أحب أن أكون أنا في كتابتي".

والواقع أن أديبتنا تخلصت من كل تأثر بالأسلوب الأجنبي، بعد هذه الملاحظات وأمثالها من أقرب أصدقائها، فكانت تغرف من نبعها حقيقتها وتكتب

على سجيتها في أسلوب عبر عن شخصيتها وانطلاق تفكيرها وفلسفة نظراتها للمجتمع والحياة..[١٠].

أما عن"موقف مي من الأديان".. فلم يعرف عنها تهاون في أمور دينها أو زيغ في عقيدتها، بل كانت متدينة كثيرة التدين وكانت نفسها ثابتة على الإيمان واليقين.

وأكد الأستاذ العقاد: "إنها لم تكن مؤمنة بقلبها وعواطفها فقط كما يفعل كثير من الناس.. بل كانت متدينة بعقلها وتفكيرها، ولم تنخدع بما قرأت من كتب الملحدين والهدامين، وكثيرا ما قرأت كتبهم بتعرف مرامي كلامهم واتجاه حديثهم، ولكنها لم تتأثر بواحد، ولم تجد هذه النزعات الإلحادية طريقا إليها، وكانت تناقش في الدين وتناظر في اللاهوت وكانت دائما عن صفوف الملحدين بمعزل، وعن جانب اللادينيين بمنأى بعيد".. لم تضطرب مبادئ مي أمام الآراء العقائدية والفلسفية والعلمانية في عصرها، فكان الدكتور يعقوب صروف رائدا للثقافة العلمية، ورغم أنها كانت تعد الدكتور صروف معلمها الأول الذي كان يشجعها على الاطلاع والبحث والكتابة في مجلته، لكنها لم تتأثر بآرائه التحررية في الدين، بل واجهته وجادلته بشجاعة على صفحات مجلة "المقتطف".

"إن هذه المرحلة من حياة ميّ وثقافتها التي كانت مفتحة النوافد على الشرق والغرب، هي أشبه بعراك وقفت له وقفة قديس أمام الرب وفيلسوف مستمسك باليقين، ومن السباقين إلى الآراء التحررية، التي كانت تسمى في أيام ميّ إلحادا وعنادا أديب كبير هو "أمين الريحاني" الذي اتهمه الأب لويس شيخو

---

[١٠] وداد السكاكيني: مرجع سابق، ص٤٧ وما فيها من مراجع.

بالكفر، لأنه نشر في مقالاته أفكارا انطلاقية كانت كالشرر الذي يحمل النور ويثير الدخان.. كان الأب اليسوعي يتتبع الريحاني بنقده اللاذع واتهامه الصريح حتى تجنبه القوم لكن "مي" وهي دون العشرين من عمرها، اقتحمت السدود، وزارت الريحاني في موطنه الفريكة بلبنان، فما همها ولا روعها ما كان يقوله الأب شيخو، وكان يرمي إليه، فقد كانت حتى في تلك الأيام سيدة نفسها، مستقلة في تفكيرها وفي منازعها ومرامي أدبها، ما همها ولا روعها أن في "الريحانيات"[11] ألوان من الأدب حمراء سياسية ودينية واجتماعية، أو ليس في الطبيعة كذلك ألوان حمراء..

أو ليست في الحياة سكاكين مشحوذة غير سكين الأب شيخو؟ "وما خشيت ميّ على نفسها ولا على عقيدتها من الألوان الحمراء والسكاكين المشحوذة".. وقد كتب الريحاني كثيرا عن أصالة فكرها وعصمة روحها وطهارة ضميرها وعقيدتها.. وعلى ذكر الريحاني الذي اتهمه شيخه بالكفر لحرية تفكيره، فإن الدكتور شبلي شميل الذي عرف بمنازعه التحررية والإلحادية فيما يتناول من موضوعات سابقة في ثقافتنا الحديثة، كان صديقا لمي وكان مفكرا ثائرا – على شيخوخته المتهدمة وفلسفته المنحرفة . وقد طلع في هبة الانبعاث العربي المعاصر بنظريات "داروين" في النشوء والارتقاء، شارحا معنى التطور على طريقته ووجهته، ناقلا للعربية هذه النظريات التي كانت جديدة إلحادية في زمنه، وقد انتهى التفكير الثوري بالدكتور شميل إلى الكفر بالله والأديان السماوية، فكانت ميّ تحاوره تارة بجد وبرهان وتارة بدعابة وتهكم، قائلة لشيخها المعجب بنبوغها: "عجبت أن

---

(11) نسبة إلى "أمين الريحاني".

رأيتك كافرا بالله، مؤمنا بداروين". فيضحك الطبيب الشيخ شبلي لحوارها الهازل وقولها له: إنه متعصب لإلحاده متشبث بعناده[١٢]".

ولما توفي الدكتور شميل كتبت "ميّ" حوارا جعلت فيه "ابن سينا" بطل الفكرة وهي تعني به صديقها العنيد الملحد، فلما جاء في موضوعها، أن ابن سينا سأله الملكان المحاسبان بعد وفاته:

– من ربك يا هذا؟

فأجاب:

– ربما ما كان أن كان فهو قد كان..

ولم يفهم الملكان هذا الجواب، فعادا إلى ربهما يقولان:

– جاءنا رجل من الدنيا، وسألناه عن ربه فقال:

– ربما ما كان أن كان هو قد كان.. وقد حيرنا هذا الكلام فلم نفهم منه شيئا"[١٣].

وهؤلاء المفكرون الثلاثة "يعقوب صروف، أمين الريحاني، الدكتور شلبي شميل" الذين حاورتهم ميّ وبادلتهم الحديث من قريب ومن بعيد كان تأثيرها فيهم أكثر من تأثيرهم فيها، وقد عرفت غيرهم الكثير من المتحررين الناقمين على الدين فكانت تلبس لهم ولأمثالهم دروعا روحية تكافح فيها نيرانهم على نحو ما ابتدع في عصرنا من هذه الدروع الواقية وأدواتها التي نفثت ماء يطفئ الحريق، و"ميّ" وإن لم تستطع إبادة اللهب، فإنها حملت إلى المجتمع ما يقيه من

---

[١٢] وداد سكاكيني: مرجع سابق، ص٣٣، ٣٤، وما فيه من مراجع.

[١٣] المرجع السابق: بتصرف، ص٣٥ .

المدمرات الإلحادية، وشاركت المصلحين في دفع الأذى عن المثل العليا والتعاليم السماوية التي وجد فيها كل مجتمع مهما يكن، من غلو الزيغ في التحرر، راحة نفسية وهداية. في دروب الضلال (١٤)، المتضاربة التي اعتنقها المتطرفون على غير هدى مأخوذين بدعوى الثورة لم تنبهر أديبتنا بالمذاهب المختلفة والتجديد.

ومع أنها كانت مسيحية محافظة على تعاليم دينها، إلا أنه لم يضق صدرها بما رحب من الديانات الأخرى، ولم تعرف التعصب الديني، فكان قلبها السمح وفكرها الرشيد يحترم اليهودية ويحترم كل شريعة تدعو إلى الخير والسلام والأمان، ففي خطبتها التي ألقتها في النادي الشرقي في القاهرة، ليلة الثالث والعشرين من إبريل ١٩١٤، والتي كان موضوعها "المرأة والتمدن".. تقول: ".. أول من عطف على المرأة وأسمعها كلمات الإشفاق والغفران هو يسوع الناصري، وهو أول من سوى بينها وبين الرجل إذا جعل لهما خطة واحدة تفضي إلى ثواب واحد وإلا فللضالين عقاب واحد، على أن النصرانية حرمتها من وظائف الكهنوت وما برحت طائفة من اللاهوتيين تراها قارورة الخطايا والآثام.

ثم جاء نبي الإسلام، فرفع شأنها أي رفعة في بلاد العرب، إذ حرم وأد الفتيات (١٥) وسواها بالرجل في جميع الحقوق والواجبات، إلا في الشهادة والميراث – فإن امرأتين تساويان رجلا – وفيماعدا ذلك فهي والرجل سواء في جميع الحقوق المدنية، ويقول العارفون إن لها الحقوقالسياسية أيضا، وللمسلمات

---

(١٤) محمد عبد الغني حسن: مرجع سابق، ص ٦٨

(١٥) الصحيح أن تقول البنات لأن الفتيات تعني الشابات.

أن يكن فقيهات منهن عائشة زوجة صاحب الشريعة الذي قال لقومه: "خذو نصف دينكم عن هذه الحميراء"[١٦].

وفي خطبة لميّ في تكريم الأستاذين محمد الخضري ومحمد المهدي في آخر يناير ١٩١٨ وقفت تشيد بالمسيحية والإسلام".. إذا ذكر الإنجيل انحنت الرؤوس إجلالا وتجمهرت النفوس حبا حول السيد المسيح – أستاذ الرحمة والغفران – وكفى التلفظ باسم القرآن كي تهتز القلوب طربا على وفق الآيات والأسجاع مرتلة مع السور اسم النبي العربي.. "[١٧].

هكذا نظرت نظرة سمحة إلى الأديان والشرائع السماوية، ولقد أنصفت الإسلام حين تحدثت عن الديمقراطية، في كتابها. "المساواة".. وتميزت أديبتنا بالكياسة في تناولها موضوعا يتعلق بالأديان، فكان يقرأ ما تكتبه أصحاب المذاهب والديانات المختلفة فيشعرون بالرضا لما تكتب، لأن تناولها لأي موضوع تتعرض فيه للدين يقوم على احترام العقيدة.

لقد كانت – كما قال الكاتب سلامة موسى في مقدمة كتابها "بين الجزر والمد" – تساير الشباب في تشوفه إلى صوفية طليقة من القيود المذهبية والفروق الدينية التي كثيرا ما مزقت الوحدة والرابطة القومية، وطالما تمنت ميّ أن يهدأ يوما تأثير العواطف المتطرفة، وتتوازن قوى الإنصاف، فيرتفع المرء بإدراكه إلى أفق يشرف منه على جميع النزعات الإنسانية، وتنعي على الناس أن يسمو ما عند غيرهم تعصبا ويسمو ما عندهم غيرة ونخوة وحمية، والحق أنه تعصب في

---

[١٦] المؤلفات الكاملة : جـ ٢، ص٣١، ٣٢.

[١٧] المرجع السابق : ص ٦٥

الحالين، ومماثلة عند الطرفين، ولكن الناس يغالط بعضهم بعضا، وتنتظر اليوم الذي ينسى الناس فيه اختلافات المذاهب، وتتساءل متى يقولون مع الشاعر "خليل مطران":

هذي المذاهب كلها دين الهدي كأشعة الشمس افترقن على مدى
والملتقى في مصدر الأنوار

وبمرور الأعوام، ازدادت ميّ تعلقا بالذات المطلقة في الوجود، وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على فلسفتها التي صارت إلى التصوف، فلم يستهوها وهي في شبابها الحب والغزل، ولا شغلها البحث والاطلاع عن بصيرتها المتبتلة، لقد كانتراهبة في غير رهبانية، متكتمة عاشت مع الناس كما عاشوا، فلم تمارس اللهو أبدا وظل الشعور الديني يظلل "مي"، كما تظلل الخمائل في الهجير المتعب العطشان، وكانت في محنتها – أو محنة حياتها – شمعة تحترق دون أن يشعر بها أحد.

الفصل الثاني

مي وأقطاب عصرها.. من الربيع إلى الخريف

- الصالون
- عاشقة ومعشوقة
- المحنة

الصالون

لعبت الصالونات الأدبية دورا هاما في نشر الثقافة، وإلقاء الضوء على إنتاج الأدباء والمفكرين، والتعريف بالآداب المختلفة، ودفع الأدباء المغمورين إلى عالم الشهرة والنجاح وكلمة صالون لاتينية الأصل، وتعني المكان الذي يستقبل فيه الأهل زوارهم بعامة وبتعريب هذه الكلمة، تعني ندوة أو منتدى.

والحقيقة أن هذا المعنى المعرب لا يؤدي المعنى بدقة، لأن محتوى اللفظين يرجع إلى أمد بعيد، فالشعراء قديما كانوا يتزاحمون عند الخلفاء لإنشاد قصائدهم أو يجتمعون لمناقشة قصيدة أو تقييمها ويسمى مكان اجتماعهم (منتدى)، وقد كانت هذه المنتديات وقفا على الرجال.. وقد عرفت أوروبا– بصفة عامة – وفرنسا – بصفة خاصة – هذه الصالونات في القرن السابع عشر، وانتشرت وحققت شهرة عالمية في القرن الثامن عشر.

وقد عرف العرب الصالونات الأدبية والندوات النسائية منذ عهود قديمة، فقد اشتهر في الجاهلية الخطباء والخطيبات والشعراء والشاعرات، ومنهن على

سبيل المثال "هند بنت الخس"وهي الزرقاء"، و"جمعة بنت حابس"، واشتهرت في الجاهلية نساء من المحكمات والناقدات للشعر، يجلسن بين الرجال في مجالس، ويسمعن القصيد، ويحكمن لشاعر على آخر.. ومنهن "أم جندب""زوجة امرئ القيس"، التي حكمت بين امرئ القيس وعلقمة الفحل، وكان حكمها لعلقمة على زوجها،فطلقها امرؤ القيس بسبب هذا.. وليست أندية النساء بدعة في التاريخ الإسلامي.. ففيالعصر الإسلامي كانت السيدة عائشة – رضي الله – عنها زوج النبي – صلى الله عليه وسلم – تحفظ شعر لبيد وتتمثل به في المجالس وتتكلم في مسائل الفقه.

وفي مكة ظهرت امرأة جزلة اسمها "خرقاء"، وكان عندها سماطان من الأعراب تحدثهم وتناشدهم بلا ريب ولا سوء ظن.

وكانت كذلك "عمرة" امرأة أبي دهبل الشاعر جزلة يجتمع إليها الرجال للمحادثة وإنشاد الشعر.. ولقد عرفها زوجها – قبل الزواج – في أحد المجالس فتزوجها.. وعرف العرب كذلك ندوة السيدة سكينة بنت الحسين بن على في العصر الأموي بالمدينة المنورة، وتفيض كتب الأدب والتاريخ بذكر هذه الندوة وقدترجم لها "ابن خلكان" صاحب وفيات الأعيان.. وذكر طرفا مننوادرها، وأخبارها في مجالسها ومواقفها من الشعراء والأدباء، وكانت تعرف كيف تأسر قلوب الرجال في أدب ظاهر وعفة باطنة، ولم يتعرض جمالها وملاحتها ومكانتها للقيل والقال، وما عرف عنها ريبة في حياتها، بل وصفها المؤرخون بأنها كانت أفضل نساء عصرها، وعرف العرب كذلك منتدى "ولادة بنت المستكفي" في قرطبة في زمن العباسيين في القرن الحادي عشر الميلادي، وعن طريق منتداها

الأدبي نشأت علاقة الحب الشهيرة بين ولادة وأبي الوليد بن زيدون الشاعر الأندلسي الشهير، الذي نظم فيها نونيته المشهورة التي مطلعها:

أضحى التنائي بديلا من تدانينا   وناب عن طيب لقيانا تجافينا

كذلك عرف العرب صالون "حفصة الركونية" في غرناطة في القرن الثاني عشر الميلادي، هؤلاء النساء المتحدثات إلى الرجال وكثيرات غيرهن تحفل بذكرهن كتب التاريخ والأدب ولم تتطرق مجالسهن إلى ريب أو شكوك أو تصل إليها الوساوس، لأن الاجتماع فيها كان جماعيا، للمحادثة والمذاكرة والمناظرة.. وفي العصرالحديث، عرفت مصر في العقد الأخير من القرن الماضي صالون الأميرة (نازلي فاضل)، وهي بنت الأمير مصطفى فاضل وكان وليا للعهد حين كان أخوه إسماعيل الخديوي، ولكنه اختلف مع إسماعيل، فهاجر الأستانة، وكان الأمير مصطفى محبا للثقافة والأدب،وفي قصر الأميرة "نازلي" عقد أول صالون عربي، وكان من رواده الشيخ محمد عبده والزعيم سعد زغلول وقاسم أمين وعلييوسف وأحمد لطفي السيد وآخرون من المهتمين بقضايا الإصلاح الاجتماعي والتطور السياسي، وقد اتسم ذاك المنتدي بسمات النخبة والطليعة، إن المشابهة بين صالون الأميرة نازلي فاضل وصالون مي زيادة، تكاد تكون تامة من حيث الشكل، أي من حيث ما يدور في الصالونات من مناقشات ومناظرات ومكانة المجتمعين، ومن حيث ترفع الأحاديث عن الابتذال وارتفاعها عن الصغائر، إلا أن صالون مي يختلف في ناحية واحدة وهي التعرض للسياسة، فالمناقشات في صالون الأميرة نازلي كانت دائمة وثابتة في السياسة وما يدور على الساحة السياسية، أما صالون مي فالتطرق لناحية السياسة قليل وطارئ.

وفي عام ١٩٠٥ عرفت مصر ندوة "لبيبة هاشم" صاحبة مجلة "الفتاة"، وكان من روادها الشيخ علي يوسف وأحمد لطفي السيد وغيرهما، وفي الوقت ذاته تقريبا شهدت حلب مولد صالون في دار امرأة تنتميإلى أسرة اشتهرت بالثقافة وحب الأدب والعلم هي"مريانا مراش" (١٨٤٩-١٩١٩)، وكانت مريانا أول أديبة في سوريا برزت في مجال الأدب والصحافة، وكان صالونها ملتقي النبهاء من عشاق الأدب وصفوة المؤرخين والمفكرين، ولكن الصالون أقفر لنزوح الغالبية من رواده إلى مصر، واتخاذها وطنا وذلك هروبا من الاستبداد والظلم في العهد العثماني وبحثا عن الحرية والتسامح التي كانت تنعم بهما مصر.

وفي دمشق أقامت "ماري عجمي" – وكانت في عصر مي – مجلسا أدبيا في دارها، وكانت شاعرة جيدة مجددة، تمرست بالصحافة والتدريس، ولكن مجلسها لم يتسع إلا لأندادها من الرجال، ولم يبق طويلا فإن أديبة الشام، أدركتها الكهولة فانفض من حولها الأصدقاء.

والحقيقة التي تبدو واضحة، أنه لا يستطيع الباحث المحقق في مظاهر الحركات الفكرية والأدبية أن يطوي أخبارا وأسبابا، ويحصر عدد الصالونات والمنتديات الأدبية في مختلف العهود، وذلك يرجع لأكثر من سبب، فالمنتدى الفكري كان ينفض بموت صاحبه أو صاحبته أو بالشيخوخة، فينصرف عن الصالون رواده، أو هجرة المترددين على المنتدى إلى بلد آخر غير التي بها المنتدى، ومن الجلي أيضا أن تأثير تلك المنتديات على الحياة الفكرية كان تأثيرا محدودا، ربما لأن رواد المنتديات والصالونات كانوا من فئة معينة، وهي صفوة المفكرين والعلماء والأدباء، وهذا يجعل الصالون ينعزل برواده عن الحياة

الاجتماعية.. كذلك إن كتب الأدب والتاريخ تشير إلى المنتديات، لكن بصورة عارضة وموجزة.

إن ظاهرة المنتديات والصالونات الفكرية في أدبنا العربي القديم منه والحديث ظاهرة جديرة بالدراسة والاهتمام، والمكتبة العربية تعاني فقرا في المؤلفات التي تتعرض لها، وكانت بداية انعقاد صالون مي عام ١٩١٣، ففي١٩١٣/٤/٢٤ وقفت مي خطيبة لأول مرة في بهو الجامعة المصرية، لإلقاءكلمة جبران خليل جبران نيابة عنه اشتراكا في تكريم الشاعر خليل مطران، بمناسبة الإنعام عليه بوسام رفيع، وبعد أن ألقت الخطبة على جمهور الحاضرين، أعقبتها بكلمة لتحية المحتفل، وفي نهاية الكلمة وجهت الدعوة لعقد صالون أدبي في بيتها، فلقيت من الحاضرين يومها تشجيعا عظيما، وبعد ذلك ابتدأ يجتمع في بيتها، "صالون أدبي" كل يوم ثلاثاء من كل أسبوع، ومكث أعواما تحت رئاسة المرحوم الشاعر إسماعيل صبري.. وكان الصالون في بادئ انعقاده عام ١٩١٣يعقد بمسكنها في شارع عدلي بوسط القاهرة – مكان محطة البنزين الحالية – وكان يحمل اسم "شارع المغربي" ثم انتقل عام ١٩١٢إلى إحدى عمارات جريدة "الأهرام"، واستمر حتى نهاية الثلاثينيات، وفي صالونها استقطبت المفكرين والكتاب والشعراء، ونوعيات مختلفة من علية القوم والأثرياء والأدباء المعدومين كذلك، وكان صالونها رحبا فسيحا، اختارت أثاثه بنفسها، وعلقت في صدر صالونها أبيات الإمام الشافعي:

إذا شئت أن تحيا سليما من الأذى   وعيشك موفور وعرضك صينُ
لسانك لا تذكر به عورة امرئ   فكلك عورات وللناس ألسنُ

وعينــك إن أبــدت إليــك معايبــا فـصنها وقـل يـاعين للنــاس أعــين
وعاشر بمعروف، وسامح من اعتدى وفــارق، ولكــن بــالتي هــي أحــسنُ

وكانـت فـي صـالونها تقـدم شـراب الـورد أو القهـوة علـى الطريقـة الـشرقية، وكانـت تجلـس فـي صـدر صـالونها الرحـب ترحـب بـضيوفها وحولهـا حـشد مـن رواد نـدوتها مـنهم: إسـماعيل صـبري، منـصور فهمـي، ولـي الـدين يكـن، أحمـد لطفـي الـسيد، أحمـد زكـي، رشـيد رضـا، محيـي الـدين رضـا، مـصطفي عبـد الـرازق، الأميـر مـصطفي الـشهابي، الفريـق أمـين المعلـوف، الـدكتور يعقـوب صـروف، الـدكتور شبليشميل، سلامة موسى، إسماعيل مظهر، محمد حسين المرصفي، أحمدشوقي، خليـل مطـران، إبـراهيم المـازني، عبـاس محمـود العقـاد، أنطـون الجميـل، مـصطفى صادق الرافعي، طه حسين، داوود بركات، زكي مبارك، عبد الرحمن شكري.

ولا عجب في أن يكون منتدى مي ظاهرة كبيرة في أدبنا العربي الحديث، فرواد التجديد والتحديث كانوا من رواد صالونها ومن أصدقائها، فلم يقيض لأديبة في ندوتها كماقيض لمي من نجاح، وفي رأيي أن هناك مجموعة من الأسباب أدت إلى نجاح هذا الصالون على رأس هذه الأسباب، الخصائص الذاتية لشخصية "مي زيـادة" فإخلاصـها وشـبابها وتـألق نبوغهـا وسـحر حـديثها، أروى ظمـأ رواد صـالونها إلـى الـسعادة الروحيـة فـأثرت فـي أدبـاء عـصرها مـن النـاحيتين الإنـسانية والفنيـة، فكانت تشارك في كل حديث، وتختصر للمجلس سعادة العمر في لفتة أو لمحة أو ابتسامة، فرواد صالونها كان لا يفوتهم الثلاثاء من كل أسبوع، فإذا تعذر حضور الأديب منهم، واضطر للغياب كان كظامئ الطير حواما على الماء – على حد

تعبير الشاعر إسماعيل صبري الذي اضطر للغياب عن الصالون لعذر طارئ فكتب معتذرا عن الغياب قائلا:

روحي على بعض دور الحي حائمة   كظامئ الطير حواما على الماء
إن لم أمتع بمي ناظري غدا   أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

يقول الأستاذ العقاد في مقال له عن "مي": "كان ما تتحدث به مي ممتعا كالذي تكتب بعد روية وتحضير، فقد وهبت ملكة الحديث في طلاوة ورشاقة وجلاء، ووهبت ما هو أول على القدرة من ملكة الحديث وهي ملكة التوجيه وإدارة الحديث بين مجلس المختلفين في الرأي والمزاج والثقافة والمقال، فإذا دار الحديث بينهما جعلته ميعلى سنة المساواة والكرامة، وأفسحت المجال للرأي القائل الذي ينقضه أو يهدمه وانتظم هذابرفق ومودة ولباقة، ولم يشعر أحد بتوجيه الكلام منها، وكأنها تتوجه من غير موجه، وتنتقل بغير ناقل وتلك غاية البراعة في هذا المقام.."[1].

إن المواقف الكثيرة التي شهدها الأستاذ العقاد من مي جعلته يؤكد رأيه السابق.. بذكر أحد المواقف التي عاصرها".. ليس أدل على براعة مي من إدارتها الحديث في مجلس حضره نحو ثلاثين كاتبا وأديبا ووزيرا، للتشاور في الاحتفال بالعيد الخمسين للمقتطف، وكان اجتماع هذا المجلس عندها إبان المنازعات السياسية التي وصلت بكثير من الكتاب والأدباء إلى حد التقاطع والعداء.. وكان منهم من حضر هذا المجلس وهم متشيعون إلى شتى الأحزاب، منتمون إلى

---

[1] وداد سكاكيني: كتابها السابق الذكر، ص ١٢٩.

مختلف الهيئات، فقضينا عندها ساعتين نسينا فيها أن البلد في اضطراب، أومنازعات سياسية بفضل براعتها في التوفيق بين الآراء والأمزجة وقدرتها على توجيه الحديث إلى أبعد موضوعات الخلاف والملاحاة.. وما أحسب أن أحدا غير "مي" قد استطاع هذا الذي استطاعته في تلك الأيام، حتى أذكر أنني قلت لها وأنا أودعها تلك الليلة: لقد كنت يا آنسة في هذا المساء تحملين معزف أورفيوس.."[٢].

ويصف إبراهيم عبدالقادر المازني زيارته لصالونها قائلا: "أعرف أني دخلت متهيبا، مستحييا، ووقفت على الباب مترددا، تهيبت لقاءها واستحييت أن أجد نفسي بين زوارها الذين قيل إنهم من كل طبقة، وترددت لأني لم أعتد هذه المجالس، ولأني أعرف من نفسي شدة النفوز من هذه الطبقات التي تعد نفسها عالية أو متعالية أو لا أدري ماذا أيضا على أن دخلت بسلام.. فاستقبلتني هاشة باشة، شاكرة، فتعجبت ولا أظن أني نطقت بحروف وقعدت حيث أو مأت، وكان هناك الأساتذة لطفي السيد، وخليل مطران، ومصطفى عبدالرازق، والسيد رشيد رضا، وابن أخيه محيي الدين رضا والعقاد، وآخرون كثيرون، امتلأت بهم حجرات الدار، وكانت المرحومة أمها تساعدها على الترحيب بالضيوف وإكرامهم".

ولا أذكر أنه دار بيني وبينها حديث. وكانت كلما مرت بي تلقي كلمة تحية، أو تكتفي بالابتسام، وأنا كالأخرس لا أنبس بنبت شفتة!.. إلى أن يقول: "وإذا بهذا الجمع الحاشد يخرج من الحجرات إلى الردهة الفسيحة وإذا بمي تقف لتخطب، فارتعت ووجمت فما أكره شيئا كراهتي للخطب.. وقالت شيئا سمعت

---

[٢] وديع فلسطين: مي في حياتها وصالونها وأدبها، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت،١٩٨٣، ص ٢٦.

منـه اسـم مـاكس نـورده، فـانطلق لطفـي الـسيد يـصفق، فتعجبـت لهـذا الرجـل، ولماعددته يومئذ إسرافا في التلطف والمجاملة، ولم أصغ لشيء مما قالت.. ورأيت كثيرين ينهضون شاكرين ممتنين.. وصار هذا يدعو ذاك لإلقاء كلمة.. فخفت، وزادني رعبا أن السيد محيي الدين رضا همس في أذني أنه سيدعوني إلى الكلام فقلت: "والله لئن فعل لأقولن ما يسوء.. فما أنا من رجال "الصالونات" واتفق في هذه اللحظة أن مرت بي الآنسة مي، فحاولت أن أنهض لها، فنهتني عن ذلك، وعرفتني أنه غير لازم، فوجدت لساني، وقلت لها معتذرا عن جهلي:

– إني من عامة أبناء الشعب، ولست من رواد الصالونات، فأرجوأن تتجاوزي عن أغلاطي".

فقالت بابتسامة وديعة:

– لا تقل هذا الكلام.

قلت:

– ألا تحبين أن تعرفيني على حقيقتي؟

قالت: طبعا.

قلت: ثقي إذن أني من أبناء الشعب، ولا أستطيع، ولا أحب أن أرتقي هذه المنزلة! فتبسمت وهزت رأسها..[٣].

لقد عظمت مكانة مي في الأفئدة، وكانت حريصة على تلك المكانة وعلى مجدها الأدبي، فحرصت على مضاعفة جهودها في القراءة والتأليف، وكانت ثقة المعجبين بها تزيد من طموحها ونبوغها، فقدمت التضحيات الكثيرة.. وربما كانت

---

[٣] المرجع السابق: ص ٢٢، ٢٣، ٢٤.

لاتشعر بحجم هذه التضحيات.. من نشوة النجاح، لقد أخذت نفسها بالجد، فكانت لا تلهو مع اللاهيات من جيلها، ولا تنفق وقتها هباء فيما لا يفيد، ولم تفكر في الزواج رغم عشرات المتيمين والمعجبين، لقد كان كل تفكيرها محوره المجد الأدبي والمكانة العظيمة، وبشخصيتها الجذابة، استطاعت أن تكون ألفة روحية بين المترددين على صالونها، وكانت هي نفسها أعظم لتسامي الإنسان بأفكاره ومشاعره، فكان حديثها تشع منه روح التسامح والود والتهذيب الرفيع والفكر العميق والنكهة المهذبة اللبقة."فلو جمعت الأحاديث التي دارت في ندوتها لتألفت منها مكتبة عصرية تقابل مكتبة العقد الفريد ومكتبة الأغاني في الثقافتين الأندلسية والعباسية".

وكانت المرأة العربية وقتذاك لم تنل الكثير من حقوقها الاجتماعية، التي أقلها التعليم، وعندما رأي الرواد من المفكرين الأديبة النابغة "مي زيادة" بشخصيتها الفريدة ازداد إيمانهم بضرورة إعداد الفتاة في بيتها ومدرستها، لأنه تقع على عاتق المرأة مسئوليات جسام فهي زوجة وأم وأخت..، وكان من أنصار تعليم المرأة وتشجيعها على التعليم والقراءة والتأليف الأستاذ أحمد لطفي السيد والدكتور طه حسين، وإليهما يرجع الفضل في تشجيع الكثير من الأديبات فيما بعد عصر مي.

وكان المترددون على ندوتها يتحدثون في شتى المواضيع الفكرية والأدبية، ويتكلمون بالعربية أو بغيرها من اللغات الأجنبية، أما مي فكان حديثها دائما باللغة العربية الفصحى.

أما عن الطابع العام لندوتها فهو الطابع الأدبي الذي لم يتغير، ولم يزاحمه شعار آخر، ولئن تجافت صاحبته عن السياسة الحزبية والأجنبية، فما كان لها أن تغفل عما يدور في الخواطر من جراء هذه السياسة من النواحي القومية والعالمية، فتقرأ كبريات الصحف التي تعني بهذا الشأن وتستفتيها بعض المجلات الأدبية في نهضة الأقطار العربية وتطور النهضة وأسبابها، فلا يفارقها الشعورالوطني الأصيل والرأي السديد في الخطاب والجواب، وتغلو في اعتدالها نقمة على الاستعمار وسياسته، فتتحدث وتكتب في الموضوعات التي تجدها أجد يعلى الوطن في البناء والنضال، ولم تكن تريد للمرأة العربية أن تخوض في السياسة وهي في خطواتها الأولى للتحرر مماعاق نهضتها وتعليمها.

وإذا كانت "مي" في ندوتها وأحاديثها تباعد بينها وبين التيارات الحزبية والتعصبية، فما استطاعت أن تدير لها ظهرها والمجتمع يعاني من همومه، وإذا مرت بحديث طارئ أو عابر عرفت بلباقتها كيف تتناول الموضوع أو تنهيه، ولم يحضر ندوتها زائر من السلك الدبلوماسي، إلا كان الأدب وسيلته اليها يتذوقه أو يمارسه، ولم يكن يصد عنها من أوتي الموهبة والثقافة ولم يبلغ مكانة الكبار في أقدارهم وأعمارهم.. فقد حدثنا الدكتور طه حسين في بعض ذكرياته أنه لم يتصل بندوة "مي" إلا بعد أن نوقشت رسالته الجامعية في (أبي العلاء المعري) للدكتوراة في الأدب، وحضرت مينفسها هذا النقاش، ثم شهدت بعض الحفلات التكريمية التي أقيمت له وكان الواسطة إلى ندوتها أستاذها وأستاذه أحمد لطفي السيد [٤].
تقول الأديبة "إيميه خير" عن صالون مي زيادة (في حديث نشرته مجلة إذاعة

---

[٤] وداد سكاكيني: مرجع سابق، ص ١١٧، ١١٨.

لبنان– تموز ١٩٧٢):" كان أبرز أهداف صالونها، البحث عن إنشاء جديد يقرب بين طرفي اللغة الفصحي التقليدية واللغة العامية، والتقريب بين الفكر الشرقي والغربي بواسطة تعريب الروائع الأوروبية.. وفي أيام الثلاثاء كان يزدحم الصالون، فتناقش الكتب الجديدة والقصائد الحديثة والحملات الصحفية وكان أنطون الجميل أفوه خطباء الشباب يحلل قضايا الساعة.. وتندمج مي في شتي الأحاديث بما توحيه روحها الوثابة من الأفكار المبتكرة.. فتصفق لها وتمدحها تلك الجوقة ومنها أولئ كالذين حملوا لمصر صولجان الأدب، فأبصرت مي بهؤلاء الرجال الذين كرموها أملا كبيرا لمستقبل المرأة الشرقية المضمون في حياتها الاجتماعية ومؤازرته اللرجل، وتشجيعامنها لهذا الأمل كتبت سيرة "باحثة البادية" وبعد وقت طويل "سيرة عائشة التيمورية" كأنما شاءت أن تقول لهاتين الرائدتين إن فتيات الجيل الجديد سيسرن على خطى الأمهات".

يقول أحد الباحثين وهو الدكتور مترى بولص: [٥]".. لم يكن صالون مي وقفا على فئة من المؤلفين المنتمين إلى طبقة أو اتجاه دون فئة أخرى، إلا أنه في منحاه الاجتماعي كان وقفاً على الفئة الفنية.. والأدب تحول في صالون ميإلى تيار فكري بعيد عن التيارات الاجتماعية والسياسية التي كان يضطرب بها المجتمع المصري، وبذلك نأت مي بالأدب عن الالتزام الاجتماعي الواقعي، وحصرته في برج عاجي تطل منه على الناس، إن صالون مي في جانب من جوانبه الإيجابية لدليل على رقي الفكر وسمو الثقافة، إلا أنه من ناحيته السلبية سمة من سمات نزعتها الفردية، وأرستقراطيتها الفكرية.. وهذا ما جعل صالونها عيد الأصول عن الشعب منقطع الصلة بالعاديين من الناس".

---

[٥] مجلة "آفاق عربية": بغداد، ع٢، شباط ١٩٨٦، ص ٨٨.

وإني أختلف مع الدكتور بولص في بعض الأحكام، ما دام صالون مي لم يكن وقفا على فئة من المؤلفين المنتمين إلى طبقة معينة، أو اتجاه معين، فهو يضم إذن فئات من مختلف الفئات فمنحاه الطبقات والاتجاهات، وهذا يناقض ما يقوله الدكتور في أن هذا الصالون منحاه الاجتماعي كان وقفا على الفئة الغنية؟ فما دام رواد الصالون من مختلف الاجتماعي، ليس وقفا على فئة معينة– وهي الفئة الغنية التي يشير إليها الدكتور.

أما كون صالونها قد كون تيارا فكريا بعيدا عن التيارات الاجتماعية والسياسية، فمن البديهي أن التيارات الاجتماعية والسياسية في أي مجتمع لها تأثيرها الواضح والمباشر وغير المباشر على التيارات الفكرية التي ليست في معزل عن هموم المجتمع والسياسة.. كما أن صالون مي سمته الأساسية أنه أدبي فكري، ولم يكن اجتماعيا أوسياسيا.

وإذا كان الصالون سمة من سمات نزعة من الفردية وأرستقراطيتها الفكرية، فإنه سمة من سمات تميزها وتفردها، فكان صالونها أشبه بخلية نحل أدبية، فكانت بارعة في توجيه الحديث لكل زائر، وإفساح المجال أمامه ليدلي برأيه ويقول كلمته، فلايشعرأحد بالاغتراب في مجلسها.

ومي لم تكن أرستقراطية وليس أدل على ذلك من أن صالونها ضم مختلف الفئات من الأدباء والمفكرين.. كذلك موقفها الشهير من المازني حين ذهب لصالونها للمرة الأولى، وعلى حين غرة وهو جالس مرت من أمامه فنهض احتراما وتقديرا لها فنهته عن هذا!.

يقول الدكتور طه حسين: "كان صالونها ديمقراطيا أو قل كان مفتوحا لا يرد عنه، الذين لم يبلغوا المقام الممتاز في الحياة المصرية، وربما كانوا يدعون إليه، وربما كانوا يستدرجون إليه استدراجا فيلقون الناس ويتعرفون إلى أصحاب المنزلة الممتازة، ويكون لهذا أثره في تثقيفهم وتنمية عقولهم وترقيق أذواقهم، وأنا أذكر أني اتصلت بصالون ميعلى هذا النحو بعد أن نوقشت رسالتي في "أبي العلاء"، وشهدت مي هذه المناقشة، وشهدت فيما يظهر بعض الحفلات التي أقامها لي الزملاء حينئذ، وطلبت إلى أستاذها وأستاذي لطفي السيد أن يظهرني في صالونها، وكذلك عرفتها في هذا الصالون.. كان الذين يختلفون إلى هذا الصالون متفاوتين تفاوتا شديدا فكان منهم المصريون على تفاوت طبقاتهم ومنازلهم الاجتماعية وعلى تفاوت أسنانهم أيضا، وكان منهم السوريون وكان منهم الأوروبيون على اختلاف شعوبهم وكان منهم الرجال والنساء، وكانوا يتحدثون في كل شيء ويتحدثون بلغات مختلفة وبالعربية والفرنسية والإنجليزية خاصة.."[٦].

وإذا كان صحيحا ماذهب إليه الدكتور بولص من أن أديبتنانأت بالأدب عن الالتزام الاجتماعي الواقعي.. فإننا لا يجب علينا أن نخبر الأديب بالالتزام الاجتماعي ونضع لإبداعاته الحدود والقواعد.. فليس كل أدب الالتزام ناجحا فنيا.. فكم من أدب ملتزم عديم القيمة الفنية.!

وها هو أمير الشعراء أحمد شوقي يترجم انطباعاته عن مي وصالونها بقصيدة يقول فيها:

أسائل خاطري عما سباني	أحسن الخلق أم حسن البيان ؟
رأيت تنافس الحسنين فيها	كأنهما لمية عاشقان

---

[٦] محمد عبد الغني حسن: مرجع سابق، ص ١٧٩ .

إذا نطقت صبا عقلي إليها وإن بسمت إلى صبا جناني

وما أدري أتبسم عن حنين إلى بقلبها أم عن حنان

أم أن شبابها راث لشيبي وما أوهى زمانى من كيانى

وقد زار صالون "مي" اثنان من أفضل المفكرين الأمريكيين، الأول هنرى جايمس القصصي الأمريكي وشقيق وليم جايمس العالم النفسي المشهور، والثاني ابن الشاعر الأمريكي، وكانت مي معهما مثالا للمرأة الشرقية المثقفة، فخرج الأديبان الكبيران من ندوتها معجبين بها وبعقليتها المتفتحة.

وجاء عام ١٩٩١يحمل في طياته الأحزان لمي، فقد توفي والدها "إلياس زيادة" صاحب ومحرر جريدة "المحروسة"، رحل وقد كان سندا قويا لابنته، في ارتياد الحياة الغريبة، فقد كان يشجعها ويشحذ من أزرها في مواجهة المجتمع والسير في دروبه.. بينما كانت أمها تحدثها عن ترك هذا اللون من الحياة وتنصحها بأن تسارع بالزواج، لكن مي لم تلتفت إلى نصيحة أمها، وماذا تريد ممن الحياة غير أن تقرأ وتكتب وتحضر الندوات وتقابل الأدباء والمفكرين، فهذه الحياة استهوتها فانشغلت بها.. أما الآن وبعد أن توفي والدها وسندها ماذا تفعل؟!.

ورغم أن الصدمة كانت كبيرة لها، غير أن الأيدي التي امتدت لمساعدتها خففت من وطأة الصدمة.. فبمآزرة السوريين الذين في مصر، وكانوا يتعاضدون فيما بينهم تولت تحرير "جريدة المحروسة" وقدمت "الأهرام" لها كل ما تحتاجه من عون، فأمدتها الأهرام عام ١٩٨١ م بمكان مناسب في شارع مظلوم، وهي العمارة التي شغلتها بعد ذلك أقسام جريدة "الأهرام"، لتقيم فيه وتدير ندوتها،

وبدأت مي تكتب في"الأهرام" منذ عام ١٩٢٢ ثم في مجلة "الزهور" لصاحبيها أمين تقي الدين وأنطون الجميل، وكان داوود بركات رئيس تحرير "الأهرام"، وقتذاك متيما بميعلى تقدم سنه، وقيل إنه هو الذي أردف اسم مي بلقب النابغة، كذلك قيل أن تقديم المكان – لمي وصالونها –كان لغرض تجأرى بحت القصد منه هو نقل اهتمامات مي بعد وفاة والدها من جريدته "المحروسة"إلى صفحات "الأهرام"، وبالفعل انتهي الأمر إلى إغلاق "المحروسة" وكتابة مي في الأهرام.

لقد استمر صالون "مي" قرابة خمسة وعشرين عاما، وهي أطول فترة عرفها صالون أدبي في الشرق أو في الغرب، وإن افتقار صالونها إلى غاية، أو منهج يسير عليه هو الذي جعل هذا الصالون يفتقر إلى خصائص البقاء والاستمرار، فقد اعتمدت صاحبته على جمالها ودلالها وعقلها وأنوثتها، في مد صالونها بالحياة والنماء، فلما تقدمت بها السن ولم يبق من الأمس إلا طيفه ومن الأنوثة إلا بقاياها ومن المجد إلا صداه، بالإضافة إلى أن الموت اختطف بعضا من رواد صالونها وانفض الآخرون عنها.. كل هذا كان له تأثير كبير في نهاية هذا الصالون.

وفي آخر أيامها انهارت انهيارا سيطر على أعصابها وحاصرتها العديد من الأمراض النفسية، ورغم كل هذا لم تفقد "مي" توجهها الفكري، لم تنطفئ الشعلة المتقدة إلا بالفناء.. وبينما صالونها يغلق أبوابه تعرضت الحياة الاجتماعية في مصر لرجات عنيفة وتغيرات عميقة.

فخرجت المرأة إلى مجال التعليم والعمل في أعداد كبيرة، وملأت الفتيات المدارس والجامعات، ولم تعد المرأة شيئا نادرا يجهد الإنسان وراءه ليراه أو يحاوره، ولم تعد الأبنية في معمارها الضيق والمدينة على امتدادها المترامي،

تشجع على مثل تلك الصالونات، فحلت مكانها المنتديات في دور الصحف وفي المقاهي، وعرفت القاهرة في الأربعينيات والحقبة التي تلتها قهوة الحلمية الجديدة وقهوة القزاز في باب الخلق والفيشاوي في حي الحسين ومقاهي أخري.. وفي الوقت نفسه حاولت بعض المتأدبات في مصر وسوريا إقامة مثل هذه الصالونات، ونسين أن الزمن غير الزمن، وأن الناس غير الناس، فجاءت محاولتهن تقليدا شائها، يفتقد الأصالة والفعالية وانتهت كلها إلى اللاشيء[٧].

بقيت نقطة مهمة يجب أن نشير إليها، ونحن نتعرض لصالون مي، هذه النقطة تتبلور في سؤال واحد: هل كان لمي وصالونها دور في المعارك الفكرية في ذاك الوقت؟

الإجابة: نعم.. لقد شهدت مصر في العشرينيات والثلاثيينات معارك فكرية عديدة.. ولم تكن مي في عزلة عن تلك المعارك الفكرية، وكان بمقدورها أن تؤثر في الكثير من الأحداث بتدخلها، لكنها كانت لا تتدخل تدخلا مباشرا..

وقد ذكر الأستاذ العقاد في أحاديث كثيرة على صفحات الصحف والمجلات أنه اشترك في العديد من المعارك السياسية، وذكر أنه كان يقسو في حملته على عبد الخالق ثروت باشا انتظارا لهاتف من مي تنصحه فيه بالتقية والتخفيف، وروي العقاد في حديث له مع كامل الشناوي أن "مي" كانت تشفق من عنف حملاته على الحكومة، وتخشى أن تجره تلك الحملات إلى السجن، وكثيرا ما رجته في أسلوب رحيم أن يخفف من غلوائه حتى لا يلقي به إلى غياهب السجن، وقال إنه قد حدثت بينهما فييوم من الأيام جفوة، وأصر العقاد على ألا

---

[٧] د.الطاهر أحمد مكي: الصالونات الأدبية في الشرق والغرب، مجلة الدوحة، قطر، ع١٠٣، ١٩٨٤، ص ٤٥ .

يتصل بها، ولكنه شعر بحنين إليها، فلم يفكر في زيارتها أو كتابة رسالة إليها، وإنما حرر مقالا عنيفا هاجم فيه رئيس الوزراء إسماعيل صدقي، وفي اليوم التالي جاءت إلى جريدة "البلاغ" وقابلت المرحوم عبد القادر حمزة، وقالت له: ألم نتفق مع الأستاذ العقاد على ألا يتخذ هذا الأسلوب العنيف حتى لا يعرض نفسه لما لا تحمده عقباه؟ ويقول العقاد: "وكانت غرفتي بجوار غرفة الأستاذ عبد القادر، ويفصل بين الغرفتين باب، وإذا بالباب يفتح، وتطل مي منه وخلفها الأستاذ عبد القادر حمزة يقول: "هذا هو الأستاذ العقاد فقولي له ما تريدين.. واصطنعت مي الهدوء، وتصنعت الابتسام، وقالت لي: "فيم هذا الجفاء"؟ فلم أتمالك أن قلت لها، أو قلت لنفسي: "وفيم هذا الجفاء"؟[٨] .

وكان العقاد عندما يشدد من هجومه على خصوم الوفد وخصوم سعد زغلول يأتي إليه صوت مي عبر أسلاك الهاتف يستعطفه، ليخفف من تلك الحملات خوفا عليه من الاعتقال أو النفي.

وشهدت أديبتنا معركة "السفور" التي كانت من أهم المعارك الأدبية التي شهدتها الساحة الأدبية في ذلك الحين، وكانت على علاقة بطرفي النزاع الأصليين فهما من رواد ندوتها وهما مصطفي صادق الرافعي وعباس محمود العقاد، وهناك بعض الباحثين يرجع أن تلك المعركة الفكرية ما كانت لتقوم، لولا التنافس لكسب عواطفها، فقد كان العقاد والرافعي كلاهما متيمان بحبها، رغم أن الثاني – الرافعي – كان مقيما في طنطا حيث تعيش زوجته وأولاده، ومع أنه كان يكبر "مي" بأكثر من ثلاثين عاما، إلا أنه كان أول روادها الذين يحضرون صالونها

---

[٨] وديع فلسطين: مرجع سابق، ص٤٩ ،٥٠.

وهو في كامل أناقته، وكانت تستقبله بما يليق بكاتب إسلامي كبير، وشاعر يزاحم أحمد شوقيعلى إمارة الشعراء، وكان الرافعي مصابا بالصمم، مما جعل مشاركته في أحاديث الصالون محدودة، وكانت توليه عناية خاصة، وقد أحس هو بذلك، فكتب لها رسالة في عام ١٩٢٣ ونشرت هذه الرسائل في كتابه "أوراق الورد"، ولكنه لم يجد تجاوبا ولا صدي لرسائله، بل شعر بفتور عاطفة مي نحوه، فكتب لها في عام ١٩٣٤ رسائله الثانية والمعنونةبـ"رسائل الأحزان"، وقد نشرت في كتاب أيضا وهي تمثل مذهبه في الحب والجمال ثم تبعتها في نفس العام رسائله الثالثة "السحاب الأحمر"، وعرضت مي في صالونها رسائل الرافعي الأولى "أوراق الورد"، وكان من بين زوارها الأستاذ العقاد، وما إن نشرت رسائل الرافعي بعد ذلك، حتى تصدى لها العقاد بالهجوم، فقد كان بين الطرفين "العقاد والرافعي" خلاف قديم، يرجع إلى اتصال الرافعي الوثيق بالملك فؤاد، وإلى عمل العقاد مع سعد زغلول والأحزاب المعارضة، وتابع العقاد هجومه على الرافعي عندما نشر كتابه "على السفود" ناقدا العقاد وزميليه عبد الرحمن شكري، وعبد القادر المازني، وحمل حملة شعواء على مدرسة الديوان.

وشهد عام ١٩٧٢ منافسة على إمارة الشعر بين حافظ إبراهيم وأحمد شوقي وكان كلاهما من رواد الصالون وقد أقامت جريدة "السياسة الأسبوعية" مهرجانا لتنصيب شوقي أميرا للشعراء، وكانت مي محررة صفحتها النسائية، فأصبح من الواجب على أصدقاء حافظ ومريديه أن يكرموه هو أيضا، فجاء الحفل الثاني – حفل تكريم حافظ – على غرار الحفل الأول – لتكريم شوقي – فقد شهدته وفود عربية كبيرة وفي هذا ألقي حافظ إبراهيم قصيدته المشهورة عن العلم:

العلـــم شـــرقي تغافـــل أهلـــه عنـــه، فعـــاقبهم بطـــول غيـــاب

وتنبهـــوا لمـــصابهم، فتـــضرعوا فغفـــا، وعـــاودهم بغيـــر عتـــاب

عاشقة ومعشوقة

علاقات "ميّ زيادة" العاطفية موضوع أغرى كثيرا من الباحثين وشغلهم، فكثرت الكتابة فيه إلى حد أننا نرى كتبا بأكملها تتناول هذا الموضوع، ونطالع كذلك بين ثنايا الصحف والمجلات منذ عهد ميّ حتى يومنا هذا موضوعات كثيرة تتناول علاقاتها العاطفية وعلاقات مفكري وأدباء عصرها بها.

إن الجانب العاطفي من حياة "ميّ " هو من أكبر الجوانب التي ركز عليها كل من كتب عنها.. ولا أبالغ إذا قلت إنه رغم كثرة الكتابات في هذا الجانب، لكنه جانب فيه من الغموض والإبهام الكثير، فلم يحسم تناوله أو مناقشته بشكل نهائي وموضوعي.. وهذا الجانب العاطفي في حياة الإنسان بصفة، عامة وفي حياة الأديب الفنان بصفة خاصة على قدر كبير من الأهمية!! لم لا، وقد أثر هذا الجانب في حياتها وأدبها، وأثر في الإنتاج الإبداعي الفكري لمعاصريها، أو بعبارة أكثر دقة أثر هذا الجانب على محبيها، إن المرأة كانت ومازالت نبعاً فياضا لإلهام الأدباء والشعراء والفنانين، لا سيما إذا كانت جميلة

جذابة: وأديبة نابغة.. إن مصدر الإبداع هو شعور الفنان وتحرك أحاسيسه الكامنة، وقد رأيت أن أتناول أبرز العلاقات العاطفية في حياة ميّ، ولا داعي لأن أبرز علاقات هامشية لم يكتب لها الخلود ولا الذكر.

جبران خليل جبران [١]

شغلت علاقة جبران خليل جبران بميّ الجزء الأكبر من كتب وأبحاث الباحثين، لأنها أهم علاقة في حياة ميّ، وأهم ما يدعم هذه العلاقة ويؤكدها في نفس الوقت الرسائل المتبادلة بين الاثنين وما تخللها من تعبيرات رقيقة وعبارات عذبة حالمة تنم عن الشوق والانتظار واللهفة.. ولا يساورني أدني شك في صحة هذه المراسلات، ولكن هناك أسئلة كثيرة تفرض نفسها.. هل حقا أحبّ جبران ميّ ؟! وهل كان هذا الحب متوهجا إلى هذا الحد الذي وصفه الباحثون وأولوه عناية بالغة؟ وهل من الممكن أن تنشأ علاقة حب بين طرفين (رجل وامرأة) ولم يلتقيا أبدا طوال حياتهما؟، هكذا شاءت الأقدار ألا يقضي كل منهما وطره من الآخر! أسئلة كثيرة وكثيرة، ورغم كثرة ما كتب في هذا الموضوع، إلا أنه في حاجة إلى إعادة نظر والحكم فيه بالعقل لا الهوي دون تحيز أوانفعال أو تعصب".وقبل

---

[١] ولد في قرية "بشرى" بلبنان في ٦ ديسمبر ١٨٨٣، استقر والده بقرية "بشعلا"، وأدت سوء علاقة والد جبران بوالدته عام ١٩٨٥إلى اصطحاب أولادها الأربعة وهاجرت بهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية، تاركة زوجها في "بشرى"، وظهر ميل جبران للرسم منذ صغره، وعاد إلى بيروت ١٨٩٦ والتحق بمدرسة الحكمة ولما توفيت شقيقته ووالدته وأخوه الأكبر – بسبب مرض خبيث – عاد هو وشقيقته "ماريانا" إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وأرسلته "ماري هاشكل" بعد ذلك إلى باريس لدراسة الفن ١٩٠٨– ١٩١٠، وعاد إلى نيويورك وأسس هو ونسيب عريضة "الرابطة القلمية" وفي عام ١٩٢٨ ذاعت شهرة جبران وملأت الآفاق، ولاقت كتبه التقدير والرواج وفيشتاء عام ١٩٢٩ اشتد عليه المرض وانهارت صحته تماما في إبريل ١٩٣١، وتوفي صباح الخميس ٩ إبريل ١٩٣١ تاركا خلفه إبداعات شعرية ومؤلفات رائعة خالدة خلدت اسمه.

الإيغال في القضية نتساءل أيضا: ماذا يقول أي إنسان بغض النظر عن كونه من رجال الفكر – في رجل يبعث برسائل العشق الحارقة، وكلمات الغرام اللاهبة لعدة فتيات أو سيدات؟ وماذا يقال في أنثى تفعل نفس الشيء بالنسبة للرجال؟ أتكون كل هذه الرسائل صادقة؟ أتكون كل هذه الخطابات عبارة عن مهارة أسلوبية وبخاصة من أناس يجيدون هذه الصنعة.

واقع الأمر أن في حياة جبران الذي أقام في أمريكا أكثر من امرأة حبر لها الرسائل الغرامية، وصرح لها بالحب من خلال كلمات لا تقبل اللبس، وفي حياة "ميّ"– التي أقامت في القاهرة – أكثر من رجل سهرت الليالي من أجله تدبجله خطابات طافحة بالعشق، وتظهر عاطفة نيران الشوق"[٢].

وإذا تحدثنا عن ميّ وجبران جدير بنا أن نتعرض لغراميات جبران، فجبران كان محبا للرسم وأظهر هذا الميل، فلفت نظر أساتذته، وقد أخذت إحدىمدرساته تشجعه على ممارسته، وتقدمه إلى كبار الرسامين الأمريكيين وتعرف على الرسام الأمريكي الكبير "ماجر" الذي أعجب برسومه وشجعه، ويقال إن جبران كان وقتها في الرابعة عشر من عمره قد التقى بسيدة أمريكية متزوجة كانت تتردد عليه لرسمها، وأنه قد قامت بينه وبين السيدة الأمريكية علاقة محمومة (رجح بعض الباحثين أنها علاقة جسدية)، ولما عاد جبران من الولايات المتحدة الأمريكية إلى بيروت عام ١٨٩٦ واتصل لوالده في قرية "بشرى"، وعاد إلى مواصلة دراسته تعرف خلال إقامته في بيروت على ابنه صديق حميم لوالده اسمها "حلا الظاهر" وهي التي أطلق عليها في كتابه "الأجنحة المتكسرة اسم "سلمى" وعلى والدها

---

[٢] أحمد حسين الطماوي: غرام ميّ وجبران بين الحقيقة والخيال، مجلة "الهلال"، القاهرة، ع٢، فبراير ١٩٨٦، ص ٨٥، ٧٦.

"فارس كرامة"، وكانت حلا أو سلمى تكبر جبران بعامين، يقول جبران: "كنت في الثامنة عشرة عندما فتح الحب عيني بأشعته السحرية، ولمس نفسي لأولمرةبأصابعه النارية، وكانت "سلمى كرامة" التي أيقظت روحي بمحاسنها، ومشت أمامي إلى جنة العواطف العلوية، حيث تمر الأيام كالأحلام وتنقضي الليالي كالأعراس..[٣].. كانت جميلة النفس والجسد فكيف أصفها لمن لا يعرفها؟! "[٤]، وقد زوجها والدها من رجل غني، واستمر جبران يراها مرة كل شهر حتى توفي والدها والتقى بها جبران، وأراد أن يبدأ معها حياة جديدة :تعالي يا سلمى، تعالي ننتصب كالأبراج أمام الزوبعة، هلمي نقف كالجنود أمام الأعداء متلقين شفار السيوف بصدورنا لا بظهورنا، فإن صرعنا نمت كالشهداء، وإن تغلبنا نعش كالأبطال، إن عذاب النفس بثباتها أمام المصاعب والمتاعب لهو أشرف من تقهقرنا إلى حيث الأمن والطمأنينة"[٥] لكن سلمي رفضت .. لأن ذكرى الماضي ستظل مجسدة أمامها دائما.. وتشاء الأقدار أن تتوفى سلمى هي وطفلها أثناء ولادته، وكانت هذه إحدى صفحات العاطفة في حياة جبران، وفي عام ١٩٠٤ نجح جبران في إقامة معرض للوحاته ورسوماته وزارت معرضه مدرسة للرسم فرنسية تعمل في إحدى مدارس بوسطن، وتدعي هذه المدرسة (ميشيلين) وتوطدت العلاقة بينهما، وعندما سافر جبران إلى باريس لدراسة الفن تقابل مع – ميشيلين – مرة أخرى– ولازمها، ونشأت بينهما علاقة حب، ولكن جبران بعد أن عاد إلى الولايات المتحدة الأمريكية تركته "ميشيلين" وتزوجت من رجل أمريكي.

---

[٣] جبران خليل جبران: الأجنحة المتكسرة، مطبعة كرم ومكتبتها، دمشق، د. ت، ص٣.

[٤] المرجع السابق: ص ٩١ .

[٥] المرجع السابق: ص٢٤.

وتعرف جبران على "ماري هاسكل" عن طريق ميشيلين، فقد قدمته إلى "ماري هاسكل" التي كانت تعمل ناظرة لمدرستها، وقد أعجبت ماري بجبران أشد الإعجاب وأقامت له في مدرستها معرضا للوحاته.. وقد ألقت "ماري" في يومياتها المنشورة المزيد من الضوء على علاقتها بجبران، يقول جبران رداً على إحدى يومياتها المنشورة: "لقد انجذبت إليك انجذابا خاصا، عندما رأيتك للمرة الأولي، كان هذا في معرض رسومي، وقد أحببت التحدث إليك في ذلك اليوم، ولما طلبت عرض صوري في مدرستك، رحبت بذلك ووافقت ببراءة الطفل، ثم أحببتك أكثر بعد ذلك.. وأحببت جو مدرستك وكتبك، وطريقة تناولك للأمور والقضايا المختلفة، وحتى نقدك لي، وقد جعلني هذا أصارحك بما في نفسي، وكنت تطرحين على أحيانا أسئلة محرجة، لكنني أحببت أسئلتك، وقد قابلت أنت أجوبتي بصدر واسع وفهم صادق، وكنت أعرف يومئذ أناسا كثيرين في بوسطن، لكن حبي لك فاق حبي لهم جميعا.. "[٦].

وأرسلت ماري جبران على نفقتها الخاصة إلى باريس، ليدرس الرسموالفنون بين عامي ١٩٠٨ – ١٩١٠ ويجدر بنا أن نتساءل: لماذا حرص جبران على ألا تتخطى علاقته بماري هل حدود الصداقة.؟ ولماذا راعي أن يحجب عنها علاقاته بالأخريات؟ هل كان الدافع وراء ذلك حرص جبران على الانتفاع بمساعدات ماري هاسكل الفنية والمادية أكبر من رغبته في الاقتران بها!

إن ماري هاسكل قدمت لجبران كل ما لديها من أموال، حتى أن الناس كانوا يعتقدون أن جبران ثري كبير من الشرق.. وقد كتب جبران لها وهو في فرنسا

---

[٦] د.رؤوف سلامة موسى: جبران حياته وآثاره، دار مطابع المستقبل بالفجالة والإسكندرية، ١٩٨٣، ص ١١

العديد من الرسائل المتوهجة بالحب، يقول جبران في إحدى رسائله إليها: "ما عرفت في حياتي إلا امرأة واحدة وأحسوإياها أني حر عقلا وروحا، وأشعر وإياها بذاتيتي، وهذه المرأة هي أنت.. ويقول أيضا.. فيك أجد كل ما أطلب من المرأة: روحا تتخذ منها روحي، جناحا تحلق به، ونورا يشع على المجهول ويفتح به المنغلق ووسادة يتكئ إليها رأسي.. أنت أعز شخص إلى في عالمنا، وأقرب إلى اليوم من أي وقت مضى"[٧].

وفي عام ١٩٢٦ تزوجت ماري هاسكل، وتركت بوسطن إلى "سافنا" بولاية جورجينا، والحقيقة أن جبران لم يحجب علاقته بماري هاسكل، فكان يعترف بفضلها وجميلها عليه فكان يهدي إليها بعض مقالاته العربية ومؤلفاته التي طبعت.. ولم تعرف أن جبران أهدي لميّ زيادة كتابا واحدا أو مقالة واحدة !!

إن علاقات جبران النسائية التي ذكرنا طرفا منها ليست كل ما لجبران من غراميات وعلاقات بالنسوة الغربيات، وإن ما تلونه كان إشارة سريعة ليس إلا.. وما دمنا قد أحطنا ببعض هذا الجانب العاطفي" من حياة جبران، فلا بأس أن نتناول علاقته بميّ زيادة في ضوء ما أحطنا به.

كانت شهرة جبران قد بلغت إلى مصر، وقرأ كتبه الكثير من النقاد والأدباء، ومنهم من لم يعجب بأدبه لرومانسيته الجامحة إلى عالم الخيال وغموض أفكاره، لكن "مي" عندما قرأت لجبران شعرت أن كتاباته تنم عن عاطفة إنسانية عالية ونادرة أيضا، وكانت تتبع أخباره وما ينشره باهتمام كبير.. ولما قرأت قصته "مرتا البانية" خطر ببالها أن تكتب إلى جبران، ولكن انتابها رهب وخوف من أنجبران

---

[٧] المرجع السابق: ص٢٦.

ربما يستهين بجرأتها ويهمل رسالتها، وقد يكون على غير علم بأدبها، فقد كانت في تلك المرحلة في بواكير حياتها الأدبية وكانت تنشر ما تكتبه بأسماء مستعارة، ولم تحظ بشهرة كبيرة بعد، كما حظيبها جبران في الشرق، لكن "ميّ" رغم كل هواجسها كتبت إلى جبران أول رسالة عام ١٩١٢فعرفته باسمها الحقيقي ونشاطها الأدبي، ولما تسلم جبران أول رسالة من ميّ تلمس في كلماتها روحا أدبية موهوبة، فلم يهمل رسالتها، ورد عليها متحدثا عن نفسه "..أما أنا قد ورثت عن أمي تسعين بالمائةمن أخلاقي وميولي، ولا أعني بذلك أني أشابهها بالحلاوة والوداعة وكبر القلب، وأني أذكر قولها لي مرة وقد كنت في العشرين لو دخلت الديرلكان ذلك أفضل لي وللناس، فقلت نعم، ولكن قد اتخذتك أما قبل أن أجيء إلى هذا العالم فقالت: "لو لم تجئ لبقيت ملاكا في السماء"، فقلت: "ولم أزل ملاكا"، فتبسمت وقالت: "أين أجنحتك"؟ فوضعت يدها على كتفي وقلت: "هنا" فقالت: "لكنها متكسرة"، وبعد هذا الحديث ذهبت أمي إلى ما وراء الأفق الأزرق، أما كلمتها "متكسرة" فظلت تتمايل في مسمعي، ومن هذه الكلمة غزلت ونسجت كتابي الأجنحة المتكسرة.."

وكان جبران في الغربة يعاني ألم الوحدة والقلق النفسي، الذي لا يدري كنهه.. وحينما صدر كتابه "الأجنحة المتكسرة" في أواخر إبريل عام ١٩١٣، أهدي نسخة منه إلى ميّ فقرأته بمنظور الأديبة والناقدة، فرأته متمردا على قيود المجتمع والأسرة، جانحا إلى الخيال، وقد انتقدت ميّ جبران في مفهومه للزواج تقول في إحدى رسائلها: ".. إننا لا نتفق في موضوع الزواج يا جبران أنا أحترم أفكارك، وأجل مبادئك، لأنني أعرفك صادقا في تعزيزها مخلصا في الدفاع عنها.

وكلها ترمي إلى مقاصد شريفة، وأشاركك أيضا في المبدأ الأساسي القائل بحرية المرأة.. فمثل الرجل يجب أن تكون المرأة مطلقة الحرية بانتخاب زوجها من بين الشباب، متبعة في ذلك ميولها والهاماتها الشخصية، لا مكيفة حياتها في القلب الذي اختاره لها الجيران والمعارف، حتى إذا ما أنتخبت شريكا لها تقيدت بواجبات. عند الزواج تعد المرأة بالأمانة والأمانة المعنوية تضاهي الأماني الجسدية أهمية وشأنا... عند الزواج تتكفل المرأة بإسعاد زوجها، وعندما تجتمع سرا برجل آخر تعد مذنبة إزاء المجتمع والعائلة والواجب، ربما اعترضت على هذا بقولك إن الواجب كلمة مبهمة يعسر تحديها في أحوال كثيرة، فليس لنا إلا أن نعلم "ما هي العائلة"؟ لنجد الواجبات التي تفرضها على أفرادها، دور المرأة العائلي هو أصعب الأدوار، وأوضعها وأمرها!"

"إني أشعر شعورا شديدا بالقيود المقيدة بها المرأة، تلك القيود الحريرية الدقيقة كنسيج العنكبوت المتينة متانة أسلاك الذهب..".

لقد كانت بداية العلاقة بين ميّ وجبران مبنية على أساس إعجابها بمؤلفاته رغم أنها – في كثير من الأحيان – تخالفه في الرأي.. لقد أعجبت ميّ بجبران إعجاب المناقضة وهو أن يعجب المرء بصفات في إنسان آخر يتمنى أن تكون موجودة فيه هو، فميّ في وضوح تفكيرها واستقامة سلوكها هي في الحقيقة نقيض جبران.. تقول ميّ في إحدى رسائلها لجبران: ".. كل واحد من مؤلفاتك صديق عزيز علي، بل أراني تلميذة أفكارك في مواضيع كثيرة..".

لقد تحول الإعجاب الأدبي إلى صداقة حميمة وعلاقة روحية متبادلة بينالطرفين.. وانقطع البريد بينهما خلال الحرب العالمية الأولى، حتى عاد البريد

كما كان، ولم يكن جبران أقل من ميّ قلقا على انقطاع الرسائل فهذه الرسائل سلواه في بلواه وغربته وإلهامه في الكثير من إبداعاته، وفور انتهاء الحرب بادر جبران إلى تحبير رسالة لميّ مع نسختين من كتابيه: "المجنون"، و"المواكب".

فكتبت ميّ نقدا لكتاب "المواكب" نشرته في مجلة"الهلال"[٨]، والحقيقة أنها في ذلك المقال ترددت فيه بين النقد والتقريظ، وبين الهجوم والاستسلام، فمدحت بحساب وأخذت بحساب أيضا.. فقالت في مدحه: "في المواكب كما في المجنون أكاد أتبين تأثير نيتشه، وإن كانت بسمة التهكم الفني الدقيق التي نراها عن جبران لن تشبه أبدا ضحكة نيتشه ذات الجلبة الضخمة المزعجة..

إن الشاعر العربي فني في كل شيء، ونظرة واحدة إلى كتاب "المواكب" تكفي لتعيين ما عنده من ذوق بسيط أنيق، ولا تقيم المرارة لديه طويلا، لأنه يعود إلى ذكر الطبيعة وحبها، وينشد مطربا حزنه ولهفه بنغمة عذبة..

ليس حزن النفس إلا ظل وهم لا يدومج وغيوم النفس تبدو من ثناياها الهموم

وقد يرتفع أحيانا إلى أعلى ذري التأمل. فنحسب الإمام الغزالي متكلما إذا يقول:

وغاية الروح طي الروح قد خفيت فلا المظاهر تبديها ولا الصور
إذا طوت شمأل أذيال عاقلة إلا ومر بها الشرقي فتنتشر

فيجيبه في الغاب، بما يدل على اعتقاده بوحدة الوجود:

لم أجد في الغاب فرقا بين نفس وجسد

---

[٨] مجلة الهلال: ع يوليو (تموز) ١٩١٩ م.

فـــــالهوا مـــــاء تهـــــادي	والنـــــدى مـــــاء ركـــــد
والـــــشذا زهـــــر تمـــــادى	والثـــــري زهـــــر جمـــــد
أعطنـــــي النـــــاي وغنـــــى	فالغنـــــا جـــــسم وروح
وأنـــــين النـــــاي أبقـــــى	مـــــن غبـــــوق وصـــــبوح

ثم تقول ميّ ناقدة: ".. ولكني أعتقد أن ذاتية الكاتب لم تدرك بعد استعدادها الأقصي، ولم تقف بعد على ذروة اقتدارها سواء في التصوير أو في الكتابة.. إن جبران خليل جبران مازال متسلقا كنف الجبل التي قيدته الأقدار بالصعود إليه، وسيتابع الصعود متمردا مادام كلفا بهذا النعت، وراء ستار الهجوم والتهكم بالرموز والأمثال، ولكنه سيصل يوما إلى القمة فنسمع منه عندئذ أجمل أنغامه.

فكتب جبران إلى ميّبعد غيبة يقول: ".. ولقد انصرفت عن كل ما وجدته بانتظارى في هذا المكتب لأصرفه بكامله مصغيا إلى حديثك.. ذلك الحديث العلوي المتراوح بين العذوبة والتعنيف، وإنني وجدت بعض الملاحظات التي لو سمحت لنفسي الفرصة أن تتألم لتألمت منها، ولكن كيف أسمح لنفسي النظر إلى شبه سحابة في سماء صافية مرصعة بالكواكب؟ وكيف أحول عيني عن شجرة الياسمين المزهرة إلى ظل أحد أعضائها؟ وكيف لا أقبل وخزة صغيرة من يد عطرة مفعمة بالجواهر؟

إن حديثنا الذي أنقذنا من سكوت خمسة أعوام لا ولن يتحول إلى مناظرة، فأنا أقبل بكل ما تقولينه لاعتقادي بأنه يجملبنا وسبعة آلاف ميل تفصلنا ألا نضيف إلى هذه المسافة الشاسعة مترا واحدا، بل أن نحاول تقصيرها بما وضعه

الله فينا من الميل الجميل والشوق إلى المنيع والعطش إلى الخالد.. يكفينا يا صديقتي ما في الأيام والليالي من الدموع والأوجاع والمتاعب والمصاعب، إن من يستطيع الوقوف أمام المجرد المطلق لا يلتفت إلى كلمة جاءت في كتاب أو ملاحظة أتت في رسالة، إذن فلنضع خلافاتنا – وأكثرها لفظية – في صندوق من الذهب ولنرم بها إلى بحر من الابتسامات.ما أجمل رسائلك يا ميّ وما أشهرها!!، فهي مثل نهر من الرحيق يتدفق من الأعالي، ويسير مترنحا في وادي أحلامي، بل هي كالأوتار..".

وقد كتبت ميّ خطابا لجبران متضمنا نقدها لكتابه "المجنون" واختتمت رسالتها بقولها: "أهذا هو المجنون.. هوأنت المجنون".

فأجاب جبران مبررا: "المجنون ليس أنا بكليتي، واللذة التي أردت بيانها بلسان شخصية ابتدعتها ليست كل ما لدي من الأفكار والمنازع، واللهجة التي وجدتها مناسبة لميول ذلك المجنون، ليست باللهجة التي اتخذتها عندما أجلس لمحادثة صديق أحبه وأحترمه، وإذا كان لابد من الوصول إلى حقيقتي بواسطة ما كتبته، فما عسى يخدمك عن اتخاذ فتى الغاب ونغمة نايه منها إلى المجنون وصراخه، وسوف يتحقق لديك أن المجنون لم يكن سوى حلقة من سلسلة طويلة مصنوعة من معادن!.

لا أنكر أن المجنون كان حلقة خشنة مصنوعة من حديد.. ولكن هذا لا يدل على أن السلسلةكلها خشنة ومن الحديد! لكل روح فصول يا ميّ، وشتاء الروح ليس كربيعها، ولا صيفها كخريفها.. وفي ٧ فبراير عام ١٩١٩ كتب لها جبران من نيويورك:

"لقد أعادت رسالتك إلى نفسي ذكري ربيع ألف خريف، وأوقفتني ثانية أمام تلك الأشباح التي كنا نبتدعها ونسيرها مركبا إثر مركب.. تلك الأشباح التي ما ثار البركان في أوروبا، حتى انزوت محتجبة بالسكوت، وما أعمق ذلك السكوت وما أطوله!هل تعلمين يا صديقتي بأني كنت أجد في حديثنا المتقطع التعزية والأنس والطمأنينة، وهل تعلمين بأنني كنت أقول لذاتي، هناك في مشارق الأرض صبية ليست كالصبايا، قد دخلت الهيكل قبل ولادتها.. ووقفت في قدس الأقداس فعزمت السر العلوي الذي اتخذه جبابرة الصباح، ثم أخذت بلادي بلادا لها وقومي قوما لها، هل تعلمين بأني كنت أهمس هذه الأنشودة في أذن خيالي،كما وردت على رسالة منك ولو علمت لما انقطعت عن الكتابة إلى، وربما علمت فانقطعت وهذا لا يخلو من أصالة الرأي والحكمة".

لقد بدأت العلاقة بين ميّ وجبران علاقة فكرية.. أدبية ثم تطورت إلى صداقة، ثم تطورت الصداقة إلى تلميح بالحب ثم إلى الغرام الصريح، والحقيقة أنها وقفت أمام هذا التطور في علاقتها بجبران متميزة، لكنها كانت مغلوبة على أمرها، فقلبها كان يذوب حنانا ولهفة لكلمات جبران، فأرسلت إليه عتابا رقيقا قالت فيه:"لما كنت أجلس للكتابة كنت أنسي من أنت وأين أنت، وكثيرا ما أنسي أن هناك رجلا أخاطبه فأكلمك غالبا كما أكلم نفسي، أحيانا كأنك رفيقة لي في المدرسة، إنما كان يطفو على تلك الحالة المعنوية عاطفة احترام خاص، لا توجد عادة بين فتاة وفتاة.. أهي المسافة وعدم التعارف الشخصي والبحار المنبسطة بيننا هي التي كانت تلبس حقيقة ذلك التراسل – ثوب الحنين؟ قد يكون، غير أن مكانتك في اعتبأرى وتقديري كانت مصدر هذه الثقة التي ظهرت منذ نشأتها

كأنها فطرية لم تنتظر الوقت لتقوى ولا التجربة لتثبت.. وصلت الرسالة التي سبقت النشيد، فأحجمتُ إزاء بعض الكلمات، خوفا مما قد تجر إليه ومرت أسابيع ستة أو سبعة دون أن أكتب، لأني كنت أقول لنفسي: "يجب أن نقف هنا.. ولكننا لم نقف، بل خطونا خطوة، بل قفزنا قفزة".

أنت قيدتني "مذنبة" في دفترك وقمت تشكو، لأني كنت كلما حدقت في شيء أخفيه وراء القناع وكلما مددت يدا أثقبها بمسمار.

نعم قبلت ذلك وفعلته متعمدة، تعمدت قطع الأسلاك الخفية التي تغزلها يد الغيب، وتمدها المعاني وأمسخ الأسئلة وأضحك عند الكلمات التي تملأ العينيندموعا، وهل كان لدى وسيلة أخرى لأحولك عن هذا الموضوع وأذكرك أني وحيدة أبوي؟

قد لا يكون في العائلة الغربية إلا ولد واحد، فيقذفون به من إنجلترا إلى الهند أو فتاة واحدة فترحل من فرنسا إلى الصين بلا جلبة ولا ضوضاء ولكن أين نحن من هؤلاء، ونحن شرقيون ؟ تعمدت ذلك خصوصا لأوفر على نفسي عذابا هي في غني عنه، ولأتحايد على كلمة تقربني من ذلك الموضوع الذي ملأ روحي شوكا وعلقما.

في هذه السنوات الماضية، فهمت ما أريد، وإنما في غير معناه الحقيقي وفهمته على وجه لم أقصده ثم سطا عليك كبرياء الرجل، فنسيت أن السكوت لا يحسن بيننا على هذه الصورة نحن اللذان تكاتبنا أبدا كصديقين مفكرين.. أما صدق القائلون: "إن صداقة الرجل والمرأة رابع المستحيلات؟ آلمني سكوتك من هذا القبيل وأرهف انتباهي، فأعلمني أنك لم تشاركني ارتياحي إلى تلك الصداقة

الفكرية، لأنك لو كنت سعيدا بها مثلي لما كنت رميت إلى أبعد منها.. علمت أنني كنت وحدي، حيث كنت أظننا اثنين وقدرت أنك لم تحسب تلك سوى مقدمة، وأنا كنت أقدرها لذاتها، وصار معنى سكوتك عندي إما ذاك،[٩] وإما لا شيء، وأنت أدري بأثر ذلك في نفسي".

كانت تلك الرسالة بعد ثمانية أعوام من الصداقة الفكرية بين ميّ وجبران، ولم تلتق بجبران إلا في رسائله إليها وفي مؤلفاتها فهو أديبها المفضل الذي وجدت فيه أمانيها، وبعد أن أرسلت إليه ميّ رسالتها السابقة أبطأ جبران في الرد، فخشيت أن يقطع جبران رسائله والحقيقة أن جبران في تلك الفترة كان يشكو علة في قلبه، فكتبت إليه في الرابع من أغسطس عام ١٩٢١ رسالة تفصح فيها عن حبها وقلقها عليه في ثوب من الوقار والاحتشام الشرقي فقالت: أريد أن تساعدني وتحميني، وتبعد عني الأذي ليس بالروح فقط، بل بالجسد أيضا.. أنت الغريب الذي كنت لي بداهة وعلى الرغم منك أبا، وأخا، ورفيقا وصديقا.. وكنت لك أنا الغريبة بداهة وعلى الرغم مني أما، وأختا ورفيقة وصديقة، عنك وعن صحتك، وأذكر عدد ضربات قلبك، وقل لي رأي الطبيب افعل هذا، ودعني أقف على جميع التفاصيل. كأني قريبة منك، أخبرني كيف تصرف نهارك.. أتوسل إليك أن تتناول الأدوية المقوية مهما كان طعمها ورائحتها.

فمن هذه المعنويات ما هو ضروري كل الضرورة، مفيد كل الإفادة وكل ما تفعله لوقاية نفسك أحسبه أنا لك يداً على وأشكرك لأجله بكل ما في قلبي من صداقة ومودة.

---

[٩] تعني الزواج.

أرسل إليّ سطرا أو سطرين من أخبارك "بلا إجهاد".

إن تلك الرسالة السابقة يندفع فيها الدم الإنساني، بما فيه من حياة ونبض وشعور، ولقد توالت رسائل جبران إلى ميّ حاملة إليها كل ما يعني في خاطرها ويجول بفكرها.. وكذلك ميّ ألحت في تخيل جبران والتماس ما يديهي منها ولو بالخيال، فكانت تسأله عن تفاصيل حياته اليومية، يقول جبران في إحدى رسائله وهويحدثها عن مرضه:

".. إن الراحة – يا مي – تنفعني من جهة أخرى، أما الأطباء والأدوية، فمن علتي بمقام الزيت من السراج.. لا، لست بحاجة إلى الأطباء والأدوية، ولست بحاجة إلى الراحة والسكون.. أنا بحاجة موجعة إلى من يأخذ مني ويخفف عني.. أنا بحاجة إلى فصادة معنوية، إلى يد تتناولني مما ازدحم في نفسي إلى شديدة تسقط أثماري وأوراقي"!!

ويجيب ميّ عن تساؤلاتها عن تفاصيل حياته وملابسه وعدد السجائر التي يدخنها يقول في إحدى رسائله: "وما لون البذلة التي أرتديها اليوم؟ من عوائدي[١٠]أن أرتدي بذلتين في وقت واحد، بذلة من نسيج الناسجين وخياطة الخياطين وبذلة من لحم وعظام.. أما اليوم فإني أرتدي ثوبا واحدا طويلا وسيعا، عليه أثر الحبر، والألوان وهو بالإجمال لا يختلف عن ملابس الدراويش إلا بنظافته.. أنا أكره ملابس رجال الغرب فهي بدون وزن ولا قافية، وإذا ما عدت إلى الشرق فلن أرتدي إلا الثياب الشرقية القديمة.. لقد وجد جبران في المرض لذة نفسية، وتمنى أن يكون مريضا في مصر، لا في نيويورك ليكون قريبا من "ميّ"

---

[١٠] الأصح في اللغة عاداتي، لكن جبران كما عرف يؤثر الحرية في التعبير حتى لو خالف ذلك قواعد اللغة.

لقد وجدت في المرض لذة نفسية تختلف تأثيرها عن كل لذة أخرى، بل وجدت نوعا من الطمأنينة يكاد يجبب إلى الاعتلال.. إن المريض لفي مأمن من منازع وأغراض الناس والوعود والمواعيد، والمخالطة والمنازعة.

وقد اكتشفت شيئا آخر أهمبما لا يقاس من اللذة والطمأنينة، وهو هذا: "إني في اعتل إلى أدني إلى الكليات المجردة مني إليها في صحتي.. فإذا أنا أسندت رأسي إلى هذه المساندة، وأغمضت في هذا المحيط، وجدتني سابحا كالطير فوق أودية وغابات هادئة متشحة بنقاب لطيف، ووجدتني قريبا ممن أحبهم، وأناجيهم وأحدثهم، ولكن من دون غضب وأشعر شعورهم، وأفكر أفكارهم.. يلومونني ولا يسخطون علي، بل يلقون أصابعهم على جبهتي بين الآونة والأخرى، ويباركونني..!

حبذا لو كنت مريضا في مصر، حبذا لو كنت مريضا بدون نظام في بلادي، قريبا من الذين أحبهم، أتعلمين يا "ميّ" أني في كل صباح ومساء، أرى ذاتي في منزل في ضواحي القاهرة، وأراك جالسة أمامي، تقرئين آخر مقالة كتبتها، أو آخر مقالة من مقالاتك لم تنشر بعد.. "!

وفي عام ١٩٢٥ كتب جبران على خجل إليها طالبا لها صورة جديدة أسوة بالصحافي الذي أرسل إليها من "بونس إيرس" يلتمس صورتها لنشرها في جريدته، فلما أرسلت إليه ميّ بصورتها كبرها بريشته، وبلا ريب لم تكن أولصورةلميّ عنده، كي يتضح من أحاديثه في رسائله لها.. ولما تناولت هديته البريدية التي تحتوي على محفظة يد ومرآة وقلم وماسكة ريشة للكتابة، وقد كتب عليها جبران هذا الإهداء "اذكريني كلما كتبت" وفرحتْبهدية جبران الرمزية، فشكرته قائلة: "محفظتي

لي في النهاية، وقلمي لي، المرآة والصورة كلها لي، فإذا بها جميعا الروح التي تحضنني وتحب.. ".

ولعل رسالة مّي التي أرسلتها إلى جبران عام ١٩٢٤ تكشف ما في نفسها من شوق مكبوت.. لجبران: "لقد كتبت لك كل هذه الصفحات لأتحايد كلمة الحب، إن الذين لا يتاجرون، بمظاهر الحب ودعواه في السهرات والمراقص والاجتماعات، ينمي الحب في أعماقهم قوة ديناميتية رهيبة، قد يغبطون الذين يوزعون عواطفهم في الألأء السطحي، لأنهم لا يقاسون ضغط العواطف التي لم تتفجر، لكنهم يغبطون الآخرين على راحتهم دون أن يتمنوها لنفوسهم ويفضلون وحدتهم، ويفضلون السكوت، ويفضلون تضليل قلوبهم على ودائعها والتلهي بما لا علاقة له بالعاطفة.

يفضلون أي غربة وأي شقاء. وهل من شقاء وغربة في غير وحدة القلب؟ على الاكتفاء بالقطرات الشحيحة.

ما معنى هذا الذي أكتبه ؟ إني لا أعرف ماذا أعني به، ولكن أعرف أنك محبوبي، وإني أخاف الحب إني أنتظر من الحب كثيرا، فأخاف ألا يأتيني بكل ما أنتظر، أقول هذا مع علمي بأن القليل من الحب كثير، ولكن القليل في الحب لا يرضيني الجفاف والقحط واللاشيء خير من النزر اليسير..كيف أجسر على الإفضاء إليك بهذا وكيف أفرط فيه؟ لا أدري.. الحمد لله أني أكتبه على الورق ولا أتلفظ به، لأنك لو كنت حاضرا بالجسد لهربت خجلا بعد هذا الكلام ولاختفيت زمنا طويلا، فما أدعك تراني إلا بعد أن تنسى..حتى الكتابة ألوم نفسي عليها أحيانا، لأني بها حرة كل هذه الحرية.

أتذكر قول القدماء من الشرقيين: "إنه خير للبنت ألا تقرأ ولا تكتب"! إن القديس توما يظهر هنا، وليس ما أبدي هنا أثر الوراثة فحسب، بل هو شيء أبعد من الوراثة ما هو؟ قل لي أنت: "ما هو هذا؟ وقل لي عما إذا كنت على ضلال أو هدي فإني أثق بك وأصدق بالبداهة كل ما تقول.. وسواء كنت مخطئة أو غير مخطئة فإن قلبي يسير إليك، وخير ما يفعل هو أن يظل حائما حواليك يحرسك ويحنو عليك".

غابت الشمس وراء الأفق، ومن خلال السحب العجيبة والأشكال والألوان حصحصت نجمة لامعة نجمة واحدة، هي الزهرة إلهة الحب، أترى يسكنها كأرضنا بشر يحبون ويتشوقون؟ ربما فيها من هي مثلي، لها جبران واحد حلو بعيد، هو القريب القريب، تكتب إليه الآن والشفق يملأ الفضاء، وتعلم أن الظلام يخلف الشفق وأن النور يتبع الظلال، وأن الليل سيخلف النهار، والنهار سيتبع الليل مرات كثيرة قبل أن ترى الذي تحبه، فتتسرب إليها كل وحشة الشفق وكل وحشة الليل، فتلقي بالقلم جانبا لتحتمي من الوحشة في اسم واحد جبران".

وكانت العلة قد بدأت تشتد على جبران، لكن حنينه إلى قول كلمة خالدة هو أمله في الحياة، فحدثها في إحدى رسائله عن شوقه إلى تلك "الكلمة" التييريد أن يقولها قبل أن ينصرف عن هذا العالم، وهي ما قالها بعد في كتابه "النبي" وضمنها الكثير من فلسفته وخواطره في الحياة والأدب والحب والدين، يقول: "أما تعلمينيا مي أني ما فكرت في الانصراف الذي يسميه الناس موتا إلا وجدت في التفكير لذة غريبة، وشعرت بشوق هائل إلى الرحيل، ولكني أعود، فأذكر أن "كلمة" لا بد من قولها فأحار بين عجزي واضطراري، وتغلق أمامي الأبواب..

لا.. لم أقل كلمتي بعد.. ولم يظهر من هذه الشعلة إلا الدخان، وهذا ما يجعل الوقوف عن العمل مرا كالعلقم!

أقول لك يا مي – ولا أقول لسواك – إني إذا ما انصرفت قبل تهجئة كلمتي ولفظها فإني سأعود لأقول الكلمة التي تتمايل الآن كالضباب في سكينة روحي.. أتستغربين هذا الكلام؟.. إن أغرب الأشياء أقربها إلى الحقائق الثابتة، وفي الإرادة البشرية قوة اشتياق تحول السديم فينا إلى شموس".

وفي هذه الفترة حزنت مي حزنا عنيفا لوفاة والدها، وقلقها يشتد من أجل والدتها التي عاودها الداء، ورغم ذلك لم تتوقف عن الكتابة لجبران ولم تنقطع رسائل جبران، ولكن ميا بدأت تفكر في مصيرها الذي يخبئه القدر لو فقدت أمها بعد أبيها، وليس في رسائل جبران ما يحمل كوةصغيرة منأمل اللقاء، بالإضافة إلى أن المرض قد اشتد على جبران وفي ذروة قلقها جاءتها رسالة من جبران يقول فيها: "عزيزتي ميّ.. صحتي الآن أردأ نوعا مما كانت عليه في بدء الصيف، فالشهور الطويلة التي صرفتها بين البحر والغاب قد وسعت المجال بين روحي وجسدي، أما هذا الطائر الغريب "يعني قلبه"الذي كاد يختلج أكثر من مائة مرة في الدقيقة، فقد أبطأ قليلا بل أخذ يعود إلى نظامه الاعتيادي، غير أنه لم يتماهل إلا بعد أن هد أركاني وقطع أوصالي..".

واستمرت تراسل جبران إلى أن توفي عام ١٩٣١، فهرعت ميّإلى قلمها ترثيه فهي التي أشقاها موته – لا سيما بعد موت والديها – وهي التي تاقت إلى لقائه، فذكرت في رثائها رسائله الأخيرة لها وقوله فيما تقول ميّ: "يا أخي.. لقد أعطيت كثيرا وإن أغاظتك هذه الكلمة، لقد أعطيت كثيرا وقال فيك الشرق

للغرب ها أنذا! كما قال فيك الشرق الناهض لنفسه ها أنذا حسنا فعلت بأن رحلت ! فإذا كانت لديك كلمة أخرى فخير لك أن تصهرها وتثقفها وتطهرها، وتستوفيها في عالم ربما كان يَفْضُل عالمنا هذا في أمور شتى..".

إن ما عرضناه من بعض الرسائل المتبادلة بين جبران وميّ، وما اعترى هذه الرسائل من لواعج، تلك اللواعج التي سكبها على الورق مداد قلمهما، من شعور عاطفي نبيل وصفاه بأفصح العبارات وأبلغ المعاني، مما جعل هذه الرسائل تعد ثروة نفيسة في أدب الرسائل في أدبنا العربي.

وبعد كل ما تلونا.. نتساءل: ترى من تلك التي أسكنها جبران قلبه؟ هل هي "ميشيلين" أم "ماري هاسكل" أم "هيلدا "أم "مي زيادة" التي استمرت علاقته بها عن طريق الرسائل تسعة عشر عاما من عام ١٩١٢حتى وفاته عام ١٩٣١؟، وهل من الممكن أن تنمو علاقة حب ناضجة.. سليمة بين طرفين (رجل وامرأة) لم يلتقيا ولو مرة واحدة؟ أحسب أن تصديق هذا درب من الخيال والشطحات اللامعقولة لا أكثر، فأبسط معاني الحب أن تتلاقي الأرواح والأجساد في رباط مقدس، ما كان بين ميّ وجبران هو إعجاب متبادل لا يصل إلى مرتبة الحب، فلو كان حبا لقهر حاجزي الزمان والمكان والتقى العاشقان، لكن العلاقة بينهما لم تنم ولم تتبلور إلا في تلك الرسائل التي تبادلاها.

أكان جبران يتذكر ميا وهو يسطر رسائل الشرق والغرام لماري هاسكل ويقول لها: "دعيني أصرخ بكل ما في حنجرتي من صوت إني أحبك، وفي الوقت نفسه يكتب لميّ زيادة: "ميّ يا ترى تتفتح الأبواب الدهرية، هل تعلمين؟ هل

تعلمين متي تتفتح الأبواب الدهرية..نعم تتفتح الأبواب الدهرية إذا كان هذا الحب – أو هذا الوهم – حبا صادقا لا تسلية ظريفة".

وهل كانت ميّ زيادة في قرارة نفسها تعتقد أن جبران يحبها حقا؟ قد دعته إلى لقائها في أوروبا وكتبت إليه برغبتها في لقائه ففي ٨٢ آذار عام ١٩٢٢ كتبت ميّ في ذيل رسالتها لجبران حاشية جاء فيها "من المحتمل [١١] أن أغادر مصر إلى أوروبا في أواخر الشهر الآتي، أو الشهر التابع وإذا وقع ذلك "المحتمل" كنت سعيدة.. سعيدة لأني أشعر أن جميع ذرات كياني تتوق إلى الخروج من الشرق زمنا، ليست نيويورك في أوروبا، ومع ذلك مباركة حيث هي لأجل من تضم".

وأرسلت إليه ليزور مصر "تعال – ياجبران – وزرنا في هذه المدينة (القاهرة.. فلماذا لا تأتي وأنت فتي هذه البلاد التي تناديك؟".

لكن جيران لم يلبْ نداء ميّ.. ألم تقرأ ميّ كلام جبران عن الحب في كتابه "النبي": "فلتكن هناك فسحات تفصلكم بعضكم عن بعض في حياتكم المشتركة، ولتدعوا رياح السماء تتراقص فيما بينكم، أجل فليجب أحدكم الآخر.. ولكن لا تقيدوا الحب بالقيود، بل ليكن الحب بحرا متموجا بين شواطئ نفوسكم .. فالحب عن جبران ليس اتحادكل حبيب في الآخر، وإنما الحب يحيا بعيدا عن الضيم، وأية فتاة من الشرق تلك، التي تقبل الحب من خلال هذا المفهوم؟!

خلاصة القول:"إن مي لم تحب واحدا فقط كذلك جبران، ومن هنا نستطيع أن نقول إن ما بينهما لم يكن حبا

---

[١١] تعني من الممكن أن تلتقي به حيث كان.

عباس محمود العقاد

الأستاذ عباس العقاد ظاهرة فذة وفريدة، وفي أوائل هذا القرن سطع نجمه وذاع صيته، ربما لأنه دخل الساحة الأدبية مسلحا بأشياء كثيرة في مقدمتها شخصيته القوية واعتزازه بنفسه وقلمه، وإقباله على المعرفة الجادة وإبحار فكره وقلمه في العديد من الميادين، وقد ساعده على هذا التألق أن الناس في تلك الفترة كانوا مقبلين على المعرفة والقراءة، يقول الأستاذ العقاد: "أحببت في حياتي مرتين، أحببت "سارة" وهذا ليس اسمها الحقيقي، وإنما هو المستعار، أطلقته عليها في قصتي المعروفة بهذا الاسم.. وأحببت "ماري زيادة" الأديبة المعروفة باسم "ميّ".

كانت الأولى مثالا للأنوثة الدافئة الرقيقية، لا يشغل رأسها إلا الاهتمام بجمالها وأنوثتها، ولكنها كانت – إلى ذلك – مثقفة.

وكانت الثانية – وهي ميّ – مثقفة قوية الحجة، تناقش وتهتم بتحرير المرأة وإعطائها حقوقها السياسية، وكانت جليسة علم وفن وأدب، وزميلة في حياة الفكر، أي أن اهتمامها كان موزعا بين الأدب والأنوثة.. كلتاهما جميلة، ولكن الجمال في"ميّ" كالحصن، الذي يحيط به الخندق، أما الجمال في "سارة" فكالبستان الذي يحيط به جدول من الماء النمير، هو جزء من البستان لا حاجز دون البستان، وهو للعبور أكثر مما يكون للصد والنفور!"[١٢].

لقد عرف العقاد "مي" قبل أن يعرف سارة بسنوات عدة.. عرفها عن بعد من مقالاتها في صحفها ومؤلفاتها، واستمرت العلاقة بينهما عن طريق الرسائل،

[١٢] طاهر الطناحي: أطياف من حياة ميّ، مرجع سابق، ص٧٨ .

حتى عاد من أسوان بلدته إلى القاهرة، وسارع إلى زيارتها يحدوه الشوق والحنين والتمتع برؤيتها وحديثها الشهي، وبمرور الأيام تقارب القلبان قلب العقاد وقلب ميّ، فأخذت تخصه ببعض دقائق حياتها وأسرارها، بل أخذت تبثه صدق إحساسها وجيشان مشاعرها خلال سطور بعض مقالاتها.. وكان بعض رواد صالونها يظنون أنهاتعنيهم دون سواهم، لاسيما حين كتبت مقالتها "أنت أيها الغريب " التي قالت فيها:

"أنا وأنت سجينان من سجناء الحياة، وكما يعرف السجناء بأرقامهم يعرف كل حي باسمه، وقد التقينا وسط جماعات المتفقين فيما بينهم على الضحك من سواهم حينا، والضحك بعضهم من بعض أحيانا، أنا منهم وإياك غير أن شبهك بهم يسوءني، لأني إنما أقلدهم لأريك وجها مني جديدا، وأنت، أتجاريهم بمثل قصدي أم الهزء والاستخفاف فيك طوية وسجية؟

ولكن رغم انقباضي للنكتة منك والظرف، ورغم امتعاضي للتغافل منك والحبور، أراني وإياك على تفاهم صامت مستديم يتخلله تفاهم آخر يظهر في لحظات الكتمان والعبوس والتأثر.

بنظرك النافذ الهادئ تذوقت غبطة من له عين ترقبهوتهتم به، فصرت ماذكرتك إلا ارتدت نفسي بثوب فضفاض من الصلاح والنبل والكرم، متمنية أن أنثر الخير والسعادة على جميع الخلائق.

لي بك ثقة موثوقة، وقلبي العتي يفيض دموعا، سأفزع من رحمتك إلى إخفاق الأماني وأبثك شكوي أحزاني.. أنا التي تراني طروبة طيارة. وأحصي لك

الأثقال التي قوست كتفي وحنت رأسي منذ فجر أيامي.. أنا التي أسير محفوفة بجناحين متوجة بإكليل.

وسأدعوك أبي وأمي.. متهيبة منك سطوة الكبير وتأثير الأمر، وسأدعوك قومي وعشيرتي، أنا التي أعلم أن هؤلاء ليسوا دوما بالمحبين، وسأدعوك أخي وصديقي، أنا التي لا أخ لي ولا صديق، وسأطلعك على ضعفي واحتياجي إلى المعونة، أنا التي تتخيل في قوة الأبطال ومناعة الصناديد، وسأبين لك افتقأرى إلى العطف والحنان، ثم أبكي أمامك وأنت لا تدري، وسأطلب منك الرأي والنصيحة عند ارتباك فكري واشتباك السبل، وإذ أسيء التصرف وأرتكب ذنبا ما سأسير إليك متواضعة واجفة في انتظار التعنيف والعقوبة، وقد أتعمد الخطأ، لأفوز بسخطك علي، فأتوب على يدك وأمتثل لأمرك، وسأصلح نفسي تحت رقابتك المعنوية مقدمة لك عنأعماليحسابا لأحصل على التجنيد منك أو الاستنكار، فأسعد في الحالين، وسأوقفك على حقيقة ما ينسب إليّ من آثام، فتكون لي وحدك الحكم المنصف وما يحسبه الناس لي فضلا وحسنات، سأبسطه أمامك فتنبهني إلى الغلط فيه والسهو والنقصان ستقومني وتسامحني وتشجعني وتحتقر المتحاملين والمتطاولين، لأنك تقرأ الحقيقة منقوشة على لوح جناني.

كما أكذب أنا وشاية منافسيك وبهتان حاسديك، ولا أصدق سوى نظرتي فيك وهي أبر شاهد كل ذلك وأنت لا تعلم.. سأستعيد ذكرك متكلما في خلوتي لأسمع منك حكاية غمومك وأطماعك وآمالك. حكاية البشر المتجمعة في فرد واحد.. وسأستمع إلى جميع الأصوات على أعثر على لهجة صوتك وأشرح جميع الأفكار وأمتدح الصائب من الآراء ليتعاظم تقديري لآرائك وأفكارك.

وسأتبين في جميع الوجوه صور التعبير والمعنى، لأعلم كم هي شاحبة تافهة لأنها ليست صور تعبيرك ومعناك. وسأبتسم في المرآة ابتسامتك.. في حضورك سأتحول عنك إلى نفسي لأفكر فيك، وفي غيابك سأتحول عن الآخرين إليك لأفكر فيك.. "[١٣].

والذي نرجحه أن "مي" كانت تعنيبذلك الغريب عباس العقاد، الذي يعيش في القاهرة غريبا عن الأب والأم، فبينه وبينهما آلاف الأميال والعلاقة بين العقاد وميّ كانت وقتذاك قد قطعت شوطا كبيرا.

وكان العقاد – رحمه الله – شديد الحساسية والتأثر الشديد، لملا وقد أثبتت الدراسات العلمية والنفسية أن أقوى الرجال أسرعهم إلى التأثر والحساسية، وكان العقاد شديد التقدير لميّ، وشديد الحساسية أيضا لقيمة الحب، فالحب – في رأيه – اندفاع روح إلى روح، واندفاع جسد إلى جسد، وهو قضاء وقدر فهو يري أننا لا نحب حين نختار ولا نختارحينما نحب، وأننا مع القضاء والقدر حين نولد وحين نحب وحين نموت.

وجاء صيف ١٩٥٢ وسافرت ميّ إلى إيطاليا ثم غادرتها إلى ألمانيا، واستمرت تراسل العقاد برسائل اتسمت بالعاطفة المشبوبة، التي تنم عن الشوق المكبوت، حفزت العقاد إلى التعبير الصريح عما يكنه نحوها من شعور عميق وحب روحي صادق..فرد على إحدى رسائلها بهذه الأبيات التي لم تنشر في ديوان..[١٤].

---

[١٣] المؤلفات الكاملة : جـ٢، ص ٣٥٨، ٣٦٠ .

[١٤] الطناحي: مرجع سابق ص ٨٦.

آنستي العزيزة ميّ.. القاهرة ٥٢ يوليو ١٩٥٢أبعث بهذه الأبيات من وحي رسالتك الأخيرة:

آل روما لكم ومني الولاء ... وثناء عاطر بعد ثناء

وسلام كلما ضاء لنا ... طالع الإصباح أوجن مساء

في حماكم كعبة ترمقها ... مهج منا وآماق ظماء

كعبة لا كالتي يعمرها ... بينكم رهط القسوس الحنفاء

كرمت روما وذكرها بها ... وبنور روما ومن تحت السماء

نزلت ثم حجيجا داعيا ... وهي أولى بحجيج ودعاء

أنت في روما وفي مصر أنا ... بعدت شقتنا لولا النجاء

بيننا جيرة نور ساطع ... فوق رأسينا ونور في الخفاء

أرقب البدر إذا الليل سجا ... فلنا منه على البعد لقاء

وأرود الشعر في مثل الكري ... فإذا فيه من الطيف عزاء

حلم الصادي فمن يوقظه ... وعلى فيه "من الماء شفاء"

وتلقت ميّ وهي في روما هذه الرسالة "القصيدة"، فوجدت فيها الشعور العميق نفسه الذي يشعر به العقاد تجاهها، فكتبت إلى العقاد من برلين في٣٠ أغسطس ١٩٢٥ رسالة ردا على قصيدته تقول فيها: "..إنني لا أستطيع أن أصف لك شعوري حين قرأت هذه القصيدة، وحسبي أن أقول لك إن ما شعرتبه نحوك هو نفس ما شعرت به نحوك منذ أول رسالة كتبتها إليك وأنت في بلدتك التاريخية أسوان، بل إنني خشيت أن أفاتحك بشعوري نحوك منذ زمن بعيد – منذ أول مرة رأيتك فيها بدار جريدة "المحروسة" إن الحياء منعني، وقد ظننت أن اختلاطي

بالزملاء يثير حمية الغضب عندك، والآن عرفت شعورك، وعرفت لماذا لا تميل إلى جبران خليل جبران، ثم قالت في نهاية رسالتها.. ".. لا تحسب أنني أتهمك بالغيرة من جبران فإنه في نيويورك لم يرني، ولعله لن يراني، كما أني لم أره إلا في تلك الصور التي تنشرها الصحف، ولكن طبيعة الأنثى يلذ لها أن يتغاير فيها الرجال وتشعر بالازدراء حين تراهم يتنافسون عليها.. أليس كذلك.. معذرة فقد أردت أن أحتفي بهذه الغيرة، لا لأضايقك، ولكن لأزداد شعورا بأن لي مكانة في نفسك، أهنئ بها نفسي، وأمتع بها وجداني، فقدعشت في أبيات قصيدتك الجميلة وفي كلماتها العذبة وشعرت من معانيها الشائقة، وفي موسيقاها الروحية ما جعلني أراك معي في ألمانيا على بعد الشقة، وتنائي الديار.. سأعود قريبا إلى مصر، وستضمنا زيارات وجلسات، أفضي فيها لك بما تدخره نفسي، ويضمه وجداني، فعندي أشياء كثيرة سأقولها لك.. وأنا أجد فيك الإنسان الذي أراه أهلا للثقة به والاعتماد عليه..".

وكانت أديبتنا تضع في رسائلها إلى الأستاذ العقاد بعضا من خطراتها، مما يناسب عاطفة الحب التي ربطت في ذلك الحين بين قلبيهما، وكان العقاد يضع كذلك ضمن رسائله بعض كلماته العاطفية نثرا وشعرا.. وكثيرا ما نظم في ميّ القصائد دون أن يصرح باسمها، فكان يسميها هند أو ليلي أوغيرهم من الأسماء المستعارة.

وانتهت رحلة ميّ في ألمانيا وعادت إلى مصر، فعلمت أن العقاد سافر إلى أسوان لوفاة شقيق له، وأرسلت إليه تلغرافا، ورد عليها برسالة يشكرها على مشاركتها الوجدانية له في مصابه، ومن تأثير رسالة العقادالحزينة ترجمت له فصلا كتبته بالفرنسية في كتابها"زهرات حلم" بعنوان "كآبة"، ولما حضر العقاد من أسوان طلب منها أن يلتقي بها في "غير الثلاثاء"– موعد صالونها – فوافقت وفي

أول لقاء ضمهما بعد غيبة . جلسا معا في غرفة المكتب، وقدم لها العقاد ثمانية أبيات جعلها بعنوان "مولد الحب"فتناولتها فإذا فيها:

ولد الحب لما عاش الوليد — وحماه الله من كيد الحسود

وبدا في مهده، بل عرشه — ضاحكا يأمر فينا ويسود

"ميّ " ا نرضعه؟.. نرضعه — بأفاويق حياة لا تبيد

ولندلله وننشئه على — غبطة العزة والعيش السعيد

وليعش طفلا على طول المدى — هكذا يخلد أطفال الخلود

نتولاه بعطف دائم — وأناشيد حسان ووعود

وغذاء من يذقه يبتعد — أبدا عن كبرة العمر المديد

إنه من روحنا أن نحيه — يحينا في غده هذا الوليد

قرأت ميّ هذه الأبيات، فسرتْ سرورا كبيرا وأثنت على شعر الأستاذ العقاد وقالت تداعبه: "إن من يقول هذا الشعر جدير بأن يغار منه جبران لا أن يغار من جبران"؟.

وفي صيف ذلك العام سافر العقاد إلى لبنان، فما كادت أن تمضي عليه بضعة أيام في ربوع لبنان حتى أرسل إلى مي رسالة يعبر عن غربته ووحدته قائلا: "لقد أصبحنا بديلين: أنت في مصر وأنا في لبنان، ولكننا شريكان في وطن كبير واحد هو الوطن العربي. وإذا كان كل منا نازح عن داره إلى دار صاحبه، فإن حبنا قد ربط ما بين الدارين برباط وثيق"

وكتب إليها قائلا شعرا:

غريب الدار عند الليل تذكره — من وامق في ربي لبنان مغترب

تبنـــا بـــديلين والـــدنيا تبـــدلنا	فيالنـا مـن شـريكي مـوطن عجـب
كلاهمـا نـازح فـي دار صـاحبه	وداره فـي الهـوي موصـولة الـسبب
يابنــت لبنــان أُقــرءك التحيــة مــن	هـضاب لبنـان بـين البحـر والـشهب
أمسيت ضيف كفي أرض لبست بها	وضي الصبا وبرود الحسن والطرب
أرى مثالــك فيهــا حيثمــا طمحــت	عينـي.. وأخلـو لـه فـي كـل مرتقـب
فأنــت لبنــان فــي زهــر وفــي ثمــر	وأنـت لبنـان فـي مـاء وفـي عـشب
وفـي نقيـضيه مـن وعـر ومـن دمـث	وفـي مزيجيـه مـن نـور ومـن سـحب

وكانت أكثر رسائل العقاد إلى ميّ مملوءة بالشعر، بل إن بعضها كان شعرا خالصا (وقد نشر العقاد هذه القصائد في الجزء الرابع من ديوانه عام ١٩٢٨).

وعن علاقة العقاد بمي يقول الأستاذ عبد الفتاح الديدي: [١٥] يبدو أن هذه الفتاة لعبت أخطر دور في حياة العقاد، لأنها أعطته السعادة وما لم يكن يخطر له على بال، ولكنها وقفت أمامه ندا لند وناوأت رجولته وسطوته وكبرياءه، وصدمت أحلام العقاد بفرديتها واستقلالها وشبابها المتأنق المدرك لأصول العلاقات، فقال فيها:

لا أنـا أعمـي فأسـتريح ولا أنـت مـن الحـسن والـصبا عاطـل..
بـأي معنـى عليـك لا تعلـق العـين وأنـت المبـرأ الكامـل..
بوجهك الغض أم بقامتك الهيفاء.. ويحي أم خصرك الناحل..
أم بـسهام العيـون تكـسرها فـي حبـة القلـب أيهـا القاتـل..

---

[١٥] عبدالفتاح الديدي: عبقرية العقاد، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ط ١، د.ت، ص ٢٠١.

وكان العقاد على علاقة حب بـ"سارة" بطلة روايته و"سارة" هو اسمها المستعار، وكانت ميّ لا تعلم من شأن "سارة" شيئا، وكانت "سارة" لا تعلم من شأن "ميّ"، إلا أن "العقاد" يعرفها معرفة أدبية، ولكنها كانت تتبرم عندما يزور العقاد "مي"، كانت تجتهد في أن تشغله عن اللقاء بها.

وهنا نسأل العقاد كيف جمع بين هذين الحبين "حب ميّ" و"حب سارة"، ويجيب عن هذا السؤال، فيقول:

"إذا ميز الرجل المرأة بين جميع النساء، فذلك هو الحب!.. وإذا أصبح النساء جميعاً لا يغنين الرجل ما تغنيه امرأة واحدة فذلك هو الحب!.. وقد يميز الرجل بين امرأتين في وقت واحد، لكن لابد من اختلاف بين الحبين في النوع، أو في الدرجة أو في الرجاء، فيكون أحد الحبين خالصاً للروح والوجدان، ويكون الحب الآخر، مستغرقاً شاملاً للروحين والجسدين. أويكون أحد الحبين مقبلاً صاعداً، والحب الآخر آخذا في الإدبار والهبوط..إما أن يجتمع حبان قويان من نوع واحد في وقت واحد، فذلك ازدواج غير معهود في الطباع، لأن العاطفة لا تقف ولا تعرف الحدود، وإذا بلغت العاطفة مداها جبت ما سواها.." ثم يعترف واصفا ما كان بينهما بصيغة المتكلم:

"وقد كنت أحب ميّ حين التقيت بسارة لأول مرة.. أحببتها الحب الذي جعلني أنتظر الرسالة، أو حديث التليفون كما ينتظر العاشق موعد اللقاء، وكنا كثيرا ما نتراسل ونتحادث، وكثيراً ما نتباعد ونلتزم الصمت الطويل إيثاراً للتقية، واجتناباً للقيل والقال ولكننا في جميع ذلك كنا أشبه بالشجرتين منهما بالإنسان تتلاقيان، وكلاهما على جذوره وتتلامسان بأهداب الأغصان، أو بنفحات النسيم

العابر من هذه الأوراق، وكنت أغازلها فتومئإلى بأصابعهاكالمنذرة المتوعدة، فإذا نظرت إلى عينيها لم تنهني، ولكنني أدري أن الزيادة ترتفع بالنغمة إلى مقام النشوز!..

وكنا أشبه بالنجمين السيارين في المنظومة الواحدة، لا يزالان يحومان في نطاق واحد، ويتجاذبان حول محور واحد، ولكنهما يحذران التقارب.. لأنه اصطدام"[١٦] ولم تكن ميّ، لتعتقد الرهبانية في العقاد ولا لتزعم بينها وبين وجدانها أنه معزول عن عالم النساء، غير أنها لم تكن تحفل اتصاله بالنساء مادمن اسمهن نساء لا يلوح من بينهن اسم امرأة واحدة، وشبح غرام واحد.."

فلما شعرت بأن النساء تحولن عنده إلى امرأة، لها شأن غير شئون أخواتها من بنات حواء.. زارته على حيث غرة في مكتب عمله وهي الزيارة الأولى والأخيرة من قبيلها، ولم يكن لها مسوغ من طول الغيبة، ولا امتناع حديث التليفون، فما شك لحظة في غرض الزيارة ولا في باعثها، وتوقع منها عتبا عنيفا على أسلوبها في التعبير الصامت المبين، ولكنه علم سلفا أنها غير منصفة في عتبها، لأنه لم يختلس منها شيئاً هو من حقها عليه. فرحب بها وأبدي لها استغرابه لزيارتها وابتهاجه بسؤالها عنه، وأنصت مترقبا.. فقالت بعد فترة وصوتها يتهدج: – لست زائرة ولا سائلة قال: – إذن.. ولم يتمها لأنها نظرت إليه كمن يستحلفه ألا يتكلم، وانحدرت من عينيها دمعتان فما تهالك نفسه، أن تناول يدها ورفعها إلى فمه يقبلها ويعيد تقبيلها نهته ولم تكف النظر إليه. ثم استجمعت

---

[١٦] الطناحي: مرجع سابق، ص ١٠٩، ١١٠ .

عزمها ونهضت منصرفة وهي تتمتم هامسة: دع يدي. ودعني! ثم انصرفت بعد أن سكن جأشها وزال عن صفحة وجهها أثر الدموع.."[١٧].

وقد سجل العقاد هذا المشهد في أكثر من قصيدة شعرية، يقول في قصيدة "تبكين":

تبكين! وألهف الفؤاد يذيبه	ذاك الحنين يوب في خديك
أيراك باكية وأنت ضياؤه	ونعيم عيشكله بيديك
وعزيزة تلك الدموع فليتها	يقنو قطيرتها نظيم سليك
لملأت ثم يدي بأكرم جوهر	من عطف قلبك فاض من عينيك

ويقول في قصيدة أخرى:

صافحيني! ألا مصافحة اليوم	ولا قبلة على الكف عجلي
أغضابا تحمينها أم دلالاً	أم حذار الرقيب تنأين خجلي

ومع مرور الزمن وتولي عهد الشباب بالنسبة لميّ والعقاد توأرى حبهما، وقد شيع العقاد هذا الحب الراحل بقصيدة طويلة بعنوان "موت الحب" جاء فيها:

ولد الحب لنا وافرحتاه	وقضي في مهده وأسفاه
مات لم يدرج، ولم يلعب ولم	يشهد الدنيا، ولم يعرف أباه
ليته عاش فأما إذ قضى	فليكن برداً على القلب جواه
أشكر الموت وأشكوه معا	غال حبي قبل ما تنمو قواه

---

[١٧] عباس محمود العقاد: سارة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥، ص١٤٧ .

غالـــه وهـــو صغـــير قبلمـــا تكبـــر البلـــوي بـــه يـــوم نـــواه
فتولـــى رحمـــه الله علـــى أمـــل لاح ولـــم يبلـــغ مـــداه
آه لـــو تغـــني مـــن اللوعـــة آه ليتنـــي أسمـــع فـــي القبـــر صـــداه

أحمد لطفي السيد

كان لطفي السيد شغوفاً بالأدب العربي – لا سيما الشعر منذ أن كان طالباً في كلية الحقوق، وقد اهتم بالأدب بعد تخرجه – وهو في الوظائف المختلفة التي تولاها، وهو في النيابة، وهو في المحاماة.

وتولى لطفي السيد تحرير صحيفة "الجريدة" سنوات عدة، وكانت بداية تعرفه بميّ زيادة أنه كان يصطاف في لبنان عام ١٩٩١. وبينما هو يتناول عشاءه في فندق "يسو" ببيروت، لاحظ بالقرب منه فتاة تجلس إلى مائدة مجاورة، وهي تتحدث بالفرنسية حديثاً فصيحاً مع قنصل فرنسا في مصر، وكانت تدافع عن المرأة الشرقية دفاعاً حاراً قوياً، فسأل لطفي السيد صديقه خليل سركيس: من تكون هذه المتحمسة للمرأة الشرقية؟ فأجابه: إنها ماري زيادة ابنه الصحفي المعروف إلياس زيادة، صاحب جريدة "المحروسة"، وكانت "المحروسة" تصدر في مصر وقتذاك، وبعد أن انتهتمن حديثها مع القنصل قدمها سركيس إليه.

ولما رجع لطفي السيد، ورجعت ميّ من مصيفها إلى مصر، أهدته كتابها "ابتسامات ودموع"، وهذا الكتاب رواية عاطفية ترجمتها إلى العربية عن اللغة الألمانية، وكانت قد أصدرت ميّ قبل هذا الكتاب كتابين، وكانت الفرنسية تغلب عليها في اطلاعها وكتاباتها، وهذا يؤثر بالطبع على أسلوبها العربي.

وكانت وقتذاك تنشر في جريدة والدها "المحروسة" مقالات بعنوان "يوميات فتاة"، وقد لاحظ الأستاذ لطفي السيد في هذه المقالات أن كاتبتها في حاجة إلى العناية باللغة العربية، فنصحها بقراءة الأدب العربي، وكان يقرأ مقالها كل يوم في اليوميات، ويصحح أخطاء المقال ومآخذه عليه بالقلم الأخضر، ويمضي هذا التصحيح بإمضاء "لطفي" ويرسله إليها..وكان هذا بدافع إعجابه بنبوغ ميّ. وذات يوم كان جالسا يتحدث معها فقال لها:"لابد لك يا آنسة من تلاوة القرآن الكريم، لكي تستفيدي من بلاغة معانيه، وفصاحة أسلوبه فقالت له ميّ: ليس عندي نسخة من القرآن. فقال لها: أنا أهدي إليك نسخة منه!.. وبعث إليها الأستاذ لطفي السيد في اليوم التالي نسخة من القرآن الكريم، مع كتب أخرى في الأدب العربي.

تقول"مي" عن فضل لطفي السيد عليها: ".. ابتدأت أفهم من لطفي السيد اتجاه الأسلوب العربي، وما في القرآن من روعة جذابة ساعدتني على تنسيق كتابتي، ورقي أسلوبي"[١٨]، وكانت ميّ تحترم لطفي السيد لعلمه ومكانه وقلمه البليغ، ثم تطور هذا الاحترام إلى إعزاز وتقدير، فأخذت تثق به كل الثقة وتنزل له من نفسها منزلة عزيزة، وتستشيره في الكثير من شئونها، وتسر إليه بما تخفيه عن غيره من الأصدقاء والأقرباء".

وبين عامي ١٩١١..١٩١٢، تبادل لطفي السيد معها الرسائل الأدبية ونكتفي بذكر مقتطفات منها: في يوليو عام ١٩٣١ سافر لطفي السيد إلى الإسكندرية للاصطياف، وكان قبل سفره مثابراً على حضور صالونها كل أسبوع،

---

(١٨) الطناحى: مرجع سابق، ، انظر القسم الثانى "أدباء أحبوا مي"

وما كاد يمضيأسبوع واحد على سفره حتى اشتاق إلى رؤيتها، فبعث إليها رسالة في ١٥ يوليو من ذلك العام جاء فيها: "كتابي يلقي إليك في صحة وسلامة وصبر على هذا الحر، الذي ربما شبهه بعض أصحابنا الشعراء بشوق المحبين، يقص عليك إنني أذكرك دائماً كلما هبت نسمات البحر، وقابلت بينها وبين لوافح القاهرة، وكلما تجلي علينا البدر يضيء البر والبحر على السواء، ويملأ العيون قرة، والقلوب رضا، وكلما جلست على شط البحر أتعشي وسط أصحابي، كما كانت حاليوقت أن رأيتك لأول مرة، وسمعنا حديثك وأعجبت بك أذكرك كلما خطر ببالي النظر إلى حال المرأة الشرقية ومستقبلها وعلى من نستطيع أن نعتمد في المساعدة على انتقالها إلى الأفق الذي نرجوه. وكلما قرأت من الشعر ومن النثر أفكارا تتناسب أفكارك أو تختلف عنها. أذكرك كلما هاج البحر، وألفت عقلي إلى مظهر الغضب في وجه الطبيعة الباسم، وآثار الغضب في نفوس بني آدم حتى في نفسفتاة أرحبهم صدرا وأحسنهم خلقا، وألطفهم مجاملة، وأسرعهم معاملة، وأرقهم قلبا.. أذكرك في كل وقت، ولا أجرأ أن أكتب إليك إلا في ميعاد الزيارة، لكيلا أضطرك مكرهة بتقاليد الأدبأن تردعلى بالكتابة كلما كتبت إليك. على أني أعرف أن كثيراً غيري لهم تراسل قد يضيق وقتك عن العطف عليهم.. فاعذري قلما حساساً، غيوراً طماعاً يجريإلى ما يحب كالسيل المتدفق".

وبعد أن قضى لطفي السيد في مصيف الإسكندرية نحو شهرين سافر إلى بلدته "برقين"، فكتبت إليه ميّ خطاباً يتضمن عواطفها النبيلة، وقد سطرت فيه جانباًمن أفكارها الأدبية والاجتماعية، فرد عليها بخطاب في أول سبتمبر ١٩٣١جاء فيه:

"لست في حاجة إلى العنوان، لأني لا أريد أن يقرأ كتابي من عنوانه، ولست في حاجة إلى ندائك من بعيد، أو قريب، فأنت من نفسي أقرب من أن تناديك جاءني كتابك، فشممته مليا، وقرأته هنيئاً مريئا، وإني ممتنع نهائيا عن أن أشرح لك العواطف حقيقة بكل معنى الكلمة. وكل ما يأذن لي تهيبك أن أبوح به هو أني من الصباح إلى هذا المساء وأنا وحدي، فلم أستطع أن أمسك القلم، لأجيب عنه بصراحتي العادية، فما وجدت بدا من الركون إلى أسلم الطرق، وهو أن أحفظ لنفسي وصف الاغتباط الذي نالني من هذا الكتاب".."..
اعترفي بأنك كنت في ساعة من ساعات تجلياتك حين كتبت لي هذه الرسالة، إن فيها أفكاراً ومرامي ذات وزن كبير وفيها مقاصد ومعان تكاد تطير من خفتها، أو تذوب من رقتها.. أجناية أن أتحدث بهذه السابغة. إلا أن للأرواح أيضاً غذاء يتنزل عليها من مكان أسمى من مكانها العادي، وهزة تأخذها حين تتقابل جاذبيتها، لعل ذلكهو سر السعادة الإنسانية التي يلتمسها الناس، فلا يعرفون طريقها..".

وعلى الرغم مما في رسائل لطفي السيدمن عاطفة مشبوهة، فإنها تتخللها المعاني الإنسانية والخواطر الفلسفية، ففي ٢٩ إبريل عام ١٩١٤ بعث إليها خطاباً يتضمن العديد من الخطرات الإنسانية، التي لا يصرح بها المرء إلا لعزيز عليه، يقول في هذا الخطاب ".. أكتب إليك تحت سلطان شعور أقرب ما يكون من مشاعر الحزن الصامت، حزن لا يعترف به لأنه غير معروف المصدر، ولا محدد الجهات.. ولكنه مع ذلك حزن!.

الطيور تغرد حولي من كل ناحية، وما هي إلا حمامتان وعصافير شتي أدفعها عن الدخول في "أودتي" وهي لا تندفع ولا تخافني كأنها علمت بأني أنا شجي

بها.. تنتقل الحمامتان من فوق ستارة إلى ستارة أخرى، كأنهما تقولان لي: "نحن أليفان سعيدان، وصديقان مجتمعان، فأين صديقك أنت؟! والواقع أن العصافير الصغيرة ترى بيتنا أفسح من أن يكون لنا وحدنا، فتريد أن تبني أعشاشها في الشبابيك، ونحن نطردها، وما أقلنا كرما.. ونحن مع ذلك ندعي من زمان أننا نحب الاشتراكية، ونحب المساواة ونتواصى ببر الضعفاء!.

أنا لا أطرد العصافير إكراماً لخاطر كنارك الصغير، ولا أهيج الحمام إكراماً لما اشتهر به من معنى الوفاء في الصداقة وحسن العشرة.. إني لا أجد بأساً من أن أكتب إلى صديقة تفهمني جد الفهم، وأنا غير جذل القلب ولقد ظفرت فعلاً ببغيتى، فإني ما زلت أحدثك حتى شعرت اللحظة بسعة الصدر بعدشقيه، وانبساط في حال النفس بعد تقبضها، ورغبة في إطالة هذا الحديث، وقد اطمأننت وأنت أمامي أخاطبك..".

ويقول في رسالة أخرى بعثها من باريس ١٥ أكتوبر ١٩٢٠: "أف لهذا الإنسان، ولكنه لا يستحيي، وأنا أيضاً إنسان، ومع ذلك أستحيي من إبداء الشوق المبرح إلى لقائك، وأرجوك ألا يخدعك قولي، فتظنين أني فوق الإنسان العادي كلا، فلطالما أصليت صغار الطير ناراً حامية من بندقيتي، لا لآكل بل لألعب بالنفوس البريئة، التي هي مثلي لها حق في الحياة!.

من الحمق أن أطيل القول في هذه المعاني إليك، إليك أنت التي قد لا تلعبين بالنفوس الصغيرة، ولكنك تلعبين بالنفس الكبيرة..".

وكانت ميّ سعيدة باهتمام أستاذ الجيل، فحافظت على صداقته ومودته، واستقبلته مع الصفوة من زوارها في غير أوقات الصالون.. يقول لطفي السيد في

إحدى رسائله إليها: ".. ولشد ما أرجو أنأراك في كل الأوقات إلا يوم الثلاثاء يوم زيارتك إذ يجب على كل إنسان أن يقول لي شيئا إلا رأيه الحقيقي في الأشخاص وفي الأشياء!.. لا تظني أني أغار من الذين يمدحونك أمامي وأمامك ولو كانوا كلهم الدكتور شميل"، والدكتور شبلي شميل الذي يشير إليه لطفي السيد في رسالته كان من أصدقائها ومن رواد صالونها، وكان متيماً بحبها وكثيراً ما نظم قصائد الحب والإعجاب فيها.

وبعد أن استعرضنا مقتطفات من الرسائل الأدبية المتبادلة بين لطفي السيد وميّ فإننا نرى، إذا كانت العلاقة بينهما من أقوى العلاقات الإنسانية في تاريخهما فإنه مما يجدر الإشارة إليه أن لطفي السيد فقد زوجته عام ١٩١٠ وبقيحتى وافته المنية عام ١٩٦٣ أعزب. وأرجح أن العلاقة بينهما لم تتعد كونها علاقة طالبة بأستاذ تجله وتحترمه، وإعجابها بعلمه وشخصيته لا يعني عشقها له.. كما أننا لا يجب أن نغفل فارق السن بينهما.

إسماعيل صبري

كان الشاعر إسماعيل صبري يكبر ميّ بنحو ثلاثين عاما، وكان أول اجتماع لصالونها الأدبي عقد تحت رئاسته، وكان "صبري" رجلاً مهذباً شديد التهذيب، ورغم فارق السن بينه وبين ميّ إلا أنه أغرم بها وفضح هذا الهوي شعره ونثره.. وكان أول لقاء بها حين بعث إلى والدها "إلياس زيادة" صاحب جريدة "المحروسة"، يطلب أن يزوره ليتعرف إلى فتاته التي أعجبه القاؤها وخطبتهافي حفلة تكريم خليل مطران. وكانت "ميّ" وقتئذقد بدأت تكتب في هذه الجريدة

"يوميات فتاة"، فأجابه الأستاذ إلياس بالترحيب وحدد له موعد الزيارة، فنظم إسماعيل صبري هذه الأبيات..

خبروني اليوم إني في غد	مالئ عيني منها ويدي
كيف يبقي من قضي الليل على	جرف هار إلى ذا الموعد
رب كن عوني وأخرني إلى	أن أرى شمس الضحي من موعدي
يا أساة الحي لو أجلتم	رأيكم في إلى يوم غد
رب داء لا يرجي برؤه	قد شفته زورة من مسعد

وزارها إسماعيل صبري، وكان من أكثر زوارها تردداً هو والشاعر ولي الدين يكن إلى أن توفي عام ١٩٢٣، وتوفي ولي الدين عام ١٩٢١، وقد نشر بعض ما قالاه في الآنسة "ميّ" في ديوان كل منهما، ونسي أو فقد البعض الآخر [١٩].

ويذكر أنهما اجتمعا عندها ذات ليلة من لياليها الأدبية العامرة، فأطلعتهما على صورة لها نقلها أحد المصورين حديثاً، فارتجل الشاعر إسماعيل صبري هذين البيتين:

أرسلي الشعر خلف ظهرك ليلا	واعقديه من فوق رأسك تاجاً
أنت في الحالتين بدر نراه	صادعاً آية الدجي وهاجاً

أما الشاعر ولي الدين، فنظر فوجدها متكئة – في الصورة – بيدها على المقعد ومسندة عليها خدها كمن يفكر ويستمع لوحي فكرة، ثم انتحى ناحية من المجلس، ومكث برهة يكتب، ثم عاد إلى الحاضرين فأنشد فيوصف هذه الصورة.

---

[١٩] المرجع السابق: ص ٣٤، ٣٥ .

أوحـــى إليهـــا ربهـــا وحيـــه ألا تراهـــــا وهـــــي تـــــستمع

رقـــت معانيهـــا وألفاظهـــا كأنمـــــا ألفاظهـــــا أدمـــــع

يـاميّ مـا فـي الكـون مـن بهجـة إلا ومـــن عينيـــك لـــي تـــسطع

وذات مرة اضطر إسماعيل صبري للتخلف عن حضور صالونها الذي ينعقد في الثلاثاء من كل أسبوع فبعث إليها بهذين البيتين يوم الاثنين، وهما:

روحي على بعض دور الحى حائمة كظـامئ الطيـر حوامـا علـى المـاء

إن لـم أمتـع "بمـيّ" نـاظري غـداً أنكـــرت صـــبحك يـــايوم الثلاثـــاء

وقال أيضاً في ازدحام نوابغ الأدب في صالونها :

يـــا مـــن أقـــام فـــؤادي إذ تملكـــه ما بـين نـارين مـن شـوق ومـن شـجن

تفديك أعين مَنْ من حولك ازدحمت عطشى إلى نهلة ن وجهك الحسن

وتـــستعيذ إذا ألـــفتك مبتـــسما على لؤلـؤ بـالنهي حـرزاً مـن الفـتن..

جـــردت كـــل ملـــيح مـــن ملاحتـــه لـم تتـق الله فـي ظبـي ولا غـصن..

فاســتبق للبــدر بــين الــشهب رتبتــه تملكـه فـي أوجـه عبـداً بـلا ثمـن..

وكتب إسماعيل صبري تحت بيتين نُسبا إلى ميّ (أو كتبهما أحد رواد صالونها على لسانها.. وهذا ما نرجحه) وهما:

فديتـــــك يـــــا هاجـــــري فهـــــل ترتـــــضي بالفـــــدا

ســـــهرت عليـــــك الـــــدجى وبحـــــتُ ولكـــــن ســـــدا

فرد عليها قائلاً:

أهاجرتـــــــــي أطفـــــــئي ... لواعـــــــــج لا تــــــــــنتهي

مـــضت فـــي هـــواك الـــسنون ... ومـــا نلـــت مـــا أشـــتهي

إذا قيـــل مـــات الأديـــب ... بفاتنـــة... أنـــت هـــي

ويقال إنها كتبت تحت هذه الأبيات السابقة:

زمانـــك قبـــلي انتهـــى ... ولا يرجـــع المنتهـــى

فحـــسبي أن ازدهـــى ... وحـــسبك أن تـــشتهى

ونرى أن الأبيات التي نسبت إلى مي، نظمها أحد الشعراء المعجبين بها أو نظمها إسماعيل صبري نفسه، لأن أديبتنا لم تنظم في حياتها بيتاً واحداً من الشعر العربي لكنها كانت متيمة بالشعر، تطرب نفسها بسماعه، وتعتز بشعر "إسماعيل صبري" في وصفها وتقول:"إن اسماعيل صبري يتميز عن شعراء عصره بلطف ذوقه ورقة حسه، وحلاوة جرسه"، وكتب إليها إسماعيل صبري تهنئة بالعام الجديد، ببيتين من الشعر بعثهما إليها، فقال:

يـاغرة العـام جـوزي الأفـق صـاعدة ... إلـــى الـــسماء بآمـــال المحبينـــا

إنـــي ســـألت لـــك الأيـــام صـــافة ... يـــا "مـــيّ" قـــولي معـــي بـــالله آمينـــا

وإذا كانـت قـد أعجبـت بأحاديـث وأشـعار إسـماعيل صـبري فإنـه إعجـاب القارئة الأديبة المتذوقة لشعر جيد تعتز به، وأظن أن إسماعيل صبري نفسه كان يلمح تقدير ميّ لشعره وتقديرها لأستاذيته من خلال ندوتها.

مصطفى صادق الرافعي

كان مصطفى الرافعي يقيم في طنطا، حيث تعيش زوجته وأولاده العشرة، وكان يكبر مياً بأكثر من ثلاثين عاما، وقد كان دائما يبكر في الحضور إلى صالونها الأسبوعي، وهو في كامل أناقته، وكانت مي تستقبله بحفاوة تليق بشاعر ينافس أحمد شوقي على إمارة الشعر، وكانت توليه عناية خاصة، وربما ذلك يرجع إلى أن الرافعي كان مصابا بالصمم، مما جعل مشاركته في الأحاديث الدائرة في الصالون قليلة، وقد شعر الرافعي بهذه العناية، فكتب إلى مي رسائل "أوراق الورد – ١٩٢٣"، فلما لم يجد لرسائله صدى كتب رسائله الثانية "رسائل الأحزان – ١٩٢٤"، وفي نفس العام كتب رسائله الثالثة"السحاب الأحمر"، وعرضت ميّ رسائل الرافعي الأولى في صالونها، وكان تصرفها هذا من الأسباب التي أشعلت المعركة الفكرية بين العقاد والرافعي.

يقول الرافعي في إحدى رسائله، التي كتبها في ٧ يوليو ١٩٢٣: "لم أتطفل على أحد قبلك، ولن أتطفل عليك مرتين"..و كتب إليها أبياتا في إحدى المناسبات العزيزة لديها قائلاً:

يعز علينا أن تكوني بموسم	ولا نلتقي فيه سلاما ولا رداً
فإن كان هذا الغصن أنبت شوكة	فما ذاك إلا أنه أنبت الوردا

أنطون الجميل

في جريدة "المحروسة" التي كان صاحبها "إلياس زيادة" والد ميّ التقى أنطون الجميل بميّ لأول مرة، فقد كان يتابع مقالاتها المعنونة "يوميات فتاة"،

وكان أنطون الجميل وقتذاك أديباً ذائع الصيت، هاجر إلى مصر من لبنان عام ١٩٠٩وكان قبل هجرته يشتغل بالتدريس في مدارس بيروت، ثم أنشأ في مصر مجلة الزهور، وكانت مجلة أدبية راقية، ثم هجر الأدب إلى وظائف الحكومة، فتولي منصباً رفيعاً في وزارة المالية إلى أن أحيل إلى المعاش، فتولي رئاسة تحرير جريدة الأهرام إلى أن توفي.

وقيل إن أنطون الجميل كان متيما بحب مي، وإنه رفض الزواج – حتى وفاته – من أجلها وأنه ظل ينتظر في سنوات عزوبته انفضاض المعجبين من حولها وإقبالها عليه، ولو جاوز الشباب، وكان يلقبها باسم "بيبي" أي الرضيع ويلقب نفسه "بالرضيع الآخر"، وكان يسمح لنفسه – لعلاقته القوية بأسرتها – أن يزورها في غير أوقات صالونها، وأن يتحدث إليها تليفونيا، وأن يكتب إليها خطابات خاصة، سجلت حبه وإعجابه بها الذي دام طويلاً، ومن هذه الخطابات التي تمتلئ بالشعور الفياض نحو ميّ، ذلك الخطاب الذي كتبه بتاريخ ١٣ يونيه عام ١٩٢٦ يقول فيه:".. يلذ لي يا مي أن أخاطبك باسمك مجرداً من الوصف واللقب، لأن كل وصف قليل إذا ما قيس بصفاتك، وكل لقب ضئيل إذا ما اقترن باسمك فاسم "مي"، وكفاك به من وصف ولقب قد أصبح في هذا الجيل يرادف حسن البيان وفصاحة اللسان، ونبوغ العقل، وكبر القلب! .. وبعد، فقد طلع على كتابك مساء أمس في ليلة العيد مع هلال الشهر، محوطا بهالة من نور، هو نور نفسك الفياض، لا عجب إذا تقبلت ما فيه من عواطف سامية، وما معه من هدية ثمينة شاكراً ممتنا، فإن مادون ذلك يستوجب الشكر والامتنان، فكيف بذلك كله محلي بما شرفتني به من صداقة غالية !.

على أي ما أتيت إلى آخر كتابك الكريم حتى مازج شعوري هذا شيء من الاحتجاج الشديد على ما نسبته إلي من النقمة على خطك، والضحك من حروفك ووالله ما رسم خطك إلا كل بديع طريف، ولا عبرت حروفك إلا عن كل سام شريف".. وسافر أنطون الجميل للإسكندرية في ذلك الحين، فكتب إلى ميّ رسالة من الإسكندرية جاء فيها".. بلغت إلى البحر مازودتني له من سلام وتحيات.. الساعة الآن متأخرة من الليل.. ولا يسعني إلا الانتقال بالفكر إلى تلك الشرفة الشاهقة (يعني شرفة منزلها) ذات الفضل العميم على في مثل هذه الساعة .. فأقف طويلاً عن الكتابة ضائعاً في بحار الذكريات.. بل إن الكلمات تعصاني، فأبحث عنها ولا أجدها. استودعك الله يا بيبيعلى أمل لقائك بخير وعافية وقد أصبحت أنا "لوتر بيبي".

ومن الشعر الذي نظمه أنطون الجميل في ميّ هذين البيتين:

مـــيّ ومـــا مـــي ســـوى قـــبس   للحـــسن فـــوق نـــوره الـــشهبا
إنــــــــي أحـــــــــي فيكنابغـــــــــة   حـــسد الأعـــاجم عنـــدها العربـــا

عشاق ومعجبون آخرون

كـذلك أعجـب بمـيّ أمـين الريحـاني، والـدكتور شـبلي شـميل الطبيـب الفيلسوف، والدكتور يعقوب صروف، والشاعر الأديب ولي الدين يكن، وغيرهم وغيرهم .. وأكرر ما قلته في بداية هذا الفصل "إنني أتناول أبرز العلاقات العاطفية في حياة كاتبتنا، ولا داعي لأن أبرز علاقات هامشية..كما أن المجال لا يتسع للإفاضة والإسهاب في هذا الموضوع".

ونتساءل: من الرجل الذي أحبته مي زيادة؟

وقبل أن نجيب عن هذا السؤال، يجدر بنا أن نعلم أن مفهوم "مي زيادة" للحب يختلف عن مفهوم أية فتاة أخرى.

"الحب عارض في حياة الرجل، ولكنه حكاية حياة المرأة"، هذه المقولة الشهيرة قالتها امرأة من أنبغ نساء العالم، ألا وهي مدام "دي ستيل" الفرنسية التي نالت شهرة عالمية ورغم إيمان "دي ستيل" و"ميّ زيادة" بالمقولة السابقة، فإن كلتيهما عاشت عمرها وعواطفها تذوب جوعاً وظمأ إلى الحب الحقيقي الهانئ، تقول ميّ زيادة عن الحب: "المفروض أن تسير عاطفة الحب عند المرأة سيرها الطبيعي ابتداء بحب الوالدين، إلى حب الأخوة والأخوات، إلى حب الأقارب والأصدقاء، ثم يتجه الحب في حينه إلى الخطيب الذي تطلب فيه المرأة طبعاً الحبيب، ثم حب الزوج والولد والعائلة الجديدة بشتى فروعها وبرغم أن هذا الحب نسيج حياة المرأة، فإن الرجل الذي اعتاد إذلالها باسم القوة والحضانة، سد في وجهها منفذ الانتباه لعواطفها المشروعة، وأنكر عليها الإفصاح عما ينبئأنها ذات يقظة مستقلة، وكل ما اقتحمته في عالم التعبير خلال العصور المظلمة يكاد يتلخص في وصف النبات والحيوان في حكايات قصيرة، ولم تنظم إلا الأناشيد الدينية والصلوات الروحانية، فإذا خرجت من ذلك فلتصوير حياة الرعاة وعاداتهم ومرحهم في عيشة الخلاء، أما النساء العربيات في الجاهلية وفي صدر الإسلام فلم ينظمن على ما أعلم إلا في المدح وفي الرثاء وما إليهما وقليل ما ينسبونه من شعر الغزل والنسيب إلى بعض الشاعرات..".

إن ما ذكرناه من كلام ميّ يمثل رأيها في الحب بالنسبة للمرأة.. وفي رأيي أن هذه النظرة نظرة جزئية وليست كلية فاحصة مدققة، فالحب إذا كان نسيج حياة المرأة فهو كذلك بالنسبة للرجل نسيج حياته، فالحب عاطفة إنسانية ساميةبين الرجل والمرأة، وليس صحيحاً أن الرجل اعتاد إذلال المرأة باسم القوة والحضانة، وليس أدل على ذلك من أن الأديان أعطيت للمرأة حقوقها وأعادت إليها كرامتها واستقلاليتها. ولعل هذا ظهر جلياً في تعاليم الدين الإسلامي، ومن مظاهر ذلك قول الرسول عن السيدة عائشة – رضي الله عنها: "خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء".

وفي العصر الحديث برعت المرأة في تحرير فكرها وإطلاق براعتها واستقلالها، فلها الحق في حرية عواطفها ومشروعيتها ليس في الغرب فقط بل في الشرق أيضاً.. وإن قلة نظم المرأة للشعر الغزلي والنسيب في العصرين الجاهلي والإسلامي يرجع إلى أن الرجل ينكر على المرأة الإفصاح عن عواطفها، زعم تنقصه الحجة، ربما لأن المرأة الشرقية لا تبوح بمشاعره ابسهولة، ولا تفضح عواطفها في قصيدة، فالقلبعند المرأة العربية فطرة والعاطفة مزاج خاص بها وحدها وسر من أسرارها والشعور لديها طبع، أما التعقل فاكتساب والبوح بالمشاعر تطبع.

إن "مي" ظلمت الحب وظلمت عواطفها بهذا المفهوم المحدد للحب، الذي طبقته في حياتها، فكانت علاقات الحب في حياتها صداقة جميلة، فهي القائلة "إن الصداقة تزرع الحياة أزهاراً"، ولو حللنا محنتها التي ألمت بها في أواخر أيامها لوجدنا أن من أسبابها خلو حياتها من الحبيب.. لقد شعرت ميّ أن

كل من حولها قد حاصرها حصاراً لا مفر منه.. كذلك إن حب الأدباء لميّ، لم يكن إلا إعجاباً بنبوغها وثقافتها المبكرة وشخصيتها الجذابة، وما تمتاز به من صفات ساحرة.. ولقد رأينا أن علاقاتها العاطفية بأدباء عصرها – الذين أشرنا إلى بعضهم – لا نستطيع أن نجزم في كون إعجابهم بشخصية ميّ، وإعجابها بهم أيضاً قد وصل إلى حد الغرام أو الحب الحقيقي الجاد! وإلا لكانتإحدى هذه العلاقات تطورت إلى حد قد يكون الزواج أو على الأقل التلميح به، وإما الرفض أو القبول، ولا يغير من رأينا ما ورد في رسائل الأدباء إلى مي من كلمات الإعجاب والحب التي كانوا يرسلونها إليها فهي رسائل أدبية من أدباء صناعتهم الكلمة، أفلا يحسنونها!.. ولعل أطرف تصوير وأذكى وصف لأوضاع الأدباء العاطفية من مي ما ورد في قصيدة للشاعر البيروتيعبد الرحيم قليلات[٢٠] ألقاها مخاطبا إياها في حفلة أقامتها – تكريما لها – جمعية تهذيب الشبيبة السورية بمنتدى هول في الجامعة الأمريكية في بيروت:

عتبي على الشعراء نزق شعورهم	ما شاهدوا حسناء إلا عيثوا
تلقاهم والعثة اشتغلت بما	فى الرأس إن لحظوا المليحة "برغثوا"
كل خفيف الروح كلّ مغرمُ	كل بأذيال الهوي متشبث
كل مناجاة وكل دقة	كلُ يقول عن القلوب ويلهث
شفاف ظرف.. وارتقاء عواطف	وتأنق، وترفق، وتريث
سيان لطف هزيلهم، وسمينهم	لا فرق، أمرد جمعهم والأشعث

(٢٠) فاروق سعد: مرجع سابق ص١١٤.

أمـا أنـا، فوحـق "مـيّ" والنهـي عمـري بغيـر مهمتـي لا أبحـث
وإذا هـم عبثـوا بنـور رشادهـم وسـدادهم، فأنـا الـذي لا يعبـث

وإنـي أؤيـد الأسـتاذ العقـاد [٢١] فـي أن الرسـائل المتبادلـة بـين مـيّ وأدبـاء عـصرها ورواد نـدوتها الخـاطر العاجـل الـذي يـسبق إلـى الـوهم فـي أذهاننـا رسـائل عشق وهيام، وهـذا الخـاطر يجـب أن تـصححه لمحـة سريعة إلـى نـدوةميّ، وطبيعـة التحيـة "العرفيـة التـي تناسـبها"، بلتـستوجبها بقـانون الـشعر والفـن، وإن لـم نقـل الجنتلمانيـة والفروسـية! فتـاة جميلـة أديبـة، يزورهـا أدبـاء وشـعراء وكتـاب قـصة وأصحاب ذوق في جمال العصمة وجمال الطلعة، إن فات أحدا من هؤلاء واجب التحية المناسبة للمقام، فما هو بزائر صالح لمثل هذه الزيارة، ولو لـم تكن زيارة عشق ومناجاة، وإن فات مياً أن تتقبل هذه التحيات، أو وجب عليها –كما يخطر على بال الأقدمين – أن تصدها بالعبوس والغضب فليست هي زيارة ندوة إذن.. ولكنها زيارة واحدة قد تنتهي كما تبتدئ عند باب الدار.. وهذا هو تأويل الرسائل على أسلوب الفن العاطفي، أو العاطفة الفنية، بين صاحبة الندوة وأكثر من زائر من نخبة هؤلاء الزوار، ولكل منهم أسلوبه في تعبيره داخل هذا الإطار من التحية. لطفي السيد وأسلوب الجنتلمان، وعبد العزيز فهمي وأسلوب الصمت والخجل، وكأنه الصبي في مجلس الفتيات القريبات، وأنطون الجميل وأسلوب بائع الجواهر في معرض الهوانهم، وشبلي الشميل وأسلوب المصارع في حلبة الفكر والشعور.

---

[٢١] عباس محمود العقاد: رجال حول مي، مجلة الهلال، القاهرة، ع مارس ١٩٦٢.

وخليل مطران وأسلوب موليير على غير التمثيل، وسليم سركيس وأسلوب الدعاية للبيوتات في صالون من أشهر صالون البيوت، ومصطفى صادق الرافعي وأسلوب المفاجأة بالكتابة، التي يغني الاطلاع عليها من السماع، وإسماعيل صبري وأسلوب الشاعر الذي يعلم أن حق الغزل الصريح أولى بالرعاية من حق الكتابة والتصحيح.. وأحمد شوقي وأسلوب الإيحاء من بعيد. وعليه تعليق الفليسوف المعجب بالطرفين..".

وخلاصة القول إن ميا ظلمت نفسها وظلمها المعجبون بها الذين ادّعوا حبها.

محنة

شاءت الأقدار أن تكتوي ميّ بلهيب حياتها، وأن تجعل من أيامها حزمة حطب يابسة، تلقي بها في أتون التجربة الأدبية.. فقد ألزمت حياتها أن تسير على منهج لا تحيد عنه،وهو منهج الكفاح وإثبات الذات، ولم تلتفت إلى صوت والدتها، التي كانت توصيها وهي ابنة العشرين.

أن تتزوج، لا سيما وهي شابة حسناء تستطيع أن تفاضل بين عشرات المعجبين، ولم تكن تعلم مي أن هنالك شيئا يجذب شبابها إلى التلاشي، إنه الزمن الذي هو أقوى من أي شيء آخر، لم تشغل ميّ نفسها بالمستقبل، فلم تدخر شيئا لمستقبلها ولم تختر لنفسها زوجا يشاركها رحلة عمرها.

وبدأ النسر المحلق الذي تعود على القمم يعصف به الزمن إلى السفوح ويجعله ينحدر، وهو جريح لا يملك من أمر نفسه شيئا، فالعمر أخذ يتقدم بمي وولي عهد الجمال والشباب، وخلا من حولها المعجبون وفارقها الأصدقاء وتوالت عليها النكبات، فقدت والديها واحدا بعد الآخر، وتوفي جبران خليل جبران رفيق طموحاتها.

في ١٩٢٩/١٠/٢٤ توفي "إلياس زيادة" بعد داء عضال وصراع مع المرض، زاد من لهيبه ما كابد من شركائه في قطعة أرض بلبنان لم يستطع أن يستخلصها لوحيدته فرحل وتركها مشكلة معقدة.. منغصة حياة ميّ. وفي ١٩٣١/٤/١٠ رحل جبران خليل جبران وقبل أن يودع الحياة تدهورت صحته حتى هزمه المرض، وقد وعد ميّا بأنه سيعود إلى وطنه الأول لبنان، لكن قد عاجلته المنية قبل الوفاء بوعده وتوفي في أمريكا ونقل جثمانه إلى لبنان.

وفي ١٩٣٢/٣/٥ توفيت أمها وبوفاتها فقدت ميّ الحنان والعطف وفقدت كذلك السعادة، وعادت إلى مشكلة الشركاء والصراع على الأرض الموروثة المعقدة بلبنان، فعانت طمع المتربصين وأقاويل الشامتين.

وقد حاولت، بعد وفاة والدتها أن تزيد نفسها انشغالا بالكتابة الأدبية، فحققت أفضل إنجازاتها، ولكن صراعها الداخلي ازداد، وعجزت ميّ عن أن توفق بين أن تكون امرأة جميلة وأديبة عظيمة.. وكما أن الأولى لم تدم لها، فقد أعجزها أن تقنع بالثانية.

وكأن ما كتبته يوم ترجمت"ابتسامات ودموع"عادت سطوره ماثلة تترى في مخيلتها: "كنت قبلئذ أسير لا ألوي على شيء، إن وقعت عيني على شخص أو طرق سمعي موضوع نظرت في هذا وذاك نظرة استخبار سطحي، أما هناك فطفقت ألقي على نفسي أسئلة منطلقة من جهلي المتعطش إلى الارتواء، من أنا؟ ما هو موقفي في الدنيا؟ لماذا تزعجني بعض الأحاديث، وتسخطني بعض الوجوه في حين أرتاح لأحاديث أخرى وتجذبني وجوه غيرها؟ لماذا أحب هذا ولا أحب تلك؟ لماذا ينفث هذا في روعي وجوب احترامه فأسعد بتوجيه عاطفة جليلة إلى

موضوع يليق بها، بينما ذاك الآخر لا يلهمني غير الهزء والامتهان؟ لماذا يفرحني الناس وأفرحهم؟ لماذا يؤلمني الناس وأولمهم؟ ومن أين لي ولهم هذه القدرة العميقة النافذة؟ أسئلة نقضي العمر ناشدين عنها أجوبة، ولا نفوز قبل الموت بالجوابالشافي، وهكذا صار كوخي الأخضر سجنا اختياريا، وشرفته نافذة مفتوحة على ميدان العجائب والغرائب، وقد تسنى لي أن أستعرضها وأتفحصها بفكري سائلة عن ماهيتها دون أن يكون ثمة سامع أو مجيب.

الفكر! ما أجذب الفكر إذا هو مزج بطلاوة العاطفة، وخيمت عليه أوشحة الخيال! عشت السنوات الأولى من حياتي دون تفكير، وهاقد غدا الجناح الملون بألوان قوس السحاب يضرب جبهتي ليفسح له فيها وكرا فصار كل موضوع، وكل شخص، وكل مشهد طبيعي ينفحني بتأملات زرقاء، وردية، ذهبية، فضية، رمادية تحوم حولي تارة وطورا تجثم في متعاونة مع ما في الكتاب على إيصالي إلى الإنسانية، فأكاد أسمع دقات قلبها وصدي أنينها، فأدرك أنها شقية بجهلها واضطرابها وهمومها، وأنه قدر على المختارين من بنيها أن يتألموا أضعافا، لأنهم السابقون إلى مقاتلة المجهول وكجميع الطلائع يتلقون ضربات المصادرة والمقاومة، فلا تضعف عزائمهم، ولا تكل أقدامهم ويثابرون على تلمس السبيل في حالك الظلمات، ويسيرون إلى الأمام حاملين غنيمة الجهود الإنسانية والثقة بتحقيق الآمال" [1].

ويأتي الربيع وأنى للربيع أن يجدي لميّ وهي في معتقل الخريف: "وتتوالى الساعات فلا يتفيأ شجرتي الهجير، ومرآتي المتثنية لا ترسم وجه المرتوي

(١) المؤلفات الكاملة: جـ٢ ص ٦١٨، ٦١٩.

الشكور.. ليس من عابر، غير ذاك الذي أخذ مني ما أخذ ليقذفني بالأحجار، ويترك منه تذكارا اللعنة والأقذار".

اليـــــأس خـــــالط صـــــفائي   والكآبـــة حلـــت فـــي ميـــاهي!

ولا مستني مؤاسية في الظلام الأفنان، فاستحالت مياهي عبرات وغدا نشيدي شهيقا وانتخابا. الربيع الحزين الحزين، هو ذا الربيع!

ربيع الجحود والهجران .. كيف أحتمل الربيع؟

أنا الصحراء القحطاء، وهو ذا الربيع؟

الصحراء الواجمة الكتوم، كذلك كنت وكذلك أكون"[٢].

وفي رأيي أن هناك أسبابا رئيسية هامة أدت إلى محنة ميّ أهمها فقدها والدتها، فلم يؤثر والدها كما أثر فقد والدتها فيها.. فعندما توفي والدها وجدت حولها عشرات الأيدي تمتد إليها، لتساعدها، كما وجدت بجوارها والدتها فكانت خير عون لها.. وبموت والدتها أصبحت ميّ وحيدة بلا حنان ولا أمل، وكانت تلك الليلة التي فقدت فيها أمها.. ليلة كأنها انفصلت عن الأيام والليالي والساعات، فلا بعد ولا قبل، وإنما ليلة علقت وحدها، بين الأرض والسماء.. تدور على نفسها.. الجبين الأسمر في زجاج النافذة، كأنه قطعة من الزجاج مجلدة، وعينا الصبية تتيهان في الليل، وأشجار النخيل تصفر صفيرا مأتميا.. ولم ترد الصبية عينيها عن الليل، وطفحت أهدابها بالدموع. وفي الظلمة الممتدة على الأرض وفي السماء، في دموعها، تراءت لها، مقبرة الغرباء من وراء أشجار

---

[٢] فاروق سعد: مرجع سابق ص ٣٢٤، ٣٢٥.

النخيل، مشبحة الأطياف، وفيها القبور، تتقلص وتطول.. قبور من رخام، وقبور ممسوحة في الأرض مسحا، وإذا قبر من بينها، جديد، ينهض من التراب ويمشي في الليل.. دبيبا دبيبا.. ويظل القبر يدب، يحمل في رأسه صليبا من حجر، وفي الصليب، رأسا، رجل وامرأة.. ويقترب القبر من الصبية الملصق جبينها البارد بالزجاج البارد، ويضمها إليه ضمة عنيفة فتشهق الصبية ويغمي عليها.. في تلك الليلة كانت "ميّ" قد دفنت أمها[٣].

"مشت الصبية في صباح اليوم التالي في غرف المنزل القاهري، تلتمس الأحياء في غرفهم الدافئة فلم تجد إلا خيال القبر الجديد، يطل عليها من وراء الجدران والنوافذ.. وجناحا خفاش أسود كبير يضربان جبينها وقلبها ويختبطان في بيتها،وكادت تنهد وتنهار، لماذا يلازمها ظل هذا القبر المخيف؟ الموت.. ولكنها لم تكن تخشاه قبل اليوم، وكانت تقدر أنها لابد فاقدة أبويها في ساعة من الزمن؟".

إذن لماذا؟

لم تكن تدري.. وظلت تروح، وتجيء كأنها شبح يدب دبيبا، والظلمة العميقة تلفها لفا، وفجأة استنار في ذهنها.. ذاك الذي يعيش في الألوان والأنغام، في المحبة والحنان، ألا يمكن أن يكون لها أما وأبا وأخا وابنا..؟ لم لا؟ ذاك يفهمها، وفي فهمه لها حلاوة لم تعرفها في غيره من الرجال.. في قلبه عطر لم تعرفه في أجواء الرجال!.. شذاه يملأ غرفتها وكتابها وقلمها. جبهته العالية تنحني على أوراقها في الليل.. أهدابه السوداء الطويلة، تنعس على كتابها وتلامس في

(٣) فؤاد سليمان: المأساة، مجلةلاصوت المرأة، القاهرة، ٩ أكتوبر ١٩٤٩، ص ١٠.

بعض اللياليأهداب عينها.!! لم لا..سيكون لها كل شيء بعد ذاك وستحبه..ستحبه في مرضه وستكون له الأم والأخت والزوجة.. وأشرق قلبها.. لم لا؟!

وأكبت الفتاة في حزنها العميق تكتب لذاك الغائب الذي خلف البحار تنعي له أمها، آخر خيال حبيب من أهلها، هوم على حياتها، وكانت تبكي.. ومن خلال دموعها، عاودتها الرؤيا المظلمة.. في الضباب والأمواج، من آخر البحر، تراءى لها قبر آخر، يمشيعلى الأمواج وفي الضباب.. ويقترب ويظل يقترب، فيصب حدود القهر.

ها هو في طريقه في الأحياء
ها هو يدخل فناء الدار
ها هو في غرفتها.. ها هو

وبعد أيام جاءها من وراء البحر، نعني ذاك الذي حسبته أبا وأخا وأما وأختا وزوجا جاءها نعي جبران.."ماذا فعلت يا ميّ".. قال لها الفراغ المخيف الذي بقي لها، يلفها.. كانا وحدهما، "هي" و"الفراغ".. انتشلتك من رحم أمك لأعتصر إثمار شبابك، وأهز شجرة كهولتك، حتى لا تبقى فيك ورقة أو ثمرة.. ملأت بيتك بالمجد والشهرة، يجيئان إليك من كل صوب.. تركت الرجال من شعراء، ومن أدباء..على رجليك يا "ميّ" كرات تتدحرج في فناء الدار.. عقدت على رأسك مخملا وحريرا، وعقدت على قلبك شريطا أسودا.. فتحت لك مقاصير الذهب، وأبواب القلوب، فنفذت إليها يا "ميّ" وأنسيتك قلبك، فأغلقته على الفراغ الذي هوأنا، ألهيتك بالحبر والورق، فسودت الألوف من الصفحات المشرقة وسودت قلبك، فما هتفت فيه غير الوحشة التي هي أختي.. أنا الفراغ والوحشة أختي.. أنا

الفراغ والوحشة أختي.. قلب من ذهب، من صفاء الذهب تحول إلى حطبة لاتباع ولا تشرى، أنوثة من أجمل الأنوثات، شوّهها الكبرياء.

مــــن أنـــت الآن يـــا مـــيّ..؟
وترمـــق طـــوع لا يـــرن فيـــه نغـــم..
امـــرأة ســـاذجة مـــسكينة..[٤]

وهل نستطيع أن نغفل الندم والألم في وجدانها لخيبتها في حبها أوتوهمها حب جبران خليل جبران وإيثارها هو دون سائر الرجال.. فكان أملا وحلما لها.. ولكن وآسفاه، ضاع الأمل واندثر الحلم، فكان طعنة أصابتها في مقتل!" إن علاقة ميّ بجبران تكاد توجز جميع أنواع الصراع الوجداني الذي عانته، وفي كثير من الأحيان يلوح للباحث أن موت جبران كان السبب الأهم في سقوط ميّ إلى درك اليأس وبلوغها أقصى حالات الضياع والهذيان، ولكن هذا الحكم يحتاج إلى كثير من الأناة والتروي، قبل إطلاقه واعتماده، فقد كادت ميّ تيأس من عودة جبران إلى الشرق قبل وفاته، وبذلك لا يكون موت جبران ضياعا لأملها في لقائه، ولكن ميّا ظلت تحب جبران على الرغم من ذلك، وهكذا يكون موت جبران صدمة صدعت نفسها، لأنها رزئت بفقدان عزيز حبيب، ولكنها مع ذلك تلقت رزءها، أو جهدت، على الأقل، في أن تتلقاه بحكمة ورباط جأش حتى أنها اعتبرت موته ابتعادا عن عالم زري هو أسمى من أن ينتسب إليه، وانتقالا إلى عالم أبهي وأجمل هو أحرى بالانتساب إليه.

---

[٤] المرجع السابق: ص ١١.

ويمكن القول إن موقفها من هذا محاولة لبلسمة جرح أو سعي إلى الحد من وقع المصيبة باستدرار العزاء واجتلاب السلوان، ولكن ما يجب النظر فيه طويلا وعميقا هو أن مي تمكنت من تحصين النفس وضبط الأعصاب طوال ستة أعوام فقدت بعدها السيطرة على نفسها، فانطلقت هواجسها، واضطربت أعصابها، وإذ ذاك لجأ الباحثون إلى تفسير عصاب ميّ تفسيرا رجعيا ارتكاسيا، فقالوا إن موت جبران، بعد وفاة أبيها وأمها كان الضربة القاضية التي أتت على البقية الباقية من تجلدها ومقاومتها.. إذ إن ميّ أحبت، وصدمت وقاومت، ثم انهارت، ومثل هذا التصور يجعل موت جبران نقطة انطلاق وسببا أدىإلى عصاب ميّ واختلالها النفسي.

ولئن صح القول إن موت جبران أودي بمقاومة ميّ، فإنه لمن الأصح القول إن عدم اتزانها النفسي، هو الذي قادها إلى حب جبران، إن عصاب ميّ هو نتيجة لموت جبران، في رأي الباحثين، ولكن السؤال الأول والأهم الذي يجب أن يطرح هوك يف تحب امرأة سوية النفس سليمة الأعصاب رجلا مالقيته وما عرفته؟ إن هواجسهاهي السبب الذي أدى بها إلى حب جبران، والتصدع نفسيا بعد موته"[٥].

إن علاقتها بجبران أنشأت بداخلها صراعا رهيبا مريرا بين العاطفة والعقل.. والخيال والواقع، وكانت ميّ دائماً تتطلع إلى المثل الأعلى، وحاولت هي نفسها أن تكون مثالية. تقول عن نفسها:"أنا امرأة قضيت حياتي بين قلمي ودولتي وكتبي ودراساتي، وقد انصرفت بكل تفكيري إلى المثل الأعلى وهذه الحياة "الأيدي الزم" التي حييتها جعلتني أجهل ما في هذا البشر من دسائس..".

---

[٥] د. مترى بولص: سبق الإشارة اليه، ص ٩٠ .

ورغم اصطدام ميّ بالواقع، فإنها لم تتنازل عن مثاليتها وتطلعها إلى عالم المثل فلم تستطع أن توفق بين الواقع والمثال، وليس أدل على ذلك من علاقة ميّ بجبران، إن ميا لم تعرف جبران، إلا بوسيلتين الأولى مؤلفاته فأبحرت فيها لمعرفة جبران الأديب والفنان والطريقة الثانية هي الرسائل – التي تبادلتها معه – وعن طريقها توهمت أنها عرفت جبران الرجل.. الإنسان.. وتوهمت ميّ أن جبران إنسان مثالي.. رغم علمها بنزعة الأنانية التي تعجزه عن الخروج من ذاته كإنسان وفنان بحيث يرى الآخرون أنفسهم فيه.. لأنه كان رومانسيا جانحا إلى العاطفة والخيال.. وبالتأكيد ليست الحياة كلها عاطفة وخيالاً.

لقد أحبت في جبران مثاليتها هي، ومثالية جبران في مؤلفاته ورسائله ومع ذلك قاومت، أرادت ميّ تحكيم عقلها في علاقتها معه، ولكن عاطفتها غلبت العقل والتعقل، وأرادت أن تواجه الواقع، ولكن الغلبة كانت للمثل الأعلى.. وجدت في طلب الحقيقة، ولكن الخيال قادها إلى حيث يلغي المنطق ويفرض اللامعقول. وعصاب ميّ هو النتيجة التي آل إليها صراعها مع ذاتها ومع الناس والكون، وهذا العصاب يتضمن من ظواهر الصراع مازاده حدة وألما، فمي، حتى بعد مرضها، لم تستسلم فظلت تصارع ا لمرض وتقاومه حتى صرعها في نهاية الأمر[٦].."

إن حالة ميّ النفسية كانت ثنائية قوامها طرفان متضادان أنها وحيدة في هذه الحياة، وكان بإمكانها ألا تكون وحيدة.. نعم عاشت وحيدة فمنذ الصغر اختطف الموت أخاها.. فترك في نفسها – وهي ما تزال طفلة – شعورا بالحزن والحسرة،

---

[٦] المرجع السابق: ص٩١.

ولكن موت شقيقها لم يصبح ذكرى أو ماضياً. وإذا رجعنا إلى كتابها "ابتسامات ودموع" الذي ترجمته لـ"ف. مكس مولر"، يطالعنا هذا الإهداء:

"إلى العينين اللتين أطبقهما الموت قبل أن ألثمهما إلى الابتسامة التي لا أعرف منها إلا خيالها، إلى الاسم العذب الذي لا تهمس به شفتاي دون أن تملأ عيني الدموع، إلى الطفل الذي رحل إلى خالقه، ويتّم في عاطفة الحب الأخوي، فحرمني من حنو الأخ وقبلته وابتسامته ودمعته.. إلى أخي الوحيد الذي تقاسمه الأثير والثرى "[٧] وأثر هذه الحادثة لازم مياً، تقول في "ابتسامات ودموع": والوعتاه عليك يا قلب الإنسان! إن أوراقك لتجف في ربيع أيامك والريش يتساقط عن جناحيك قبل الأوان!عندما يبزغ فجر الحياة في أفق النفس ينتشر فيه عبير الحب، نحن نتعلم السير والوقوف والكلام والقراءة لكننا لا نتعلم الحب، لأن الحب جوهر الروح وجميع قوى الروح تناديه بأصواتها المختلفة. وقوة الحب أهم أصل غرسته الطبيعة في أعماق الكيان، فكما تجذب الأجرام السماوية بعضها بالجاذبية الأبدية.. كذلك تجذب الأرواح المتآلفة بعضها بعضا وترتبط الواحدة بالأخرى برباط الحب الأبدي.. هيهات للزهرة أن تعيش بلا شمس، وللإنسان أن يحيا حياة عظيمة بلا حب. حنين الطفل أطهر أنواع الحب وأبعدها غورا وأشملها طبيعة، لأنه يحتضن العالم بأسره منسكبا على كل نظرة ودودة، ويهتز لسماع كل نغمة عذبة، وهو بحر عميق زاخر لا قرار له، وهو ربيع كنوز لا تقدر وخيرات لا تحصى، وكل من اختبر الحب عرف أنه لا يقاس ولا يكال ولا يوزن ولا زيادة فيه ولا نقصان، وإن الذي يحب صادقا يحب بمجموع

---

[٧] المؤلفات الكاملة: جـ ٢، ص٨١٦، ٩١٦ .

قواه وأفكاره. وقد رثت ميّ أخاها الذي مات طفلا بقصيدة بالفرنسية – نشرت في ديوانها زهرات حلم – عنوانها "نحيب" تقول في أحد مقاطعها:

أيها الطفل الذي رحل منذ زمن بعيد
أيها الأخ الذي صار ملاكا جميلا
اغفر لي صوتي المزعج الحزين
آه، كم أتمنى أن ترجع إلى، دون إبطاء
وتسترد ذلك الثوب النضير
ثوب الطفولة والحياة
لتنظر إليّ، بضع لحظات[٨]!.

وأشار الشاعر "خليل مطران" في قصيدة له بعنوان "إلى ميّ" إلى حزنها العميق على فقد أخيها.. قائلا:

ذكرى. وأية ذكرى لمن تولّي فقّرا ولم يزل يبكيك
ذكرى شقيق رثيت فعاش، ما كل ميت بالراحل المتروك
كم استعدت سناه فراعنا أن نراه

وثمة سبب مهم أذكى عوامل الصراع النفسي في نفس ميّ.. هو نشأتها الدينية، فقد انتزعت من "الناصرة " مسقط رأسها، لتتعلم في مدرسة الراهبات بعينطورة.. وإذا كان لتلك النشأة وجه مشرق تجلي في تعليم وتثقيف ميّ وإحرازها

(٨) الترجمة من إعداد سلمى الكزبري، انظر مقدمة المؤلفات الكاملة لميّ، ص ١٨

نجاحا ما كانت تحرزه إن لم تلتحق بمدرسة الراهبات – إلا أن هناك وجها معتما مرده ابتعاد ميّ عن أسرتها، فشعرت بالألم نتيجة هذا الإقصاء وزاد من هذا الألم أنها لم تجد في مدرسة الراهبات ما يغنيها عن البعد عن الأهل، فعاشت تلك المرحلة مع زميلاتها متجاورة جسديا معهم، متفرقة روحا عنهم.. لقد وجدت نفسها بين جدران صماء صفيقة في حبس حبس النساء المتبتلات، ولو أنها أخذت في صباها بضرب من الحرية والمرح لأمكنها أن تقاوم محنتها وتقهرها.. إن تلك الفترة التي قضتها في مدرسة الراهبات قد كونت شخصيتها الوجدانية ونلمح هذا من خلال مذكراتها في تلك الفترة وذكرياتها عنها.. فعاشت حياتها ميالة للحزن والكآبة والابتعاد عن الجماعة وطلب الوحدة والانسياق وراء التأمل والخيال والتطلع إلى عالم مثالي نقي.. وشغف بالأدب والقراءة والموسيقى.. لقد صدقت حين قالت: "ما مر بي يوم إلا زدت اعتقادا أن ما نراه ونشعر به، ونختبره في الحداثة إنما هو، هو ما نشهده متتابعا من عالم إلى عالم ولكن بصورة أكبر.. في ميدان العالم الوسيع".

وخرجت من مدرسة الراهبات وقد ترسب في أعماقها أثر ما تعلمته.. تقول : "لست بمدافعة عن مدارس الراهبات لمجرد الدفاع، ولكني تربيت فيها سنوات أربعا فاختبرتها بنفسي، لم أجد فيها العيوب.. بل ما يناقضها على خط مستقيم، منها الترفع الكثير عن الدنايا، والجري وراء أعلى.. قلما يتراءى في سبل الحياة العادية ورفع النفس إلى ما وراء المرئيات أو الإكثار من الصلاة والتطرف في العبادة مما يؤهل الفتاة لاعتناق الحياة الرهبانية، فتظل مدة بعد رجوعها إلى البيت حائرة في دوائر الهيئة الاجتماعية، غريبة بين هؤلاء البشر الذين يجهلونها ولا

تفهمهم.."[9]وهذه الغربة رافقتها طوال حياتها.. وهذا ما لفت نظر الأستاذ عباس محمود العقاد.. يقول: ".. وقد كنت –كلما ازددت معرفة بميّ وبحياتها في ندوتها وفيبيتها – أشعر بحنان هؤلاء الأفاضل الأبويين نحوها فإنهم ولا ريب كانوا يقصدون التسرية عنها ويدركون من بواكير صباها أن فرط التزمت في طويتها يجاوز حدة المأمور، وأنها يوشك أن تعاني كثيرا من عادة العزلة النفسية التي جنت عليها في أخريات أيامها، وأنها تغالب شجناً كمينا لانطوائها الشديد على ذاتها، تميل إلى أنه مزيج من الصدمة العاطفية وشعور التبتل العميق في سليقتها الدينية"[10].

يقول الأستاذ حافظ محمود: "هناك سر لم يتعرض له الذين كتبوا الكتب والمقالات عن "ميّ" وهو أن رحلة أبيها إلى مصر، كانت تخفي سببا صحفيا يتصل بابنته "ميّ"، وهذا السر يتلخص في أن شابا من شباب بلدتها قد أخلف وعده لها بالزواج، ويبدو أنها كانت تحبه حب الطفولة التي لا تحمل مثل هذه الصدمة.. فجاء بها أبوها إلى مصر ليباعد بينها وبين جو هذه النكسة كله، وشجعها على أن تمارس في القاهرة كل هواياتها الأدبية، وهو لايدري أنها كانت تطوي في هذه الأعماق على العقدة النفسية، التي كانت تجعلها كلما اقتربت من الرجال تبتعد بأعماقها عنهم"[11]!

---

[9] د. بولص: مرجع سابق، ص ٨٦.

[10] مجلة الهلال: القاهرة، مارس ١٩٦٤.

[11] عمالقة الصحافة:سبق الإشارة إليه، ص١١٦، ١١٧.

وإني لا أتفق مع الأستاذ حافظ في ما ذهب إليه لعدة أسباب منها: أن ميا قد خطبت لابن عمها "نهوم زيادة" وهي خطبة شكلية، ويبدو أنها كانت رافضة لهذه الخطبة، والدليل على ذلك أنها فسختها.. ومما ذكره الأستاذ حافظ أن الشاب "ابن عمها" هو الذي أخلف وعده لها بالزواج وفسخت الخطبة قبل نزوح أسرةميّ إلى القاهرة.. وهذا غير صحيح، لأن فسخ الخطبة من ابن عمها جاء بعد فترة وجيزة من إقامتها في مصر مع والديها.. ويبدو أن فسخ هذه الخطبة كان من بوادر خلاف ميّ مع والدتها، فوالداها رغبا في أن تتزوج ابن عمها ضمانا للأرض التي يشاركهم فيها أبوها، فلا يأخذها منهم غريب.

ولم ينته صراعها بغية حريتها في اختيار شريك حياتها، فاستمر إلى ما بعد ذلك، تقول في إحدى رسائلها إلى يعقوب صروف: "يزعجني الكلام في مسألة الزواج إذا كنت أنا السبب والموضوع، ولكني على رغم ذلك أقول لك إني أرى الأمر على عكس ما تراه والدتي فلا نتفق في ذلك مطلقا، شروطها أن يكون غنيا صحيحا ذا مركز حسن.. وأنا.. لا يهمني الغني ولا المركز الاجتماعي حتى ولا العائلة.. أنا أقدس الحياة العائلية وأحترم الزواج، وأود إيجاد السعادة في بيت أدخله، وزيادة أسباب رغده وعظمته وإيقاد شعلة الفكر فيه، لأن في ذلك حياتي وسعادتي.. فالشرط الأول عندي هو التفاهم، لأن به السعادة، وبدونه الشقاء، لكن والدتي تظن أني مع الزمن سأغير أفكاري، وهذا ما نراه في المستقبل، لكني أعتقد عكس ما تظن.. لن أتزوج قط على غير رضي والدي، ولكني أحفظ لنفسي حق الرفض، فقد ترى والدتي رجلا جامعا في نظرها لجميع الصفات من جمال وغني وصحة ومركز اجتماعي، وأنا لا أشعر نحوه إلا بقليل من الإشفاق الباسم،

وكل ما أطلبه ساعة ألا يرضيني من يعجبها هو أن أترك وشأني سعيدة وسط كتبي وأوراقي".

لقد عاشت كقمة الجبل الأشم.. ضاربة بعيدا إلى عنان السماء.. فعاشت في عالمها الخاص منفردة.. في عالم صنعته من مواهبها وطموحها وذكائها.. ورغم تفردها وميلها للوحدة، لكنها لم تحتقر الآخرين،بل كانت ترتاح إلى أحاديثهم، وتطمئن نفسها إلى نفوسهم، وتجد متعة في مجالستهم. وترى السيدة إيمي خير أن الناحية العاطفية الجنسية كانت سببا من أسباب شقاء ميّ، فلقد كانت فتاة تأمل أمل الفتيات، وتحلم أحلام البنات، ولكن الأقدار باعدت بينها وبين الزوج الذي يسعدها، والبيت الذي يؤنسها، أي بيت الزوجية والأطفال الذين يجعلون للحياة قيمة من حولهانعم حرمتها الأقدار ذلك كله، وهو شاق على كل امرأة، عسير على كل فتاة سألتها مرة عن صحة أبيها وأمها، فقالت في لهجة فهمت كل شيء وأدركت كل معنى: "ليس لهما غيري وليس لي غيرهما.. " آه كانت كلمات قصيرة تحمل معاني كبيرة.. ولم تكن هانئة حتى على المجد الذي أحرزته، والعرش الذي أحتلته، إن في الحياة معاني عميقة، وكلما بعد الإنسان عن فهم هذه المعاني وأدركها على وجهها الصحيح زادت متاعبة ونغصت أيامه وساعاته.

لقد ضحت ميّ بكثير من حياتها وما أعظم ما ضحت به!.. ضحت بشبابها اللامع الوضيء وذكائها المتوقد الملتهب، وقدمتهما إلى الحياة قربانا خالصا.. فكانت حياتها أشبه بالأسطورة الرومانية القديمة عن الربة فستا **vesta** والبنات اللائي كن معها ضحية الشباب واسمهن في الأسطورة فستال **vestais**: "لقد كن ضحية الشباب النضير فلم يتزوجن ولم يتعلق قلب واحدة منهن بهوي، وقضين

حياتهن منشغلات بإشعال نار مقدسة سماوية وإمدادها بالحطب الجزل حتى لا تنطفئ فإن في انطفائها خرابا لمدينة روما".. وكذلك كانت ميّ، كواحدة من هؤلاء الفستال.. كانت تجد في الأدب تسلية وملهاة، ولم تجد فيه تعزية، وفرق كبير بين التسلية والتعزية.. أي شيء كان يعزي ميا عن آلامها المشتعلة؟ وأي وسيلة كانت تجد فيها ميّ العزاء عن آلام الزمان والمكان؟! [١٢].

وقبل تدهور صحتها زارها صديقها الأستاذ طاهر الطناحي – وكان من المقربين إليها – فلمح من حديثها التشاؤم والحزن، ثم سألته هل تعرف تفسير الأحلام؟ فقال ولماذا؟ هل رأيت حلما؟ قالت: "إني رأيت حلما مؤلما، وقد نهضتمن نومي حزينة خائفة.. رأيت ليلة أمس سيدة مقبلة على ملتحفة بالسواد، فلم أتبين من هي، حتى إذا اقتربت مني صرخت قائلة: "أمي"..! فبكت، ثم أقبلت نحوي تضمني إلى صدرها وتبكي، فبكيت لبكائها، وقلت: "مالك يا أمي"؟ فأجابت: "آه يا عزيزتي ميّ! فقلت: "هل سأموت يا أمي؟ فلم تجبني واستيقظت من نومي فازعة من هذه الرؤيا، فهي أول مرة أرى فيها والدتي بعد موتها، وتشاءمت، واعتقدت إما أني سأموت قريبا، أو يصيبني مرض شديد، وتقاطرت الدموع من عينها.. وقالت: "إني لا أخاف الموت ولا أخشاه، إن وراء الموت وجودا غير ملموس يدعي السعادة، وإني أشعر باحتياج محرق إلى التعرف إليها والتمتع بها".

غير أن مي لم تقطع الصلة بالناس فجأة، وإنما قطعت حبال وصالها تدريجيا، فكانت تحدد لقاء الأصدقاء، وأحيانا تمتنع عن لقاء آخرين، كذلك لم تنقطع عن التأليف من عام ١٩٣٠م – ١٩٣٥ (كما أشار الأستاذ محمد

---

(١٢) محمد عبد الغني حسن: مرجع سابق، ص ٢٠٠.

عبدالغني حسن في كتابه "مي أديبة الشرق والعروبة").. فقد ظلت تكتب وتنشر ما تكتبه، ولكن بصورة قليلة فنشرت بمجلة "المقتطف" عام ١٩٣٤ مقالا بعنوان "فضل المرأة"، وفي مجلة "الرسالة" عام ١٩٣٥ نشرت مقالا بعنوان "كلمات في الصداقة" وفي العام نفسه نشرت في مجلة "الرسالة" قصيدة عاطفية بالفرنسية بعنوان "ارتياب"، ونقلتها إلى العربية.. وخصصت جائزة للشاعر الذي ينقلها نظما.

ونتيجة لاضطرابها ويأسها لجأت إلى التدخين علها تجد فيه تسرية عن همومها واكتئابها، وحاولت الخروج من عزلتها ومغالبة الأسى، فقامت برحلتين إلى أوروبا الأولى في صيف ١٩٣٢، والثانية في صيف ١٩٣٣، ولكن الحزن الذي استبد بنفسها كان أكبر من محاولاتها للتخلص منه، فانهارت أعصابها، وكان لتدخل ورثة أسرتها في شئونها الخاصة وإلحاحهم في مقاسمتها التركة أبلغ الأثر في تردي صحتها، وقد وجدت نفسها أمام جشعهم وتدخلهم في شئون حياتها وحيدة.. لا سند يحميها ولا قانون، لأن البنت عند المسيحيين لم تكن تحجب العصبات آنذاك، لا في مصر ولا في لبنان واستنجدت ميّ بأبناء عمومتها المقيمين في لبنان، فكتبت إلى ابن عمها فؤاد زيادة في شهر حزيران عام ١٩٣٥ تبدي رغبتها في العودة إلى لبنان وتكلفه بأن يبحث لها عن منزل هادئ تقيم فيه بلبنان.. وفي الثامن والعشرين من شهر أيلول من العام نفسه كتبت رسالة مطولة إلى دكتور جوزيف زيادة تصور له مرضها ويأسها من الحياة، وباحت بلواعج نفسها له فقد كانت تثق فيه لكونه غير وارث لأبيها تقول ميّ في تلك الرسالة:

"عزيزي جوزيف.. منذ مدة طويلة لم أعد أكتب.. وكلما حاولت ذلك شعرت بشيء غريب يخمد حركة يدي ويشل الفكر لدي، إني أتعذب أشد

العذاب يا جوزيف، ولا أدري السبب فأنا أكثر من مريضة، إني لم أتألم أبدا في حياتي كما أتألم اليوم، ولم أقرأ في كتاب أن في طاقة بشر أن يتحمل ما أتحمل.. إنهناك أمرا يمزق أحشائي ويميتني في كل يوم بل في كل دقيقة.. لقد تراكمت على المصائب في السنوات الأخيرة، وانقضت على وحدتي الرهيبة، والتي هي معنوية أكثر منها جسدية، فجعلتني أتساءل كيف يمكن لعقلي أن يقاوم عذابا كهذا؟ وكان عزائي الأوحد في محنتي هذه مكتبتي ووحدتي الشعرية، فكنت أعمل كالمحكومة بالأشغال الشاقة لعلى أنسي فراغ سكني، أنسي غضبة نفسي، بل أنسي كل ذاتي.. إنه ليدهشني حقا كيف أني استطعت أن أكتب هذه الرقيمة، ولعل الفضلفي هذا يعود جزئيا إلى "اللفائف" التي أدخنها ليل نهار – أنا التي لا عهد لي بذلك – أدخنها لتضعف قلبي، هذا القلب السليم المتين الذي لا يزال يقاوم وأسلم لابنة عمك.. ماري".

فهل تعد تلك الرسالة اعترافا نفسيا من ميّ بما تعاني في حياتها؟ وهل غالت في التعبير عن محنتها بقولها: "لم أقرأ في كتاب أن في طاقة بشر أن يتحمل ما أتحمل؟ لقد سمت "ميّ" حزنها واكتئابها "بالمحنة"، ويالها من تسمية فضفاضة جعلت الناس يفسرونها كيفما شاءوا حسب أهوائهم.

ونتساءل.. هل كانت تلك "المحنة" من تأثير الوهم الذي أوحي إليها أنها مريضة؟.. لا أظن هذا.. فمي ليست من ذلك النوع الذي يقع ضحية وهم مرض أو محنة.. فبوادر تلك "المحنة" بوادر حقيقية ملموسة.. لقد وجدت أقرب الناس إليها وهم أهلها يطمعون في مالها الذي يعتبر عصب حياتها في تلك المرحلة من حياتها التي ذبل فيها كل شيء.

إن رسالتها السابقة لم تؤثر في قريبها، ولم تحثه على الحضور إليها.. وفي مطلع عام ١٩٣٦، حضر إلى القاهرة الدكتور زيادة، فوجدها في حالة سيئة.

مفرطة في التدخين، متدهورة الصحة، تقول ميّ عن هذا القريب: "أجاء ليساعدني ويخفف من مصيبتي؟ هذا ما يزعجه، على أن الحقيقة هي أنه هرع ليستكشف أعمالي ، ويقف على سرائر مصالحي وشئوني فيستولي على كل شيء في حياتي، وكان أن خاطبني برقته المألوفة في تعيينه وكيلا عني، ليخدمني ويطمئن بالي، فأجبت بألا أملاك لي في مصر وأن أعماليالمالية منظمة تنظيما لا يحرجني إلى مساعدة أحد فألح وقال:"فكري بهذا إكراما لي"، قلت: "سأفعل وإن لم يكن هناك ما يدعو إلى التفكير"، وبعد هذا بيومين جاءني مع رجلين من أنسبائي كانا يلازمانه في بيتي وفي الخارج طول مدة إقامته في مصر يتبعهم "باشكاتب محكمة عابدين" ووكيله – على ما قيل – وفتح "الباشكاتب" دفترا كبيرا جدا على سريري، وسحب الدكتور زيادة قلم الحبر وقدمه لي طالبا مني أن أوقع في الدفاتر، أي تأثير سيطر على في تلك الساعة؟ كيفلم أعجب لمجيء الباشكاتب دون أن أستدعيه وكيف لم أرفض التوقيع؟ لست أدري.. بحركة ميكانيكية تناولت القلم ورفعت نظري إلى الباشكاتب أستفهم عن المكان في الدفتر حيث أكتب اسمي، فنظر إلى نظرة طويلة كأنما هو عالم بما سيجره على هذا التوقيع من المصائب، ثم أشار إلى مكانين اثنين فوضعت توقيعي مكررا: مي زيادة وتحته:"ماري زيادة"[١٣].

---

(١٣) ملحق جريدة النهار، بيروت، ١٩٦٥/١٠/٢٤، وأنظر رسائل ميّ، دار بيروت، ١٩٥١.

هذا ما روته ميّ لأمين الريحاني باللفظ والحرف، أواخر كانون الأول عام ١٩٣٧ ودعاها قريبها الدكتور زيادة لتغيير الهواء في لبنان والمكوث فيها لمدة أسبوع، ولكن هذا الأسبوع امتد.. وألحت عليه ميّ بالعودة إلى القاهرة فلم يرض.. وفجعت أديبتنا في ذلك الإنسان الذي وثقت فيه، فكان من المتربصين بها.. فبعد أن أخذ منها توكيلا عاما لإدارة ممتلكاتها أخرجها من بيتها.. لالتعود إلى مصر، بل لتذهب إلى مستشفى الأمراض العقلية والعصبية، المعروف باسم "العصفورية".

وقد ثبت للباحثة "سلمي الحفار الكزبري" في بحثها عن مأساة ميّ أن الدكتور زيادة استضافها عنده من الرابع من شهر آذار عام ١٩٣٦ (وهو تاريخ دخولها مركز النافورة استنادا إلى الختم الظاهر في جواز سفرها) [١٤]حتى السادس عشر من شهر أيار من العام نفسه. أما ما حدث بعد ذلك فقد روته ميّ لصديقها أمين الريحاني في أواخر كانون الأول ١٩٣٧م بعد أن نقلت من مستشفي العصفورية. "سألها الريحاني: – وكيف رضيت بالذهاب إلى العصفورية؟ – أنا رضيت؟ إنهم جاءوا بيإلى هنا لهذا الغرض (تقصد أنهم أتوا بها إلى بيروت لإدخالها مستشفي العصفورية).. والدليل أنهم منذ الأسبوع الأول أحضروا مدير العصفورية، زاعمين أنه مستشرق إنجليزي وظل المستشرق المزعوم يعود المرة بعد المرة وتكلم في الشعر والأدب الإنجليزي غالبا طيلة الفترة التي استبعدوني فيها عندهم، لا لتحيطني العائلة بمحبتها كما يقولون بل لغايات يعرفونها هم، ولما كنت قد أضربت عنالطعام أياما في مصر احتجاجا على الدسائس التي أخذوا

---

[١٤] مقدمة المؤلفات الكاملة: جـ١، ص ١٥.

يحيطونها حولي وخوفا من أن يدس لي في الطعام الدواء المؤذي (وخوفي هذا لم يكن في غير محله)، كذلك عدت وأضربت عن الطعام احتجاجا على الفظائع التي ترتكب في معاملتي واحتجاجا على سرقة قطعا من المصوغات القليلة التي جئت بها معي من مصر، واحتجاجا على تشريدي من بيتي والحجز على مالي وعلى حريتي، وجاء الطبيب المعالج في العصفورية، تصحبه ممرضة وكانت هي أول مرة خرج فيها طبيب إلى بيت مريض، ليحمله إلى المارستان وعندئذ حنان أقاربي ووفاؤهم وحرصهم على صحتى وكرامتي، كلها ظهرت في أجلي المظاهر إذ كتفني طبيب العصفورية بجاكيت المجانين تساعده الممرضة، ونفحني بإبرة مورفين بساقي وأنا أصيح من فرط الوجع وأستغيث.

وآه يا بيروت؟ كيف احتملت أن أجتاز شوارعك في ذلك الموكب المشين الأليم؟ كيف احتملت الدموع التي سكبتها في تلك السيارة، وأنا بين الطبيب، وتلك الممرضة أشعر بوحدة رهيبة في الدنيا، وأرى القدر المروع المعد لي دون أن أدري لماذا؟

بحجة التغذية وباسم الحياة ألقاني أولئك الأقارب في دار المجانين أحتضر على مهل وأموت شيئا فشيئا.. لست أدري إذا ما كان الموت السريع هينا أم الموت البطيء طيلة عشرة شهور وأسبوع مع التغذية القهرية تارة من الفم بتقطيع لحمة الأسنان، وطورا من الأنف بواسطة التبريج ليصب من الداخل، نزولا إلى الحلق فالصدر، فذلك موت لا أظن أن إنسانا يحتمل الإصغاء برباطة جأش إلى وصفه، ومع ذلك فكان أقاربي في زياراتهم النادرة يستمعون إلى بسرور، وأنا أصف شقائي راجية منهم عبثا أن يرحموني ويخرجوني من العصفورية".

وسألها أمين الريحاني: وكيف مصر؟

تأوهت ميّ ومضت تقص عليه قصتها من أولها، فذكرت ما عراها من الهم والوحشة بعد وفاة والديها وسياحتها في أوروبا وبعد ذلك:

وعندما ذكرت زيارتها لأكسفورد، ذلك المعهد العلمي الشهير، تذكرت مقالاتها في "الأهرام"، وصفت فيه تلك الزيارة، فاستجلت ذكراها، إلا أنهالم تقف عندها فقد تنبهت إلى ألم المهنة المهجورة.. وذكرها (الأستاذ أمين) بمكتبتها النفيسة التي كانت السبب في كثير مما أصابها ذلك أنها عزمت على إهدائها إلى الأمة المصرية بعد وفاتها (على أن تتمتع بها طول حياتها) اعترافا بفضل مصر عليها، كما أرادت أن تهدي النسخ المزدوجة من كل كتاب (وعندها منها عدد غير قليل) إلى الأمة اللبنانية، ففاوضت بعض رجال القانون، مستعملة الإجراءات اللازمة، لإتمام هذه الوقفية. فوصل الخبر إلى أقاربها في مصر وفي بيروت، فقامت الدسائس من كل صوب، إلا أنهم أوفدوا لها رهطا من الرجال والنساء يحيطونها بمظاهر الصداقة ويقسمون على الأمانة والإخلاص، وهم في الواقع يضربون نطاقا عليها ويشيعون عنها بين الناس ما يتناسب ومصالحهم، وبعض ذلك الرهط يطمع في التوكل عنها(١٥).

وظلت في مستشفي العصفورية سبعة أشهر، عذبت وضربت حتى نقص وزنها إلى ٢٨ كيلو جراما وأضربت عن الطعام، فغذيت عن طريق الحقن والأنابيب، وأشاع أهلها وأصدقاؤها أنها جنت فلم يتقدم أحد من أصدقائها لمساعدتها، رغم أن الصحف كانت تنشر أخبار الإشاعات التي تصدر بشأنها..

---

(١٥) ملحق جريدة النهار، بيروت، ٢٤/١٠/ ١٩٦٥.

وقد أحست من خلال نكبتها بخيانة أقربائها وأصدقائها لها، فلم يكن رفضها الطعام إلا رفضا واحتجاجا لخيانة لم تتوقعها وواقع مؤلم بغيض فرض سطوته عليها بالقوة على حين غفلة.

إن المأساة التي عاشتها ميّ في الحقيقة كان سببها الطعن في عقليتها واضطهادها، دون علم أولي الأمر في الحكومة اللبنانية، حتى علمت الصحافة الأدبية، وشنت حملة عنيفة غرضها إنصاف ميّ..

وفي العدد ١٣٥ من جريدة "المكشوف" الصادرة في ٧ شباط ١٩٣٨ نجد صورة حية للدفاع عن ميّ، فنقرأ في باب "من حقول الصحف" عنوانا رئيسيا كبيرا "الأديبة ميّ! من هو المجرم ؟".. تقول الجريدة:

".. وأخيرا استطاع "المكشوف" أن يلفت أنظار الأدباء ورجال القضاء إلى المؤامرة التي وقعت الأديبة "مي" في شباكها، بفضل حملة قام بها في هذا السبيل دامت أربعة شهور.. وقد لاقي "المكشوف"، من أجل الكشف عن هذه الدسيسة ما تلاقيه كل صحيفة حرة من تهديد ووعيد، ولكن الوعيد والتهديد لم يتبطأ عزيمتنا فمضينا عن طريق الحق فقد اتصل أمر الدسيسة بالنيابة العامة.. فأجرت تحقيقا في الحجر على حرية الأديبة الكبيرة، وأمرت بنقلها إلى المستشفي الأمريكي حيث تعيش في جو مشبع بالعطف، بعيداً عن أي ضغط، وحيث زارتها لجنة من الأطباء لتقرير مصيرها، فكان تقريرهم في غير مصلحة المغرضين.. وقد لفتت هذه الضجة التي أثرناها حول مأساة "ميّ" الصحف اليومية الكبرى، فراحت تتحدث عن تطورها حديثا سيكون له أثره الطيب في إنقاذها من محنتها، ولو أنه جاء متأخرا.

وفي مقدمة هاتين الصحيفين "الحديث" و"صوت الأحرار" اللتين ننقل عنهما بعض ما نشرتاه في هذا الصدد:

الصحافيون كرهي لهؤلاء أشد، يوم نشروا خبر جنوني، وأوجدوا عند الناس في الشرق وفي الغرب فكرة بل اعتقادا بأن "ميّ" مجذوبة، ولو أن إساءاتهم لي اقتصرت على ذلك لهان الأمر، ولكن هناك ما هو أمر وأفظع.. أنا صحافية، وبنت صحافي، ولقد كان على الصحافيين في لبنان، إن لم يكن إكراما لي بل إكراما لوالدي، أن يبدوا شيئا من الاهتمام، أو شيئا نحو زميلهم وابنة زميلهم، أن يسألوا عنها أو يقوموا بزيارتها عندما سمعوا بخبر عنها لمعرفة مبلغ ما في هذا الخبر من الصحة.

إنكم معشر الصحافيين تتحرون الحقيقة في كل مكان! إنكم تهتمون بالرجال، وما يقولون والنساء وما يلبسن، إنكم تبحثون أحيانا عن أتفه المواضيع وتخرجونها إلى قرائكم أنتم يا زملائي وزملاء والدي لم يوجد واحد يسأل عن "ميّ"، ويتحري حقيقة جنونها لم يوجد أحد بينكم يفكرفي زيارة هذه الأديبة، الصحافية النابغة، التي تخنق الأطفال وتكسر الحديد!! وقد تقولون إن هذا الذي أشيع عني كان كحقيقة راهنة عندكم، فلم تشأوا زيارتي حتى لا تحزنوا على مصيري.. قد يكون ذلك صحيحا ولكن هذا "الاعتقاد" وتلك "الشفقة" لا ينبغي أن تضعا حجابا من الإهمال والنسيان بين الصحافيين والأدباء وبين زميلتهم "ميّ".

إن "ميّ" لا أهل لها، إن ربي وأهلي هم الصحافيون، هم الأدباءهم رجال القلم، أفما كان يجدر بكم أن تحيطوني ببعض العناية عسى أن تخففوا عني وطأة الجنون! أنا التي أكسر الحديد، وأخنق الأطفال.

أين رجال الأدب في لبنان؟ أين رجال القانون؟ أين الجمعيات النسائية؟ أين نصيرات المرأة؟ ألم توجد بينهن واحدة تدافع عني أنا التي قضيت السنين الطوال أدافع عن حق المرأة، ووقفت قلميعلى خدمة بنات جنسي، ورفع مستواهن ورد الظلم عنهن؟

أجل أين هؤلاء وأولئك؟ بل أين لبنان، لبنان الذي طويت ضلوعي على حبه، لبنان الذي تغنيب في الجرائد والكتب والمجلات ومن فوق المنابر، بجماله، بجباله، ببنيه، لبنان الذي ما حلت به محنة إلا انهمر الدمع من عيني، لبنان هذا لم يوجد فيه واحد يبكي على محنتي التي انطوت على محن كثيرة.. تلك هي مكافأة لبنان لابنته ميّ: إهمال مفجع، وتغاض مخجل عن أحط مؤامرة جاءت بي من مصر، وألقتني مدة سبعة شهور في العصفورية أتفرج في النهار على مواكب النساء العاريات، وأسمع ألفاظا ما كنت أعلم أنها موجودة، وأن في البشر من يتلفظ بها وأسمع في الليل عواء الذئاب.. أسمع وأرى كل هذا، وليس هناك من يسمع صوتي أو يرى محنتي فيبادر إلى إنقاذي.. سبعة أشهر قضيتها في العصفورية في لبنان، على هذه الحال، وفي تلك الغمرة من الألم واليأس والعذاب، دون أن يهتز عرق بالشفقة أو لسان بالسؤال.. ولهذا اسمحوا لي أن أقول بكل ألم، وبكل أسف وخجل أيضا أني كنت أردد، وأنا على تلك الحال في كل يوم وفي كل ساعة: لعنة الله على لبنان.

وهنا بكت ميّ بكاء ممزوجا بالألم والحقد، ثم مدت يدها إلى تحت الوسادة فأخرجت منديلا ومسحت به دموعها، وبعد أن سكنت آلامها قليلا استأنفت الكلام فقالت: – نعم لقد كنت ألعن وطني، وعندما يلعن المرء من

يحب يكون الألم واليأس قد برحا به، ولكن هل يكفر عن إساءته إلى ميّ؟ وهل يعيد إلى ضلوعها أقدس ما كانت تنطوي عليه وهو حبها للبنان؟

أشد ما أثر في نفس ميّ هو تخلي أصدقائها من الأدباء عنها.. وكانت بالأمس القريب حديث الأدباء في المجالس وكانت الوحي والإلهام لهم، وكأن "ميّ" بدخولها العصفورية أصبحت نسيا منسيا.. وتفاجأت الأوساط الأدبية، بنبأ خطير نشر في الصحف، وقتذاك مفادة أنها تتمتع بالصحة التامة، وما الجنون المنسوب إليها سوى زعم باطل ومؤامرة خبيثة، فقد تقدم المحامي وكيل ميّ بعريضة إلى وزارة الداخلية بلبنان يقول فيها: "إن ميّ زيادة صحيحة العقل وأن نسبة الجنون إليها عمل يخفي وراءه أشياء وأشياء، وطلب المحامي تأليف لجنة طبية لفحص الكاتبة الأديبة توصلا إلى التثبيت من سلامة عقلها ومنحها الحرية التامة التي يتمتع بها الجميع".

ولم تفتر عن الإلحاح في طلب أطباء غير أطباء المستشفى، لعلهم ينقذونها غير أن هناك رجلا شهما لبنانيا هو "مارون غانم" رفض تصديق تلك الإشاعات عن "مي"، وكان يعمل تاجرا بفلسطين وكان من المعجبين بأدب ميّ.. فأبى على نفسه ألا يعود إلى عمله إلا بعد إنقاذها، ونجحت مساعيه، لكن مي انتقلت من سجن إلى سجن وكان هذا السجن الجديد هو مستشفي الدكتور نقولا ربيز ومكثت فيه عدة أشهر.. رفضت خلالها أن تقابل أحدا من أصدقائها الذين سألوا عنها متأخرين.

ولما عاد الأديب أمين الريحاني من أمريكا، وعلم بما حدث لميّ، سارع إلى زيارتها وقام هو والأستاذ غانم بحملة قضائية بمؤازرة آل الأيوبي وآل الجزائري

الذين عرفوها في المستشفى، وتطوعوا للتخفيف عنها مدفوعين بشهامتهم وحبهم للأدب والحق.

هؤلاء جميعا جعلوا من قضية ميّ قضيتهم وقد آلت تلك الإجراءات القانونية..إلى نقل ميّ من (مستشفى الدكتور ربيز) إلى (مستشفى الجامعة الأمريكية) في ١٩٣٨/١/٢٢ حيث قضت بها ثلاثة أسابيع انتقلت بعدها للإقامة في بيت صغير في رأس بيروت "نزلة أبو طالب" استأجره لها هؤلاء المنقذين في ١٩٣٨/٢/١٤.

وقد يتبادر إلى الذهن أن الأزمة التي عانت منها الكثير من المتاعب والآلام، قد انتهت، ولكن أهلها صعدوها برفع دعوى حجر عليها في بيروت في ١٩٣٧/٢/١٧م ودعوى مماثلة في مصر أمام المجلس الحسبي، لكونها تحمل الجنسية المصرية.

ومن عجب أن "الحجر" الذي أقيم عليها لحرمانها مالها وحريتها، قد نفذ قبل أن يبت القضاء في الدعوي، والقانون لا يطبق مثل هذا الحجر إلا على الذين فقدوا عقولهم أو كانوا قاصرين أو معتوهين، فكيف سرى حكمه على ميّ التي لم تكن مجنونة ولا مسرفة ولا خرفة؟ وكان من الطبيعي بعد أن ترادفت عليها الأحزان والأعوام، وغدت وحيدة غريبة، أن ترى الحياة مظلمة، وأن تشعر بأن كرامتها مهددة بعد أن شاعت الأقاويل بشذوذها، وكأن السويداء التي أصابتها لم تعرف عند غيرهم ممن يعيشون بيننا وفي مجتمعها، فكم نرى من شذوذ الأدباء والحكام في المعاملة والسلوك، وكم يبدو منهم في الصباح والمساء من مفارقات في الانحراف وفي انتفاض الأعصاب وجنوح الطباع والعادات، فهل راح أهل

هؤلاء من ورثتهم يقيمون عليهم الحجج الواهية لحجب أموالهم عنهم؟ وكيف لا تغضبميّ لحقها وكرامتها، بعد أن حجزت حريتها التي كانت تؤثرها على الزواج؟ ولقد ازداد غيظها بحجب مالها عنها فأخذت تستدين لتسد خصاصة العيش.. وعادت إلى هدوئها بين زوارها وقد عادت إليها طبيعتها في الحديث والانطلاق ولا يكاد زائر يأتي على الإشارة إلى هذه القضية حتى يتجهم وجهها وتثور آلامها وتقيمها الكلام بهذا الشأن ويقعدها، ولو حللنا الطبيعة الإنسانية لوجدنا أن لكل إنسان ثورة غضب وهياج أعصاب كلما أو ذيأو أسيء إليه، وهل كان ينتظر منها الاستكانة وقبول المهانة لكيلا تتهم بالشذوذ والجنون؟[١٦].

وانتظرت أديبتنا بلهفة عودة حريتها التي اغتصبت منها، لإمساك مالها عنها.. وتجددت محاولات منقذيها.. وصارت تلح على عودتها إلى ضفاف النيل.. علها تجد الهدوء والراحة.. وجاءها الجنرال "مارتان" كبير الأطباء بلبنان في ذلك الحين.. جاءها زائراً وعاينها متفهما شكواها، ولما رآها سليمة الفكر والإحاس وأن الذي تشكوه لم يكن إلا ظلما ووهما، كتب وثيقة بما عاين وتأكد منه وهذا نصها: "لقد تبينت أن الآنسة ميّ زيادة تعيش في منزلها حياة عادية فتهتم بالمسائل البيتية، كشراء الأغراض التي تدون حسابها حسابا دقيقا وأن مصاريفها تتناسب مع مدخولها وهي تقوم بأعمال أدبية وتهيئ مؤلفا عن الفينيقيين في قصائد هوميروس..إن مستنداتها من هذا القبيل محبوكة بمهارة وهي تستقبل أصدقاءها، والجو، الذي تسير فيه الأحاديث هو جو طبيعي هادئ بالنظر لشخصية الآنسة "ميّ".

---

[١٦] ودادا ساكيني: مرجع سابق، ص ١٩٢ .

إن المحادثات تدور حول المواضيع المختلفة، وتشترك فيها الآنسة ميّ بسرعة خاطر وبفرنسية أنيقة، إن الآراء حسب التأثيرات والأحكام والتعاليل حسب استشهادات حسنة الاختيار دائما.إن مزاجها يقظ ومرح، ولكن الآنسة لا تشكو إلا من قلة مدخولها الناتج عن دعوي الحجر، لأنها لا تستطيع سحب مالها من المصارف وتحس الآنسة ميّ بألم مبرح، عندما تسمع كلمة تذكرها بالحجر عليها الذي لا ترى له مبرراً وهذه انعكاسات طبيعية بعد الشفاء.

وقد كان ألمها فظيعاً عند قراءتها المحاورات الصحفية الكثيرة التي دارت بفظاعة وبدون أدني تحفظ حول شخصها.

صحة الآنسة ميّ الجسدية ممتازة، والنشاط طبيعي، والأعمال تتم بصورة حسنة إني أرى أن الآنسة ميّ قادرة على حياة اجتماعية مستقرة وأرى أنها جديرة بأن تدير شئونها وأملاكها بنفسها(١٧).

وقد أحدثت قضية الحجر على ميّ ضجة كبيرة في الأوساط الأدبية والسياسية يومئذ، وانتهت في صالح الأديبة الكبيرة، إذ صدر قرار محكمة بيروت برد دعوي إلقاء الحجر في أول شهر حزيران عام ١٩٣٨.

وفي ٢٢ مارس من نفس العام ألقت أديبتنا محاضرة قيمة في الجامعة الأمريكية في بيروت موضوعها (رسالة الأديب إلى المجتمع العربي).. وكانت تلك المحاضرة هي البرهان القاطع على صحة قواها العقلية، وعمق ثقافتها وحضور ذهنها، تقول ميّ عن رسالة الأديب وكأنها تتحدث عن رسالتها في الحياة.."رسالة الأديب تعلمنا كيف نخلق حضارة أدبية، إذ بها لا بغيرها، تقاس مواهبنا، ويسبر

---

(١٧) المرجع السابق: ص ١٩٣، ١٩٤.

غور طبيعتنا، وهي التي تثبت وجودنا وتنطق بلساننا مترجمة عن مبلغ الإنسانية فينا.. رسالة الأديب العربي تعلمنا حب العزلة والسكوت وترجعنا عن الفخفخة وهوس الظهور، فنعتكف على أنفسنا نعالج مكنوناتها بالظفر بجمود النتائج، فالسنبلة المتمايلة على صفحة المروج، حاملة بشائر الحياة، لا تولد حبتها ولا تنضج إلا في أحشاء الأرض، في جو الوحدة والهدوء والكتمان.

رسالة الأديب تعلمنا ألا نخشي كارثة، ولا نتهيب مغامرة، كل زمن خطير في التاريخ كان زمن اضطراب وكوارث، وأعظم فوائد الإنسانية نجمت عن عصور العذاب والخطر مرهف، ولا يعرف شأن ذي الشأن إلا يوم الكريهة، والعاصفة لا تقتلع إلا ضعيف الأغراس، أما الأشجار ذات الحيوية العصية، فالأعاصير تلح وتهزها هزاً عنيفاً فلا تزيدها إلا قوة ومناعة.

رسالة الأديب تعملنا كيف نفهم كل شيء، ونستفيد من كل شيء باحثين عن الصواب والكمال خلال كل نقص وكل زلل، نازعين إلى الجمال الحسي والأدبي حيال كل دمامة خلقية وخلقية، مساجلين النفوس والعناصر، مناجين المنظور وغير المنظور لنجعل من حياة متناثرة متداعية، حياة متناسقة متماسكة. أي شيء لا تعلمنا رسالة الأديب؟

إنها قوة تستفز قوتنا وموهبة تحفز مواهبنا، وصرامة تردنا عن الحقارة، وبسالة تدفعنا إلى البسالة، وعذوبة تواسي أحزاننا، وأغرودة تطرب أشجاننا، وهي عالم مستقل متماسك يسوقنا إلى تكوين عالمنا المتآلف المستقل!.

حتاج إلى الأديب يأخذ منا ويعطينا، فيرسل صوته أديبا رصينا مسيطرا أخاذا حضانا!. ونحتاج إلى رسالة الأديب قويمة غنية عنيدة ملهمة لتوقف قوميتنا في مكانها المشروع وفي معرض القوميات ميدان العمران العظيم!"[(١٨)].

وخرج الصحافيون والكتاب من المحاضرة، ليكتب كل منهم مقالا أوخاطرة يتحدث فيها عن انطباعه عن تلك المحاضرة التي سمعها المئات.. مئات بين الشك واليقين، وقليل من المؤمنين أن ميّ هي التي تتكلم وقفواجميعاً بعد انتهاء المحاضرة يهتفون معجبين ويصفقون تحية لها، لقد سجلت الصحف والمجلات وقتها تلك الانطباعات.. وأيضاً سجل "راجي الراعي" النائب العام الذي حضر المحاضرة انطباعه.. وهو يراقب ويدقق في أحوالها استكمالاً لتحقيقاته في القضية المعروضة أمام محكمة البداية.. ويتكلم ممثل النيابة العامة [(١٩)]:

"إن هذه القضية المبسوطة أمامكم هي قضية خطيرة جداً، تختلف عن غيرها من القضايا التي يتناولها اختصاصكم، فهي لا تدور حول سند يطلب الحكم بقيمته المعترف بقبضها نقداً وإثبات الحجز الملقي أو صك بيع، بل هي قضية حجر، والحجر هو حجر الدماغ والروح وموت أدبي ويد هائلة تضغط على الإنسان الذي بلغ من العمر عتيا فتخلع عنه ثوب الأربعين أوالخمسين الذي ألبسته إياه السنون، وتعيده غلاماً قاصراً، وتقيم له وصيا.. ويزيد في خطورة هذه القضية حيث موضوعها ونتائجها أن من يطلب منكم الحجر عليه فتاة ليست كسائر الفتيات، وثبت بها العبقرية إلى قمم الأدب والعلم والفن الخالد ولمع

---

(١٨) المؤلفات الكاملة: جـ ٢، ص ٢٦١، ٢٦٢.

(١٩) ملحق جريدة النهار، بيروت، ١١ نيسان ١٩٧١ ص ١٢، ١٣ (عن فاروق سعد في كتابه السابق الذكر، ص ٣٥٤، ٣٥٨).

نجمها في سماء العربية ورفع لواؤها الخفاق فوق كل قطر من الأقطار الناطقة بالضاد، وتجاوبت بأصداء آياتها أرجاء النيل وجبال لبنان وسهول سوريا وصحأرى العرب، فهي حديث العرب في كل صقع وواد، وهي بنفسها دولة في دولة الأدب، ونور من أنوار الشرق، وقلم من أقلام الخلود، وعجيبة من أعاجيب الوحي والإلهام، كانت دارها في وادي النيل كعبة الأدباء ومحج العظماء، تكتب فيقال كتبت ميّ، وتتحدث فترهف لها الأسماع وتنصت لها القلوب، وتخرج الكتاب فتتلقفه الأيدي، وهي تتكئ على مكتبة لها فيها الألوف من الكتب، وتسكب من عبقريتها في الأرواح، وفي الكؤوس سحرا ومجدا وهياما وأملا ورحيقا..أيها القضاة: في سماء هذه القضية وطرأ على الأوراق طارئ قلبها بطنا لظهر وظهراً لبطن، وطلح بكل شيء في هذا الملف، وأعاد الحق إلى نصابه والحقيقة إلى عرشها، فقد أرسلت البطاقات تدعو إلى استماع محاضرة تلقيها الآنسة "ميّ" في نادي"العروة الوثقى" في"وست هول" من على منبر الجامعة الأمريكية، وأخذ الناس يتساءلون:

أتقوى ميّ على إلقاء محاضرة؟ هي إذن تقرأ وتكتب فكيف قال عنها الأطباء في تقاريرهم إنها لا تكتب ولا تقرأ، وهي إذن تجمع في القرطاس حكما وآيات، فكيف قيل أنها لا تجمع إلا رماداً؟! وهي إذن ذلك الطائر الغريد فكيف قيل إنها فقدت تغريدها وصوت إحساسها؟!، وهي إذن ذات أوتار فكيف قيل إن قيثارتها تحطمت؟!.

وجاء موعد المحاضرة البارحة (٢٢ مارس آذار ١٩٨٣) فهرعت إلى قاعة الجامعة والواجب، يستحثني والضمير يلح على بتلمس الحقيقة في مصدرها وينبوعها، فقد كان ظامئا إلى معرفة الحقيقة، التي من أجلها نحن نرتدي هذه

الأثواب والقلانس ونطبق القانون.هرعت إلى قاعة الجامعة الأمريكية، وكلي شوق إلى جس النبض الذي تنبض به هذه القضية ورؤية الوجه، الذي قيل إنه مجنون وسماع الكلمة قيل التي أنها كلمة من اختل شعوره واضطرب عقله وفقد إرادته، هرعت إلى قاعة الجامعة الأمريكية مساء البارحة، فإذا هي تغص بالخلق يدفع بعضهم بعضاً ويشرئبون بالأعناق ليروا إذا كانت "ميّ" أميرة البيان، وصناجة العرب ماتزال لدولتهم ولهم.

ودقت الساعة الثامنة فإذا ميّ تطل على المسرح، وقد لعبت الأخوال فلعب الشيب برأسها وهي الفتاة اللعوب الطروب، ووقفت على المنبر، وأخذت تتدفق بذلك البيان الساحر الذي تعود العالم العربي أن يسمعها تنقر على أوتاره الخلابة بريشة لو رآها رفائيل وروبنس لادعيا أنها ريشتهما وأن ميّ اغتصبتها، في حين أنها ريشتها التي وضعها الله في يداها منذ كونها في أحشاء عجيبة من عجائب الفن، ومعجزة من معجزات الأدب.

وحديثها عن رسالة الأديب إلى الحياة العربية طيلة ساعة كاملة تامة بدقائقها وثوانيها حديثا خلع عليه الاتزان والاتساق والعقل والمنطق والفن والإبداع حللا فضفاضة فاخرة.

وراحت تتلو لنا آياتها بلغة موسيقية رنانة، وعذوبة ترقرقت فيها مياه النيل وعبقرية ينبطح الجبل أمامها خشوناً ويتقلب سهلّ، ويعتزبها السهل ويشمخ فينقلب جبلاً.

وانقضت الساعة الثامنة، الكاملة بدقائقها وثوانيها، وهي تلقي الدرر والغرر، وترصع جيد اللغة العربية بجواهر من الزمرد والياقوت والماس. فضج كل من في القاعة ضجة الإكبار والتعظيم ووثبت القلوب واهتزت الجدران للتصفيق الداوي

المستمر الذي لم تشأ الأيدي أن تكف عنهوأخذ الناس يقول بعضهم لبعض: أتكون هذه الفتاة مجنونة وقد جننا بها، وإذا كانت هي المجنونة فهل نحن العقلاء؟!

لقد زالت حيرتي وزال ترددي بعد تلك المحاضرة الساحقة، وباقتناعي أن الآنسة ميٌّ بعد تلك المحاضرة لا يحجر عليها، وبهذا الاقتناع القاطع الحاسم الذي كونته في عيني التي رأت وأذني التي سمعت.. أتقدم منكم الآن أيها القضاة، وأطلب أن تقاسموني هذا الشعور الحي الصادق الذي انتابني ليلة البارحة، فالفتاة التي ألقت تلك المحاضرة لا يحجر عليها، ولا تحجر حريتها وعبقريتها، فهيأسمى أن تطالها يد القصر، من أن تمسها يد الحجر.. ليتركها أنسباؤها وشأنها إن أنسباءها الحقيقيين هم أولئك الذين تربطهمبها الرابطة الروحية.. أولئك الذين سمعوا محاضرتها فصفقوا لها، وخرجوا منها معجبين مذهولين.

إن الحجر على هذه النابغة هو حجر على الأدب العربي وعلى الأمة العربية وعلى العبقرية العربية، فلا تعدموها بسطرين من قلمكم.. وهي عاقلة فلا تجعلوها بحكمكم مجنونة.

إن في عنقها نيرا وهي السيدة الفريدة المبجلة فاخلعوه عنها ودعوها تتنشق الهواء الطلق، فوراءها الملايين من الخلق ينتظرونها".

وهكذا خرجت ميّ من محاضرتها منتصرة على نفسها، وعلى الذين يدبرون لها المكائد والمصائب. وبعد أن زال الحجر عنها في لبنان.. قررت السفر إلى مصر.. وقبل أن تتوجه إلمصر مكثت بضعة أسابيع في ضيافة الأستاذ خليل

الخوري ببيروت.. ويستقبل طاهر الطناحي ميّ وهي عائدة من لبنان بقصيدة جاء فيها:

عودي إلى مصر مثل الشمس ساطعة تـــزجين ضـــيك آيـــات وعرفانـــا
كـم قـد حزنـا لبعـد طـال موعـده وكـــم حـــسدنا علـــى الأيـــام لبنانـــا

وبعد عودتها إلى مصر واجهت صعوبات قبل أن تسترد حرية التصرف في ممتلكاتها ولكنها صمدت صمودا كبيرا.. كأنها ذلك الشاعر العربي الصامد للأحداث بقوله:

وتجلـــدي للـــشامتين أريهمـــو أنـــي لريـــب الـــدهر لا أتضعـــضع

وتابعت نشاطها الأدبي، فألقت محاضرة في الجامعة الأمريكية بالقاهرة عام ١٩٣٩م وكتبت عدة مقالات ومؤلفات لم تنشر.. منها:

– " ليالي العصفورية" وهو يحوي وصفاً لما رأته، وعانته من آلام في مستشفي العصفورية في بيروت.

– "في بيتي اللبناني" وهو وصف لحياتها بعد خروجهامن المستشفى وإقامتها لمدة شهور في لبنان.

– "المتقدمون" وهي رواية مترجمة عن اللغة الفرنسية.

– "مذكراتي" وهي مجموعة من الخواطر والمقالات والذكريات في مصر ولبنان وأوروبا، ويتعرض للكثير من حياة وأدب الأدباء الذين عرفتهم ميّ.. لكنها كانت دائماً تؤثر الوحدة وتشمئز من الناس.. وهذه العزلة جعلت صحتها ونفسيتها تتدهور، وقد حاول بعض خلصائها في القاهرة، وفي مقدمتهم طه حسين

وأنطون الجميل وغيرهما.. أن يزوراها، فرفضت أن تراهم لإحساسها بأنهم تخلوا عنها، فتخيلت كل المقربين إليها متآمرين عليها وغالت في شكها.

يقول العقاد: "زرت الآنسة ميّ ورأيتها ترتجف، وهي تفتح الباب وتشير إلى المسكن الذي أمامها وتضع أصبعها على فمها تحذرني من الظلام، قالت:"ألا ترى هذه الحجرات وما فيها من النور؟ إنها خالية وخاوية فلم ينيرونها في هذه الساعة؟ فاتجهت إلى تلك الحجرات وسألت عاملاً وجدته عند بابها، فعلمت منه أنهم يعدونها للتسليم في اليوم التالي وهو أول الشهر وأول تاريخ الإيجار، فلما أنبأتها بما علمت بدا عليها الخوف وخطر لها أنني أخفي عنها المؤامرة أو أشترك مع المتآمرين.

ويقول سلامة موسى: "كانت صورة ميّ في ذهني (عندما ذهبنا لزيارتها) لا تزال صورة الفتاة الجميلة الحلوة التي تضحك في تدلل، وتتحدث في تأنٍ عن النزعات والمذاهب الأدبية أو الفلسفية.. ودققنا الجرس، فخرجت لنا امرأة مهدمة كأنها في السبعين، قد اكتسى رأسها بشعر أبيض مشعث وكان وجهها مغضنا قد تقاطعت فيه الخطوط وكان هندامها يبدو مهملاً.. وظننت لأول رؤيتها أنها الخادمة، وانتظرت كي تنتحي وندخل، ولكنها لم تنتح وغمزني صديقي، وهو يهمس بصوت أعتقد أنها سمعته: الآنسة! وسلمت وأنا مثلج من الخجل، ودخلت أجر قدمي وقعدت إزاءها وأنا أفكر في هذه المأساة.. أين شبابها؟ أين حلاوتها؟.. وكان أعظم شيخوختها ولم أعرف أن ميّ الجميلة، الرشيقة، خالدة الشباب، قد استحالت إلى عجوز، ولم يبق لها من جمالها إلا الذكري.. وقعدنا نتحدث وجعلت تلومني لأني لم أسأل عنها وتدفقت دموعها كما لو كانت

ميازيب.. وجري بكاؤها في تشنج كأنها تلتذه، ثم هدأت وأشعلت سيجارة.. وجعلت تدخن وتنفخ دخانها على مداعبة، لأني أكره الدخان وهنا استولي عليها الطرب فشرعت تضحك في إسراف يزيد على إسرافها في البكاء، وكانت تتشنج بالضحك كما تتشنج بالبكاء.. وتكرر هذا منها ضحك فبكاء.. مع إسراف في الاثنين..لقد وقفت ميّ على أطراف "مرقص الحياة" على حد تعبيرها في كتابها "ظلمات وأشعة" قبل خمس وعشرين سنة.

"بقيت أنا.. تلك الصغيرة الضعيفة الحائرة وسط المعضلات والزرايا . ولم يفتأ ذلك الوحي المعذب يهمس في سورته، وذلك الاحتياج المتوهج يضرم في ناره، ففهمت أمراً آخر وهو أنه حيث تكون العاطفة متيقظة مرهفة فهناك النزاع الأليم والاستشهاد وإذا رافقتها الأنفة وشرف السكوت على فضض الحروق والكروب فهناك مأساة الصلب تتجدد مع الأيام"[٢٠].

".. وقفت عند كوة الحياة لا أدري لماذا أقف ومن ذا أوقفني هناك. وإذا بالناس في السبيل يمرون، فأخذت أتفحص الوجوه منهم والحركات، لعلى أعثر على ما يجعلني مختلفة عنهم وهم مختلفين عني، ولعلي أدرك ما هذا الذي يطلب مني رغم حداثتي وحيرتي وجهلي وقلة اختباري. فصرت أعجب بالناس، وأغبطهم على ما لديهم وليس لي أن أفوز بمثله، وأتعزى بمظاهر الكآبة عندهم، لتكون تلك المظاهر صلة ولو واهية بيني وبينهم على أني لم أزدد إلا شعوراً بحيرتي وعجزي، لم أزدد إلا شعوراً بأني خيال لا ضرورة له، إزاء تلك الأقوام الفرحة الضاحكة، مع أن هذا الخيال يطلب منه شيء كثير لا يدري ما هو.

---

[٢٠] المؤلفات الكاملة: جـ٢، ص ٢١٣.

فظننت لحظة أني وصلت إلى قرارة اليأس وأني شربت كأس المرارة حتى الثمالة. ثم أوحى إليّ بأن هناك وجودا غير ملموس يدعي السعادة، وشعرت باحتياج محرق إلى التعرف إليها والتمتع بها، ففهمت أنه ليس أقسى على النفوس في انفرادها وسكونها وعجزها من تلقي ذلك الوحي العنيف والشعور بذلك الاحتياج العميق.."[21].

وها أنذا أسير في أطراف مرقص الحياة معانية ما يعانيه مساجين الوجود جميعاً، يبرح بي وإياهم الشوق إلى السعادة وأتلقي مثلهم ذلك الوحي المتجدد بوجودها وعند كل خطوة خيبة وكمد، وعند كل خطوة أمل وجذل، وعند كل خطوة روعة حيال هذا السيل الحيوي الذي يتدفق مرغياً مزبداً إلى حيث لا يدري. وعند كل خطوة استفهام لا جواب له عن معنى الحياة وغايتها، عن معنى الألم وغايته، عن معنى الطرب وغايته، وعند كل خطوة سؤال للكون لماذا وجدت النفس الإنسانية كالنحاس المجوف ترجع لكل صوت يقرعها صدى رناناً عميقاً وجيعاً.."[22].

وانطوت مي على نفسها، فلم تعد تستقبل أحداً من زوارها أوأصدقائها ولم تعد تخرج من منزلها وتاه الوعي عن الزمن والذات.. وفقدت راحة النوم وأعرضت عن الطعام والشراب، فانهار جسدها الهزيل كما انهارت نفسيتها.. ونقلت إلى مستشفى المعادي بالقاهرة في حالة إعياء وإغماء.. وفي منتصف ليلة السبت الثامن عشر من شهر أكتوبر عام ١٩٤١م . شعرت ميّ بضيق شديد في التنفس،

---

[21] المرجع السابق: ص ٢٨٧.

[22] المرجع السابق: ص٣٤١.

وأخذت نبضات قلبها تسرع في الخفقان فجعلت تتنهد كأنها طفل حالم.. سألتها الممرضة عما تشعر، فلم تقو على الكلام فرفعت يدها مشيرة إلى صدرها، أن "هذا"أن هنا.. وانقطع الأمل في الحياة ولم يعد للطبيب البشري حيلة فأمصاله وعقاقيره وقفت عاجزة أمام قضاء الله.. وفي الساعة العاشرة وخمس دقائق من صباح نهار الأحد، التاسع عشر من أكتوبر عام ١٩٤١م أسلمت ميّ الروح إلى بارئها.. وكانت وهي تسلمها مبتسمة في غفوة تفكير وتأمل.. وكأنها كانت تشعر بمجيء تلك اللحظة فتهيأت لها "إن هناك وجوداً غير ملموس يدعي السعادة، وشعرت باحتياج محرق إلى التعرف إليها والتمتع بتلك السعادة الأبدية!!".

ولم يعرف بخبر وفاتها ولم يمش في جنازتها إلا قلة من الأوفياء منهم أحمد لطفي السيد وخليل مطران وانطوان الجميل. وتكاد الطبيعة التي أحبتها ميّ شاركت في وداعها الوداع الأخير.. فحجبت الشمس بالضباب كأنها حزينة على فقد ميّ. وكأنما عز عليها أن تغيب عن الدنيا، إلا في المدينة التي سطع منها نجمها "القاهرة". "وهكذا تكسونا الحياة كرداء سحري لا تبلى خيوطه وتحضنا السماء، فنحن فيها مقيمون قبل الحياة وبعد الموت، والجحيم والفردوس في نفوسنا يتناوبان. تغزونا الحياة في الاندحار وفي الانتظار، فنحن أبطالها ونحن ضحاياها سواء أشئنا أم لم نشأ. ما الأرض والبحار وأبعاد الأفلاك، سوى مدافن دهرية.. إنما هي في الوقت نفسه معامل توليد وتكوين نحن نخلد الحياة بفنائنا وهي تفنينا بخلودها . ونحن أبدا كذلك حتى تثلج الشموس وتضم حل قوى العناصر وتتفكك عرى الأكوان سابحة في الفناء الأنور في البقاء الأوحد .."[٢٣].

---

[٢٣] السابق: ص ٣٣٩.

وكأن القبر الذي وأرى جسد ميّ يتحدث بلسانها قائلاً.."هذا قبر فتاة لم ير الناس منها غير اللطف والبسمات وفي قلبها الآلام والغصات.. لقد عاشت وأحبت وتعذبت وجاهدت ثم – قضت".

الفصل الثالث

في ذاكرة الزمن.. القيمة الأدبية والفكرية

- الانتباه الثقافي
- من أجل المرأة
- أزاهير المبدعة
- موقف النقد
- الشعر في موكب الرثاء

الانتباه الثقافي

كلمة "ثقافة" مفردة من مفردات اللغات المتعددة.. وقد استخدمت هذه الكلمة منذ القدم وأريد بها معانٍ متعددة.. متباينة الاختلاف، وما فتئ الباحثون عن مدلول كلمة "ثقافة" حين تذكر أمامهم يهرعون إلى معاجم وقواميس اللغة، وينقلون لنا بكل بلادة ما يجدونه تحت هذه الكلمة.. وعلى هذا الغرار.. ثقف الرمح:

قومه وسواه، والثقاف ما تسوى به الرماح، وتثقيفها أي تسويتها ثقف الولد فثقف، أي هذبه وعلمه فتهذب، وثقفه أي فهم صادفه، والثقافة التمكن من العلوم والفنون والآداب.. إلخ وكأن الباحثين بهذا قد أدوا واجبهم.

ومن هنا فإن المعنى الدلالي لكلمة "ثقافة" لا يزال غامض الملامح في أذهان كثير من الناس، بل في أذهان المثقفين أنفسهم.. ويستخدم مصطلح "ثقافة" في غير معناها العلمي، فتستخدم على أنها التربية وتستخدم على أنها التعليم أو الحضارة.. إلخ فأصبحت كلمة "الثقافة" في حاجة إلى من يحررها من

المفاهيم الخاطئة لها ولمدلولها.. إن هناك ارتباطا كبيرا بين هذه الكلمة "ثقافة" والفرد والمجتمع، فعند التمعن في علاقتها بالفرد، نجد أن الفرد له كيان يتمثل في سلوكه وقيمه ومعتقداته ومواهبه وسماته الاجتماعية والسياسية.. وغيرها هذا الكيان هو "الثقافة".. إذن فهي مكتسبات ومعارف وخبرات يكتبسها الإنسان وتنعكس على سلوكه، ومادامت تنعكس على سلوكه، فهي تنعكس على مجتمعه، فهي لا تؤثر في السلوك الخاص فقط بل تؤثر في السلوك العام.. والثقافة ليس لها بعد معنوي فقط يتمثل في القيم والمبادئ والمعارف، بل لها بعد مادي أيضا، فالتقدم التكنولوجي مثلا هو بعد مادي للثقافة.. إن الاختلاف في مفهوم "الثقافة" ألا يدل على شيء؟!

نعم، يدل على أنها قيمة نسبية تختلف من شخص إلى شخص، ومن مجتمع إلى مجتمع، ولكن جميع التعريفات لكلمة الثقافة تجمع على أنها الإلمام بجزئيات متعددة في مختلف العلوم والمعارف، وأنها حصيلة النشاط الإنساني، وهي متغيرة ومختلفة باختلاف الأفراد والمجتمعات .. وبعد أن تعرضنا لمفهوم الثقافة – ذلك المفهوم الواسع الفضفاض – أصبح الباب أمامنا مفتوحا، لتناول ثقافة مي زيادة والعوامل التي أثرت فيها..

تفتح وعي ميّ على دراسة "اللغة الفرنسية" في مدرسة الراهبات بعينطورة، فدرست تلك اللغة منذ طفولتها وقرأت أدبها وتعرفت على نوابغ الأدباء الفرنسيين وقرأت أعمالهم، وتأثرت بهم ونظمت شعرا.. لكن بالفرنسية. كذلك كانت تكتب الخواطر والتأملات بالفرنسية، وبالطبع أثر هذا على إجادتها وإتقانها للغة العربية! وإن كان لها العذر في هذا البعد عن (العربية) بحكم النشأة والدراسة .. ولما

انتقلت ميّ إلى مصر تحولت إلى الثقافة العربية، فقرأت القرآن الكريم وكتب الأدب والسير القديمة ودواوين الشعراء لتتعلم البيان العربي.. وساعدها على إجادتها للعربية أصالتها وشعورها العميق بالعجمة وهي في بلادها.. فكيف تكتفي بالثقافة الأجنبية فقط؟ وكان لالتحاقها لالتحاقها بالجامعة المصرية وقتذاك واحتكاكها بالأساتذة العرب والطلاب أبلغ الأثر في تقديم لغتها وتوجيهها التوجيه الصحيح.

ولما اشتد قلمها في اللغة العربية ووعت أسرار اللغة. بدأت تنشر مقالات بالعربية في جريدة "المحروسة" وفي مجلة "الزهور" و"المقتطف" و"الهلال".. وحاولت "ميّ" جاهدة أن تتخلص من تأثير الأسلوب الأجنبي على أسلوبها العربي، ونجحت بالفعل في هذا.

وعن فضل اللغات الأجنبية تقول "مي": "أعترف بأن معرفتي اللغات الأخرى قبل العربية جعلتني أشبه جماعتنا بتلك المرأة التي لم تخرج في حياتها من قرية لا تزيد منازلها عن السبعة عدا.. وكانت تقول فيها إنها أجمل مدينة في العالم، وإنها أم الدنيا، وتلك المعرفة جعلتني أسأل نفسي كلما قرأت مقالا لبعض من يدعون أعاظم الكتاب وفطاحل الشعراء قائلة: وماذا وضع هؤلاء الأقطاب من ذاتيتهم فيما كتبوا، بل أين الذاتية التي لا أجد لها أثرا ؟ إنني أكره التقليد الذي يشوه المقلد ويمسخ المقلد وأنا أحب أن أكون في كتابتي".

ومن العوامل التي كونت ثقافة مي إجادتها العديد من اللغات الأجنبية."إن عبقرية اللغات عبقرية مستقلة. هي حذق عميق رشيق ينفذ في أرواح الشعوب ويأوي إليها، ثم يتحول اتساعا وعلوا فيشملها، كأن الفرد الموهوب يتقمص في

كـل شـعب يـدرس لغتـه فيتوحـد وإيـاه حيـا بحياتـه، ناطقـا بلهجتـه، مـدركا منهـا الخـصائص والمستعـصيات، ويفـسر الروحـانيون هـذه الموهبـة بمـا يفـسرون بـه المواهب الأخرى والعبقريات أعني نظرية الأعماد المتكررة بالتناسخ والتجسيد بين شعوب مختلفة"[1] وسنتعرض للغات الأجنبية التي أجادتها مي.. اللغة الفرنسية.

في سن مبكرة بدأت مي تتعلم الفرنسية، وتذكر لنا أنها قرأت للمرة الأولى وهي في "العاشرة" من عمرها قصة "إبرص بلدة أووستا" باللغة الفرنسية تأليف كزافييه دي ميستر، وأعجبت بهذه القصة إعجابا كبيرا، ودرست مي في مدرسة راهبات الزيارة في عينطورة بلبنان (١٨٩٩ – ١٩٠٣) وانتقلت بعدها إلى مدرسة الراهبات اللعازريات في بيروت، وقضت بها عاما واحدا، ثم عادت إلى الناصرة، والتعليم فـي كلتـي المدرسـتين كـان باللغـة الفرنـسية لجميـع المـواد مـا عـدا اللغـة العربيـة، وكانـت هـذه المـدارس أيضا تـدرس اللاتينيـة والأسـبانية والإيطاليـة، ولكـن اللغـة الرسـمية للمدارسهي اللغـة الفرنـسية، لأن منطقـة سـوريا ولبنـان كانـت منطقـة نفـوذ فرنـسية.. ولمـا جـاءت "مـي" إلـى مـصر، كـات تـدرس الفرنـسية لبعض بنـات العائلات، إذ كانـت لغـة الطبقـات العليـا فـي مـصر وليس أدل علـى تمكـن مـي مـن اللغة الفرنسية من أن ديوانها الأول "زهرات حلم".. كان باللغة الفرنسية، قد نـشر بمـصر عـام ١٩١١، أي وهـي فـي الخامـسة والعـشرين مـن عمرهـا، وكـان بتوقيـع إيزيس كوبيا، فايزيس آلهـة الخصب والأمومة عنـد القدماء المـصريين وكوبيـا كلمـة لاتينيـة تعنـي الغـزارة والخيـر والـوفرة.. وغلـب علـى هـذا الـديوان نزعـة الحـزن والتشاؤم، وتجلي تأثرها الواضح باثنين من كبار شعراء الرومانسية الفرنسية.

---

[1] المؤلفات الكاملة: جـ١، ص٣٢٤.

أولهما لامرتين (١٧٩٠ – ١٨٦٩) وكان ذا طبيعة مثالية رقيقة ونبيلة، صلب العود بعيدا عن العواطف المتدنية، محبا للخير والجمال، له عدة دواوين شعرية منها "الأنغام"، "التأملات" ويتميز إبداعه بالغموض، هذا الغموض المغلف بالضبابية، يتيح له أن يعبر عن نفسه بحرية أكثر، "مي زيادة" أهدت ديوانها إليه.. وكان الثاني الذي تأثرت به مي: ألفرد دي موسيه (١٨١٠ – ١٨٥٧) وكان متقد الذكاء خياليا ساحرا سار في الاتجاه الرومانسي فترة قصيرة، ثم فجع في غرامه فأخذ يكتب أشعارا حزينة.. رائعة، وكان القانون الوحيد الذي يلتزمه في إبداعه أن يخلص لمشاعره، ومن ثم يزدري الصنعة في الفن مهما كانت عالية، وعاش طفلا مدللا قبل أن يكابد ألم العشق الذي جعله أكثر رزانه، دون أن يغير طبعه، ومرهف الحس محبا لنفسه، وعلى استعداد للحب، وشديد النهم أن يكون محبوبا متقلبا في هواه شديد الحماسة، يطيب له أن يتمتع بالحياة، ولا يرتوي من الملذات قط[٢].

ولم تنصرف "مي" عن القراءة الفرنسية، رغم أنها اتخذت اللغة العربية أداة للتعبير عن آرائها وأفكارها، كما أن القراء في مصر قلةمنهم من يقرأون بالفرنسية، والأغلبية تقرأ العربية، وأعجبت مي أشد الإعجاب بالقصاص الفرنسي بييرلوتي (١٨٥٠ – ١٩٢٣) وطالما سعدت بالسباحة في اكتشاف أفكاره ولغته الرائعة الآسرة.

تقول مي: "طالما استسلمت لسحر بيانه، وذات يوم حملت كتابه "موت أنس الوجود" وطالعت بعضا من فصوله في المتحف المصري، على مقربة من

[٢] د. الطاهر أحمد مكي: المصادر الأجنبية لأدب مي، مجلة الهلال، القاهرة، ع٢، فبراير، ١٩٨٦ م.

قاعة المومیات بهدوء وتأمل، وهذا الكتاب كتبه لوتي عام ١٩٠٧ م وأهداه إلى مصطفي كامل، وكان مثله ابنا روحيا لمدام جولييت آدم، وحبذت الدعوة التي ارتآها على أيامها بعض الكتاب من تعريب الكتاب وبقية مؤلفات لوتي الأخرى عن الشرق الأدني، ومع أنها تراه صديق الشرق، لا ترى شبيبتنا في حاجة إليه، وإنما هم أحوج إلى كتب أساتذة أقوياء يكيفونها ويستحثونها على الرجاء، ويبثون في نفسها اليقين، فترجمة كتبه خطيرة لمن لا يعرف أن يتسلى بسحر لوتيتسلية، ويعجب ببيانه دون أن يحسب قوله درسا وأمثولة"[٣]، ورغم إعجاب مي بكتاباته لكنها ترى لوتي كثير النواح والشكوي والتنعر يؤذي من لا إلمام له بأداب الغرب، أو من كان قليل الإلمام بها كما كان قبله روسو.

اللغة الإنجليزية

بدأت مي تدرس الإنجليزية بعد وصولها مصر.. وقد ساعدها على ذلك الجو السائد في مصر، فقد أعلن الإنجليز حمايتهم لمصر، ومن هنا أصبحت اللغة الإنجليزية إحدى اللغات السائدة في مصر.

وقد أجادت الإنجليزية إجادة تامة، ففي الحفل الذي أقامه طلبة قسم الأداب الإنجليزية في الجامعة المصرية، في فندق شبرد (إبريل ١٩١٨) أسهمت فيه – وكانت طالبة بالجامعة وقتها – فألقت كلمة باللغة الإنجليزية، ونشرت ترجمتها إلى اللغة العربية فيما بعد.

وقرأت كثيرا من روائع الأدب الإنجليزي، وتأثرت باثنين من كبار شعراء الرومانسية الإنجليزية، هما اللورد بايرون (١٧٨٨– ١٨٢٤) وشيلي (١٧٩٢ –

(٣) المرجع السابق: ص ٤٩.

١٨٢٢) وأعجبت بالشاعر الإنجليزي تنيسون (١٨٠٩ – ١٨٢٢) الذي امتاز عن شعراء عصره بصفاء العبارة، وقوة التركيب اللغوي بين مفردات اللغة، وهيأهنبوغه الشعري ليكون علما من أعلام الشعر الإنجليزي .

وكانت على وعي جيد بأن اللغة الإنجليزية لها آداب أربعة: الإنجليزية والأسكتلندية، والأيرلندية، والأمريكية.. وأن لكل واحد من هذه الآداب روحه الخاص ومزاياه، ونقلت عن الإنجليزية رواية "اللاجئون" للكاتب الأسكتلندي أرثر كونن دويل (١٨٥٩ – ١٩٣٠)، وكان طبيبا وكانت قصة بوليسية، غيرت عنوانها فأسمتها "الحب في العذاب" وهي رواية أدبية تاريخية، حدثت في عهد لويس الرابع عشر ونشرها عام ١٩١٧[٤].

ولم يوفق أحد في جمع فصول رواية كتبتها بالإنجليزية، ونشرتها في مجلة "سفانكس" التي كانت تصدر في القاهرة عام ١٩١٧، بعنوان "ظل على الصخر"، وجاء ذلك في حديث أجراه معها نقولا باز ونشر في مجلة "الفجر" البيروتية عام ١٩٢٣ [٥].

اللغة الإيطالية

كانت بداية تعرف مي على اللغة الإيطالية في مدرسة الراهبات، فكانت الإرساليات الكاثوليكية تدين بالولاء المباشر للفاتيكان في روما، حيث كانت تعني بلغات كبريات البلاد الكاثوليكية في أوروبا مثل فرنسا وإيطاليا وإسبانيا، فدرست

---

[٤] يقول د. مكي في مقاله السابق ص ٩٧ "لم يوفق أحد في العثور على نسخة من "الحب في العذاب".. وهذا رأي غير دقيق فالرواية نشرت ضمن المؤلفات الكاملة لمي، انظر ص ٦٥٧.

[٥] د. الطاهر مكي: مقاله السابق، ص ٩٧ .

الإيطالية إلى جانب الفرنسية، فهي تقص علينا في مقال لها بعنوان"تكلموا لغتكم"، إنها دخلت مكتبة صغيرة في القاهرة لبيع الكتب الإيطالية، لتشترى منها بعض أعمال "جبرائيل دانزنتريو"، فإذا بصاحب المكتبة يقدم لها مؤلفاته بالفرنسية..

وكان يكتب بها إبداعه أحيانا ثم يترجمه إلى الإيطالية، فردتها وطلبت منه مؤلفاته الإيطالية الأصليةالمنقولة، فسألها عما إذا كانت تريدها لنفسها أم لغيرها، فأجابتهبل أريدها لنفسي فسألها : إذن تعرفين الإيطالية، فردت عليه: نعم. لم يكن جبرائيل دانزنتريو (١٨٦٣– ١٩٣٨) أديبا إيطاليا عاديا.. كان جنديا طيارا ومحاربا وشاعرا روائيا، وصاحب أسلوب لامع وجذاب ونال شهرة مستفيضة في النصف الأول من هذا القرن.

وتعرفت أديبتنا على شاعر إيطإلى آخر كان معاصرا لجبرائيل، وهو كاردوتشي (١٨٣٦ – ١٩٠٧) تعمقت في أدبه، وتتبعت مراحل تطور هو وصفته في دقة بأنه صاحب موهبة شعرية ونقدية، وأنه كان يزدري شاعرية المرأة، وله فيها رأي صار مضرب المثل "اثنان عليهما ألا يعالجا الشعر: الكاهن المسيحي والمرأة[٦]".. ولكننا نجده عدل عن رأيه عندما قرأ أشعار إليزابيث براوننج الإنجليزية، ومدام ديبور فالمور الفرنسيةوآني فيفانتي الإيطالية.

ومن هنا تأتي عظمة المفكر أنه يتراجع عن رأيه الخاطئ إذا تبين له خطأ هذا الرأي.. والجدير بنا أن نشير إلى أن "مي" لم تؤلف شيئا باللغة الإيطالية، رغم إجادتها لها. ولم يبين أحد من الباحثين سبب هذا..حتى هي نفسها لم تذكر

---

[٦] المرجع السابق: ص ٩٧.

سبب هذا.. وهذا جعل البعض يتشكك في إجادة مي للإيطالية، ولنا أن نقول ليس معنى إجادة المرء للغة من اللغات.. وهو أديب أن نطالبه بالتأليف بنفس اللغة!.

اللغة الألمانية

بدأتْ تتعلم الألمانية عامي ١٩١٠-١٩١١ على يد سيدة بروسية، وتذكر مي أنه في عام ١١٩١ ذهبت لتصطاف وحملت معها كتاب "الحب الألماني" للمستشرق الألماني ماكس موللر، وصادف هذا الكتاب إعجابا كبيرا في نفسها، فبدأت تتمرس على ترجمته إلى اللغة العربية، ولم يكن متوافرا معها معجم ألماني، فاستطاعت التغلب على هذه المشكلة بأن كانت تحيط بالمعنى العام.. ونشرت هذه الترجمة تحت عنوان "ابتسامات ودموع" عام ١٩١٢، ولم تطبعه ثانيا، لأنها لم تكن راضية عن ترجمته الأولى، فأعادت ترجمته ونشرتها في طبعة ثانية عن مطبعة الهلال عام ١٩٢١، وبلاشك إن إعجاب مي بالمستشرق الألماني "ماكس موللر" (١٨٢٣ - ١٩٠٠) لم يأت دفعة واحدة، بل قد عرفته وقرأت له في سن مبكرة في مدرسة الراهبات ونشرت عنه مقالا بمجلة المقتطف - نوفمبر ١٩٠٠.

اللغة الإسبانية

كان إلمام "مي" بالإسبانية خفيفا، ولم يكن حظها من تعلم هذه اللغة كبيرا، وقليلا ما نقع في أعمالها على اسم كاتب أو شاعر إسباني باستثناء "استبيان منويل دي فييجاس" (١٥٩٥ -١٦٦٩) وتقارن خلال دراستها شعر عائشة التيمورية في الغزل والدين والأخلاق وبين "ماريه تيرسادي أبله" الإسبانية (١٥١٥-

١٥٨٢) لأن كلتيهما كانت متصوفة، تقية في نظمها للشعر والابتهالات.. كذلك مي لم تؤلف شيئا بالإسبانية.

ويرى الدكتور الطاهر مكي [٧] أن مي رغم إطلاعها على الكثير من إبداع الأوربيين والتأثر بهم، لكنها أهملت أوروبيات معاصرات لها وكن على أيامها وبعدها ملء السمع والبصر، فلم تعرض لهن من قريب أوبعيد ومنهن أنادي نواي (١٨٧٦-١٩٣٣) وكانت شاعرة رقيقة لها ديونان من الشعرهما "القلب لا حصار له" و"الانبهارات"، كذلك ماري بشخير تسيف (١٨٦٠ – ١٨٨٤) .. وكانت كاتبة ورسامة، ودرست في باريس وبعد موتها نشرت أسرتها يومياتها العاطفية عام ١٨٩٠.

وإنني لا أحسب مي جهلتهن، فهؤلاء الأوروبيات اللاتي ذكرهن الدكتور لهن شهرة واسعة يعلمها المطلع على الآداب الأوربية ولو عن طريق الترجمة.. وما بالنا بمي وهي "عالمية الثقافة"، فهي بلا شك تعرفهن وقرأت لهن وعنهن، أما كونها لم تكتب ولم تشر إليهن يرجع إلى الغيرة منهن فإنني أختلف مع هذا الرأي.. ألم يكن من الأولى أن تغار مي من أولئك الأديبات والشاعرات العربيات اللائي تحدثت عنهن في مؤلفاتها، فنجدها وقفت جهدها على دراسة شاعرتين عربيتين هما "عائشة التيمورية"، و"باحثة البادية – ملك حفني ناصف"، وتناولت الكثير من النساء الأديبات في مقالاتها،فإن كانتقد غارت بالفعل من هؤلاء الأوربيات أليس من الأجدر أولا أن تغار من بنات جنسها اللائي يتحدثن لغتها وينتمين إلى وطنها!!

---

[٧] المرجع السابق.

وليس الأديب بأن يكتب عن كل شخصية قرأ لها أوبهر بها، ولا يعد هذا – إطلاقا – نوعا من الإنكار أوالجحود أو التجاهل لهذه الشخصية، فشأن كل شخصية عظيمة أن تفرض نفسها بإبداعاتها، التي تكون في غني عن التعريف لأنها تتحدث دائما عن مبدعها.. وتخلد ذكره.

من أجل المرأة

إن لكلمـة "نهـضة" التـي نـستعملها بمعنـى (Renaissamce)، معنيتين اثنين: أحدهما تجدد الأمة في مجموع أحوالها بعامل أوعوامل استفزتها وتغلبت على العوامل الأخرى: كالنهضة الأدبية الفنية في أوروبا في القرن الخامس عشر، والنهضة العلمية والآلية في أوروبا وأمريكا في القرن المنصرم وفي هذا القرن..

أما المعنى الآخر فهو الانتباه لوجوب إحداث التغير والشعور بابتداء وقوع ذلك التغير، فالتجدد هنا هو اليقظة والرغبة في الأخذ بما أخذ به آخرون فوسع عندهم مجال الحياة، فاستفادوا به وخسروا وتنعموا وتوجعوا.. هو تحفز ومباشرة جميعا.. وبمثل هذا تبدأ دوامات النهضات الحقيقية.. إذ لا طفرة في الحياة، ولابد لكل نضوج أن يستكمل وقته ونظامه [1].

والنهضة دائما في حاجة إلى دوافع.. تحث خطاها وتحدوها.. وإن بدت أي نهضة في بواكيرها متعثرة.. بطيئة الخطى، فذلك لأنها تفتقر إلى الدربة

---

(1) المؤلفات الكاملة : جـ١ ص ٣٢٤.

والتنسيق والنظام.. وهذا أمر طبيعي يلازم الخطوات الأولى في جميع أوجه النشاط الإنساني.

وقد يظن الناس أن "مي زيادة" وزميلاتها من الأديبات والنابغات كن في معزل عن تطور ونهضة المرأة العربية في الشرق، ولكن الحقيقة التي لا يمكن جحودها أن ميا ونظيراتها هن رواد النهضة النسائية العربية الحديثة.. "لقد بدأت الحركات النسوية في التحفز بعد الدعوة التي ترددت في أرجاء العالم العربي لتحرير المرأة، فمن صوب لبنان ارتفع صوت المعلم بطرس البستاني قبل أن يدعو رفاعة الطهطاوي في أرجاء مصر لتعليم البنات، وكان أقوى أثرا وذكرا تأليف قاسم أمين من أجل النساء ومادار حول هذا التأليف من تأييد أوتنديد، حتى ارتفع صوت رائدة مصرية من الموهوبات هي"ملك حفني" المسماة "باحثة البادية" والتي نشرت مقالاتها الثورية والإصلاحية [٢] في هذا الموضوع الخطير، وناقشت آراء قاسم أمين وخطأ الرجل في استبداده وخطأ المرأة فيما آل اليه أمرها، محللة كل علة نفسية واجتماعية بصراحة ولباقة وهيأت لرسالتها التقدير والصدي البعيد"[٣].

وقد أعجبت "مي زيادة" بمقالات "باحثة البادية".. وحرصت على حضور المحاضرات التي تنظمها الجمعيات النسائية من أجل تطوير المرأة العربية، وكان من زعيمات تلك الحركة الإصلاحية "لبيبة هاشم" و"لبيبة أحمد" و"كريمة السعيد" و"هدى شعراوي" وغيرهن.

---

[٢] جمعت "باحثة البادية" مقالاتها في كتاب "النسائيات" وقدمه لها أحمد لطفي السيد.

[٣] وداد سكاكيني: مرجع سابق،ص ١١٢ .

وهـذه الحركـة النـسائية الإصـلاحية لـم تكـن علـى ضـفاف النيـل فقـط، بـل شهدتها أماكن أخرى متعددة في الوطن العربي، أبرز هذه الأماكن بلاد الشام التي كانـت تمـوج بالرائـدات المـصلحات.. مـن أبـرزهن.. سـلمي صـايغ وأميـرة زيـن العابدين وماري عجمي.. وغيرهن.

وفي قاعة المحاضرات بالجامعة المصرية عام ١٩١٤.. استمعت مي إلى محاضـرة ألقتهـا الـسيدة هـدي شعراوي.. وبعـد أن انتهـت مـن المحاضـرة وكـادت تغادر القاعة تقدمت إليها مي ببشاشة وشجاعة واعتداد بالنفس وقالت:"سيدتي هدى: أنا معجبة بأفكارك، مقدرة لما تبذلينه من جهد.. لذلك أضع نفسي تحت تـصرفك، ولا تظنـي يـا سـيدتي أننـي صـعيرة لا أسـتطيع المعاونـة أو لا أقـدر علـى المساعدة أنا كاتبة وشاعرة وأكتب في الصحف والمجلات.

أنا "مي" ولا أظنك ياسيدتي إلا قرأت شيئا مما كتبته.. ألا تعرفينني؟! وكانت هذه الكلمات الشجاعة، التي تدل على روح مفعمة بالنية الصادقة الحسنة والعمل الجاد المثمر، باعثا لأن تضم هدي شعراوي هذه الفتاة إلى صدرها وتقبلها قبلة إعجاب، وتضمها إلى حركتها النسائية الإصلاحية.

حقا حداثة السن لا تعوق عن العمل العظيم.. وصدق الشاعر العربي حين قال:

فمـا الحداثـة مـن حلـم بمانعـة ... قد يظهر الحلم في الشبان والشيب

وقال شاعر آخر:

ورب صـغير لاحظتـه عنايـة ... مـن الله، فاحتاجـت إليـه الأكـابر

وانتظمت مي في صفوف المصلحات، فكان قلمها أحد المصابيح المضيئة، وكان كلامها الفصيح المبين يجذب كل سامع، فارتقت المنابر خطيبة، في الجمعيات النسائية والخيرية في القاهرة، وفي أقاليم مصر.. وخارج مصر أيضا.. ولم تتعصب للمرأة المسيحية دون المسلمة أو العكس، فألفت كتابا عن السيدة "وردة اليازجي" يتناول حياتها وشعرها ونثرها ومنزلتها الأدبية، وكان هذا الكتاب في الأصل محاضرة ألقتها مي عن هذه السيدة وكتبت مي عن "باحثة البادية" – ملك حفني ناصف الكاتبة المسلمة، الأديبة والمصلحة الاجتماعية، وعقدت موازنة بين آراء باحثة البادية الإصلاحية وقاسم أمين، وأصل هذا الكتاب مجموعة مقالات نشرتها مي لمجلة "المقتطف"كذلك كتبتدراسة مستفيضة عن "عائشة التيمورية"، لقد أنصفت المرأة الشرقية حينما كتبت عن ثلاث من الأديبات الشرقيات المصلحات.

ونادت بتحرير المرأة من ظلم المجتمع لها، تقول مي: "كم قالوا إنها لا تصلح إلا للخدمة البيتية والزينة الجسدية، وها هي مصلحة كبيرة ومفكرة عاملة، وكم قالوا إنها حيوان جميل وشيطان لطيف، وها هي ملك كريم يحاول إفهام الرجل أن في الحياة عنصرا ساميا هو كل الحياة. وكم قالوا إنها كاذبة خبيثة وأن الصدق والإخلاص بعيدان عنها بعد الشمال عن الجنوب، ها هي آخذة في تهذيب نفسها وملاشاة العاهات التي شوهتها في أزمنة العبودية.. وكم قالوا إنها مترددة حائرة ذليلة لا تقوىعلى توليد فكرة ولا تحتمل المسئولية، وها هي عزيزة النفس شديدة الحرص على الاستقلال، منحنية بحرقة على معاني الحياة العميقة.. وكما قال فولتير إن فكرها سريع العطب، وأنه يتحطم تحطيما إذا حاول استفهام

ناموس علمي، غريب أن يقول فولتير هذا القول وهو الذي استعان بامرأة على فهم كتابات نيوتن، وهي صديقته مدام دي شاتليه ومترجمة كتاب "نيوتن في ناموس الجاذبية"[٤].

وطالبت مي بالحقوق المهدرة للمرأة والتي نادت بها الأديان، "المسيحية سوت بين الرجل والمرأة إذ جعلت لهما خطة واحدة تفضي إلى ثواب واحد. على أن النصرانية حرمتها من وظائف الكهنوت، ورأي بعض النصرانيين أن المرأة قارورة الخطايا والآثام.

ثم جاء نبي الإسلام فرفع شأنها أي رفعة في بلاد العرب، إذ حرم وأد الفتيات وسواها بالرجل في جميع الحقوق والواجبات، إلا في الشهادة والميراث – فإن امرأتين تساويان رجلا – وفيما ماعدا ذلك هي والرجل سواء في جميع الحقوق المدنية، ويقول العارفون إن لها الحقوق السياسية أيضا، وللمسلمات أن يكن فقيهات،وكانت أول فقيهة منهن عائشة زوجة صاحب الشريعة الإسلامية[٥].

إن أهم حق من حقوق المرأة هو التعليم الذي يهذب طباعها وينمي ملكاتها ومواهبها..وكم قالوا إن المعارفلم تخلق للمرأة وإن العلم يذهب بجمالها وتواضعها ولطفها وإنه يجعلها متكبرة جافية محتقرة العائلة هازئة بالرجل، وها نحن نراها إذا تعلمت زادت جمالا وحنانا أكيدا واحتراما للعائلة وإجلالا للرجل، إنها الآن تفهم معاني الحياة وتريد بكل قواها ترقية نفسها وإعلاء مداركها وتربية شخصيتها، واستخدام ملكاتها في بث الخير والسعادة حولها وعلى كل ما يحيط بها، المرأة

---

[٤] المؤلفات الكاملة: جـ ٢، ص ٤٣.

[٥] المرجع السابق: ص ٣١، ٣٢.

الراقية وحدها تعرف أن لها فخرا رئيسيا واحدا، وهو أن تكون أما بكل معنى الكلمة، وبجميع المعاني التي تحملها هذه الكلمة [٦].

المتهكمون على المرأة كثيرون في هذا العصر الفوضوى، ولكن أنصارها أكثر وهم من ذوي النفوس الكبيرة والرؤوس المفكرة، بل هم أسمى وأشرف رجال زماننا، إنهم يحترمون جهادها، ويعترفون بحقوقها، ويقرون بما تأتيه من الإصلاحات الباهرة ويعجبون بإقدامها وثباتها ويرون في نهضتها أيدي جديدة عاملة لخير الإنسانية وتخفيف الويلات عنها.

أليس فيكتور هيجو هو القائل إن تحرير المرأة، أكثر المشاكل الاجتماعية وبعض المدنية، وإنه ينتظر منها وحدها إلغاء الحرب في العالم؟ وهو القائل أيضا إن القرن العشرين هو عصر المرأة.. ولقد صدق في نبوءته! في كل مكان تفتح المرأة عينها لنور الحياة حتى في أطراف الشرق الأقصى، في الصين واليابان، وفي تركيا، وها أنا أرى شرارة الحياة تشتعل في مصر أيضا، حيث الرجال يساعدوننا بأقلامهم وبألسنتهم وبمثلهم. وجل ما يتمنون هو أن تستحق النساء عنايتهم واهتمامهم بأمرهن، أجل في مصر تتكسر القيود الدهرية التي طالما عذبت فكر المرأة ونحن اليوم عند عتبة مستقبل باهر.

أتكلم الآن بحرقة كأني صوت المرأة الصامت منذ أجيال، وتستمعون إلي باشفاق كأنكم نفس الرجل المشتتة منذ ابتداء الدهور. والنفس الكبيرة المبعثرة تستجمع قواها للإصغاء، والصوت الخافت الذي لم يتعود إلا همس الطاعة وتمتمة التمرد المبهم، يرتفع الآن آتيا من بعيد من عمق أعماق الدهور السوداء،

---

[٦] المرجع السابق: ص ٣٥.

من أقصي أقاصي الخليقة العجيبة آتيا من القبور، من البحار، من عناصر الحياة جميعا صارخا.. أيها الرجل! لقد أذللتني فكنت ذليلا، حررني لتكن حرا، حررني لتحرر الإنسانية.."[7].

تقول مي في أول رسالة بعثت بها إلى باحثة البادية ملك حفني ناصف: "قولي يا سيدتي.. تكلمي! ضمي يدك البارة إلى الأيدي التي تحاول رفع هذا الجيل من هذه الحيرة والتردد بتعليمها واجباتها.. إن صوتك خارج من أعماق القلب، بل من أعماق الجراح، صوت كصوتك، قد يفعل في النفوس ما تفعله أصوات الأفكار، لا يهمنا أن تخفي تلك اليد النحيفة وراء جدران حذرك، وأن تحجبي هيئتك الشرقية وراء نقابك الشعري، مادمنا نسمع صوتك مع صرير قلمك ونعرف منك الروح العالية.. فهنيئا لوطن يضم بين أبنائه مثيلاتك.. وهنيئا لصغار يشتقون وعود الهناء من ابتساماتك، ويسكبون حياتهم في قالب حياتك".

ولم تتوان مي عن مؤازرة المرأة العربية في أي مكان أو في أي أرض من بلاد الله أو بلاد العروبة، فقد ناصرت عائشة التيمورية وملك حفني ناصف، وكانت مع زعيمة النهضة النسائية هدي شعراوي إلى نهاية الدرب.. وأيدت جوليا طعمة الدمشقية، ووردة اليازجي وسلمي صائغ الأديبة اللبنانية، وكان تأييدها لهؤلاء بالرسائل الخاصة أو الرسائل العامة، أو الدراسات أو المشاركة العلمية لهن.. ومن رسائلها الخاصة إلى سلمى صائغ، الرسالة الآتية بتاريخ ٦ ديسمبر سنة ١٩٢٣:

"أنت ربيع يا سلمي! أنت ربيع بلادنا الملون، المنشد، الشفاف، الخصيب، في هذه النسمات رياح تهب وتعصف، إلا أن الربيع يتغلب عليها ويخرسها كما

(٧) المرجع السابق، ص ٣٦.

تخرس أصوات الأجراس – أجراس العيد –كل همهمة، وتعلو فوق كل زئير وكل زفير، أنت ربيع! وفي سماء الربيع منك يحلق جناحا "الأمومة".. أنت أم لبنانية صالحة في أفق لبناني جميل"[٨] .

ولم تكن ترى تعليم المرأة مسوغا يجعلها تضرب بتقاليد مجتمعها عرض الحائط فهي ترى أن المرأة تتعلم لتكون "زوجة" ناجحة وأماً بالروح لا بالجسد فقط.. وقد راعها أن ترى النساء منشغلات عن أطفالهن: منصرفات عن مسئولياتهن.. مقبلات على الزينة والأحاديث الفارغة.. فخاطبتها قائلة: "صغيرك يناديك فلماذا لا تجيبين، يا أم الصغير؟ لست بالعليلة لأني رأيتك منذ حين تميسين بقدك تحت قبعتك والجواهر تطوق العنق منك.. أنت صحيحة الجسم، فلماذا لا تسرعين؟ ألا تحرقك دموع الطفل الذي لا ترين؟ ألا يوجعك الشهيق الذي لا تسمعين؟ عودي من نزهاتك الطويلة وزياراتك العديدة، وأحاديثك السخيفة، عودي واركعي أمام الصغير واستسمحيه عفوا.

لقد خلقت امرأة قبل أن تكوني حسناء، وكيفتك الطبيعية أماً قبل أن يجعلك الاجتماع زائرة .. ناغي الصغير! إن دموع الأطفال لأشد إيلاما من دموع الرجال"[٩] .. فليس بدعا أن نقول إن "ميّ زيادة" رائدة من رائدات النهضة النسائية العربية الحديثة.

---

[٨] محمد عبد الغني حسن: مرجع سابق ص ١٢٣.

[٩] المؤلفات الكاملة: جـ ٢، ص٣٠٦.

أزاهير المبدعة

تنوعت الفنون الأدبية التي عالجتها ميعلى اختلاف موضوعاتها، ولم تكتفِ بفن أدبي واحد كالشعر أو الترجمة مثلا. وربما يرجع هذا التنوع في الإنتاج الأدبي إلى مواهبها المتعددة وملكاتها المتفردة ، ويرى بعض الباحثين أن "مي" لو تخصصت في فن أدبي واحد لتركت تأثيرا كبيرا في أدبنا العربي المعاصر، ويبدو أن مي لم تقتنع بهذا، فنهلت من كل فن وأعطت في كل فرع من فروع الأدب.

وفي هذا المقام لسنا بصدد تحليل وتقييم مؤلفات مي، لأن هذا يحتاج إلى بحوث منفردة، لكننا نشير مجرد إشارة، ونعرف القارئ بالفنون الأدبية التي عالجتها مي من خلال مؤلفاتها، أما التحليل والنقد فنتركه لدراسة متخصصة، خاصة بذلك الغرض ورأيت أن أفضل السبل للتعريف بالفنون الأدبية التي عالجتها مي أن نرتكز على مؤلفاتها.

درجت مي منذ نعومة أظافرها على نظم المقطوعات الشعرية – "باللغة الفرنسية – وشجعها على ذلك والداها، فكان والدها يحثها على القراءة والاطلاع، "كذلك كان لمدرسة عينطورة بلبنان أثر كبير، ساعدها على إجادة اللغة الفرنسية، فقرأت أدبها وتعرفت على شعرائها، وأعجبتبالشعراء الرومانسيين أمثال لامرتين (١٧٩٠ –١٨٦٩) وألفرد دي موسيه (١٨١٠ – ١٨٥٧)، وبعد أن انتقلت إلى مصر مع أسرتها، أصدرت ديوانها الأول وباكورة انتاجها الأدبي"أزاهير حلم" Fleurs derere بتوقيع ايزيس كوبيا Isis Cobia، وكان لهذا الديوان صدي كبير في الأوساط الأدبية وقتها، ظل المفكرون ومتذوقو الأدب الفرنسي يتساءلون.. ترى من تكون.. "ايزيس كوبيا "[(١)] !!

وتميز هذا الديوان بنزعته الرومانسية التي تجلت في الشغف بالطبيعة والكآبة والحزن والتأوهات، وكانت أكثر قصائد الديوان في مخاطبة الطبيعة والاندماج معها ككائن حي، والتحليق مع الخيال نحو آفاقه، وتغنت فيه بجبال لبنان وأوديتها وغاباتها وبالمقطم والنيل.

وأهدت ديوانها إلى "لامرتين" وقدمت ديوانها إلى القراء بكلمة قصيرة تقول في المقدمة (التي كتبتها في أول مارس عام ١٩١١ كما نتبين من التاريخ بجانب توقيعها): "هذا الكتاب صغير الحجم ضئيل القيمة، إلا أن لكل كائن في هذه الحياة خفقات ولكل نفس وثبات، كل منا يعبر عنها حسب هواه.. ليست قيمة الأثر بأهميته قدر ما هي بإخلاصه.. فيا أيها القارئ اللبيب! يامن تقرأني.. لا

[(١)] إيزيس إلهة مصرية قديمة كانت أما لحورس، وهي تقابل ماري أو مريم، وكوبيا كلمة لاتينية معناها الزيادة والكثرة

تحاول أن تحلل أو أن تنتقد بل ابتسم، فالابتسامة الرحبة الغفور هي أجمل أزاهر النفس، فلا تبخل على بهذه الابتسامة ".

يقول أنطون جميل واصفاً مجموعتها الشعرية الأولى "الكتاب مجموعة أزهار عطرية نبتت في رياض الأحلام الجميلة.. الروح المتألمة ترف على كل صفحة من صفحاته وتجعل الكاتبة تقول في قصيدة "هل هي شاعرة"؟ ما معناه البكاء والرأفة والحب والألم هذه هي صفات الشاعر، وقد ظهر من الموضوعات التي طرقتها الكاتبة أنها لا تصف إلا ما ترى، ولا تعبر إلا عما تشعر به، فجاءت منظوماتها صورة حقيقية لما يشغل فكرها ويحرك قلبها، ولذلك أنت تشاركها عند تلاوة أشعارها في هذه العواطف، أيا كان رأيك في القالب الذي سكبتها فيه، فلا تتمالك من أن تصبو معهاإلى مصر ونيلها وآثارها وسهولها، وتحن معها إلى لبنان وجباله وأوديته، وإذا كانت "إيزيس كوبيا" شاعرة في نظمها فقد وجدناها أشعر منها في تلك الصفحات النثرية التي ختمت بها "أزهار أحلامها"، حيث لم تعد مقيدة بقيود القافية والوزن، وكثيرا ما تكون الأزهار المنثورة أجمل من الأزهار المضفورة" [٢].

أما الشاعر خليل مطران فإنه كتب عن تلك المحاولات قائلا: "قفص من الذهب يتحرك في داخله، ويتنقل بين أسلاكه اللامعة عصفور صغير ملون الريش، مرح كل المرح، كأنه يضرب بأجنحته الصغيرة جوانب هذا القفص الذهبي ليفلت من قيود أسلاكه وينطلق فيه إلى الجو الفسيح لأنه لا يطيق الاحتباس، ولا يقدر أن يكون سجينا في مكان ضائق بأمانيه في الحياة"[٣].

---

[٢] محمد عبد الغني حسن: مرجع سابق ص٢٠٧، ٢٠٨.

[٣] المرجع السابق: ص ٢٣٩.

لقد تعالت أعماق ميّ مع رؤي الطبيعة وانعكس هذا على ديوانها، فها هي تهتف:

دعـــوني فـــي هـــذا الملجـــأ الـــساحر
دعـــــوني وحيـــــدة أحيـــــا مطمئنـــــة
بعيـــــدة عــــن ضوضـــــاء المـــــدن
دعـــوا لأنظـــأرى تلـــك الـــرؤي العذبـــة
دعـــوا لأفكـــأرى أحلامهـــا الرخيـــة
دعــــــوني أنعــــــم بالرقـــــاد
دعـــوني أيامـــا فـــإني لا أود أن أســـمع
إلا الحفيـف.. الخفيـف.. الموسـيقى.. الحنـون
الـــذي تتـــنفس بـــه هـــذه الجبـــال
ألا أبعـدوا عنـي– ولـو حينـا – أصـوات البـشر
التـــي تتـــبطن الجـــسد والحقـــد والغـــل
هنـــــا يطيـــــب لنـــــا الحـــــب
أجـل يطيـب لنـا الحـب: بـين الأشـجار المنعزلـة
والخرائـب البائـدة ومـا حملـت مـن أخبـار الزمـان
وهــــــذه الـــــصخرة الكئيبـــــة
كـل مـا فـي هـذه الربـوع يجـذبني ويـسحرني
الأوراق التي أحسها تنبض والعصافير التي تغرد
كلمـــــا رأتنـــــي أدنـــــو "[٤]

[٤] مي زيادة: أزاهير حلم، ترجمة: جميل جبر، منشورات دار بيروت ١٩٥٢، ص٨،٩.

ويبدو أن ميا كانت متأثرة إلى حد كبير بالرومانسيين الأوروبيين الذين يتسم إبداعهم بعشق الطبيعة والإبحار في عالم الخيال والكآبة.. وتجلت الكآبة عندها في كثير من قصائد الديوان تقول في قصيدتها المعنونة "كآبة": "حزينة اليوم روحي وحزنها القاتم مؤلمي، فعلام الاكتئاب.. أترى الأوراق المتناثرة عن غصونها تدري لأي غرض تقبلها الريح تتلاعب بها في تطايرها؟ إنها لتتناثر تلك الوريقات المسكينة وتتهاوي أكواما، هي التي كان يمضها إصر الالتصاق بشجرة أنالتها الحياة، هي التي نزعت إلى الانعتاق والتحرر، ها هي فينهاية الأمر فائزة بحريتها[٥].

تقول ميّ في (وداع لبنان)..

"لياليك يا لبنان! طبعت في إنسان عيني غورها السحيق
وغياهبها الظلماء
ورسمت من أخيلة كواكبها في كياني أطياف البرق الخلب
ونثرات الضياء
وهدير شلالاتك المقتحمة الدافقة
كون بي شلالات ذات جبروت وعصيان
ورقرقة أنهارك أجرت في أنهار المحبة.. "[٦]

ولقد وجدنا في إعداد مجلتي "الهلال" و"المقتطف" التي صدرت ما بين عام ١٩٢٣ وعام ١٩٢٥ ترجمات لبعض قصائد "أزاهير حلم"بقلم ميّ، ضمها

---

[٥] المرجع السابق: ص ١٣.

[٦] السابق: ص ٣٤ .

الدكتور جميل جبر إلى القصائد الست التي ترجمها إلى العربية في الكتاب الذي نشره ببيروت عام ١٩٥٢ بعنوان "أزاهير حلم" وقد ترجم فيه أكثر اللوحات النثرية، وأعطاها عناوين من عنده، وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن كتاب "أزاهير حلم" الذي قدمه الدكتور جبر لمحبي أدبها، هو لا يمثل ديوان شعرها الفرنسي بكامله، لأن عدد قصائده الموزونة بلغ ثلاثا وأربعين قصيدة"[٧].

ونجد أنها بعد أن أصدرت ديوانها بالفرنسية، اتجهت للكتابة بالعربية لغة قومها وأجدادها وذاعت شهرتها بالأعمال الأدبية التي قدمتها.. والجدير بنا أن نذكر أن مي لم تنظم الشعر العربي، ولا يعرف الذين اتصلوا بها أنها شغلت بمعالجته.. رغم أنها كانت تطرب للشعر العربي، وتحفظ منه ما استطاعت لكنها كانت القراءة للشعر العربي في مختلف عصوره، وقدكانت شديدة الشاعرية في أسلوبها النثريالذي لا يتقيد بوزن ولا قافية، وكانتتتمن أن تنظم الأبيات أو القصيدة، فلم تنظم شعرا، بل لم تنظم بيتا كاملا، وفي ثنايا حديث لها مع الأستاذ طاهر الطناحي[٨] قالت إنها لم تنظم في حياتها إلا شطرا واحدا، حين اقترح عليها والدها أن تخمس البيت الأول من هذين البيتين:

أرى آثارهم فأذوب شوقا وأسكب في معاهدهم دموعي
وأسأل من بفرقتهم بلاني يمن علي يوما بالرجوع

قالت: "ميّ": فلم أستطع إلا أن أقول هذا الشطر الأعرج. "عرفتهم فأضحي القلب رقا..".

---

[٧] سلمي الكزبري: مقدمة المؤلفات الكاملة، ص ١٩.

[٨] طاهر الطناحي: مرجع سابق، ص ٣١ .

ولهذا أؤكد أنه ليس صحيحا ما روي أنها بعثت إلى إسماعيل صبري بيتين، فأجابها عنهما بثلاثة أبيات، فردت عليه ببيتين، وأرجح أن يكون أحد أصدقائها هو الذي نظم ما نسب إليها في إحدى جلسات الصالون، أو أن إسماعيل صبري هو الذي نظمه، فقد جاء في ديوانه أنه كتب تحت بيتين قالتهما أديبة معروفة "ميّ" وهما:

فـــديتك يـــا هــــاجري   فهــــل ترتـــضي بالفـــدا
ســـهرت عليـــك الـــدجي   وبحــــت ولكـــن ســـدي

فأجابها:

أهـــــاجرتي أطفئــــــي   لـــــواعج لا تنتهـــــي
مـــضت فـــي هـــواك الـــسنون   ومــــا نلـــت مـــا أشـــتهي
إذا قيـــل مـــات الأديـــب   بفاتنـــــة.. أنـــت هـــي

فلما قرأت أبياته كتبت تحتها:

زمانـــك قبلـــي انتهـــى   ولا يرجـــــع المنتهـــــى
فحـــــسبي أن أزدهـــــى   وحـــــسبك أن تـــــشتهى

هـذا مـا ورد فـي الـديوان، وميّ لـم تقـل شـعرا إلا شـطرا واحـدا فـي تلـك المناسبة، لأن تربيتها المحافظة التي يعرفها الجميع، وأخلاقها التي يغلب فيها الوقار والحياء، تأبي عليها أن ترسل شعرا في الحب لأحد من الناس مهما كان صديقا عزيزا.. وليس معنى عدم نظمها للشعر العربي أنها لم تكن لها آراء

ومواقف فيه، فقد اطلعت على الكثير من الشعر العربي من جاهليته حتى العصر الحديث، وكانت تتذوق الشعر وتنقده ولها نقد للنشيدين القوميين اللذين وضعهما "أحمد شوقي" ومحمد الهراوي.

يقول الهراوي:

فيا وادي الكنانة لن تزولا	وفيك النيل يجري سلسبيلا
يطوف بمائه عرضا وطولا	ويبسط فيضه عاما فعاما
فيابن النيل، هزَّ لواء مصرا	وهيىء في النجوم له مقرا

تعلق ميّ على الأبيات قائلة: " كيف يكون لواء مصرفي النجوم.. وهيأ في النجوم له مقرا ثم يعيش "ابن النيل" في ظل ذلك اللواء وهو في مصر بالقارة الإفريقية.. هذا ما لا يستطيع تفسيره أحد، وليس من تفسير ممكن سوى أن الشاعر وجد أمامه معنى قديما ذا طنين، فاستعاره ضاربا صفحا عن مخالفته، لأبسط أصول العلم والمنطق وهذا ما نفعله جميعا ومرات عديدة في الشعر والنثر والخطابة والمحادثة العادية، وهذا "الغلو البديعي" هو من ألزم عيوب الآداب العربية" [٩].. إن نقد ميّ للشعر كان يدل على سلامة ذوقها وحسها المرهف.. وكانت ترى أن الوجهة المعنوية للشعر العربي الحديث، لم تبرز بوضوح، وترى أن الشعر الحديث لا يرمي إلى غرض مقرر يرمي إليه، إلا كونه سائرا مع الجيل الجديد من الشعراء إلى التحرر يوما فيوما من الأسلوب القديم والتعبير القديم والقيود الصناعية.. التي يتمشى عليها أنصار القديم آمنين.. وعن المؤثرات التي

[٩] المؤلفات الكاملة: جـ ١، ص ٤٥٦ .

تؤثر في وجهة الشعر العربي القديم، فأهمها الشعور بحاجة البلاد وآلامها والشعور، كذلك بجمالها وخلودهايصحبه استفزاز العاطفة الوطنية والتغني بحميد الصفات الشرقية، وتعظيم الشرق وتمجيد الحرية، ومؤشرات أخرى اكتسابية أتت عن طريق الدراسة والاطلاع على مبتكرات الغرب فلفتت الشعراء إلى ما هو جدير بعنايتهم وأغانيهم، وشرحت لهم بعض ما يخالجهم، ودلتهم على كيفية الإفصاح عنه، وعندي أن أظهر ميزة في أبناء اليوم أنهم يعتلجهم القلق أمام مشاكل العالم، أدركتهم حمي الحياة فهم يبحثون من المسائل، ويعون من معاني المجتمع والطبيعة، ويحسون من روح الوجود ما كان ولا يزال الجيل السابق غافلا عنه، ومن الدلائل اعتقاده البادي في آثاره أن مشاكل العالم تحل "بالنصائح"، وأن ما نراه من التشويش والضجيج راجع إلى "عناد" الناس وغرورهم(١٠).

وكانت تؤمن بالدور الهام الذي تلعبه الجماعات الأدبية في الوطن العربي، وترى أن الجماعات يجب أن تكون متخصصة كجماعة للشعر أو رابطة للنثر مثلا.. وكانت ترى أن الصلة بين شعراء مصر وشعراء العرب المحدثين من غير المصريين ليست قوية من حيث تفاعل الأفكار، وإنما هي متشابهة من حيث الدوافع القومية والمناهج البيانية.

ورغم أنه يتعذر تحديد الشعراء العرب القدماء الذين أثروا في الشعر الحديث – رغم هذا التعذر – لكن مي ترى أن المتنبي وأبا العلاء هما أكثرتأثيرا، فالأول من ناحية المفاخرة والثاني من ناحية النزعة الفلسفية التي يغلب عليها التشاؤم والاستياء.

---

(١٠) السابق: ص ٥٠٩.

وما كانت تحب ميّ المفاضلة بين شاعر وشاعر، سواء في القديم أوالحديث أو في الشرق أو في الغرب.. وترى ميّ أن كل واحد من هؤلاء الشعراء "الذين يفاضل بينهم" المختلفون مذاهب ومشارب، وبيئات ومنازل – يعطينا صورة عصره وبيئته، بل صورة الإنسانية في جميع العصور وجميع البيئات ملونة بلونه متكلمة بصوته.

الخطيبة والمحاضرة

لما كانت ميّ تلميذة في مدرسة الراهبات بعينطورة، كانت المدرسة تكلف التلميذات بإلقاء خطب تعدها لهن المعلمات، ويمثلن كذلك بعض القصص، فكان هذا يستفزها إلى التأليف والخطابة، حتى اشتهرت في المدرسة بجودة الإلقاء والإنشاء في اللغتين الفرنسية والعربية.

وظلت موهبة الخطابة تنمو معها، حتى بعد أن انتقلت أسرتها إلى مصر، ولما عادت في صيف أحد الأعوام إلى لبنان – وهي ما تزال في مطلع شبابها – حاولت أن تتفرغ للقراءة والترجمة عن الألمانية التي كانت تعلمتها حديثا وقتذاك، لكنها تبرمت من إضاعة وقتها في التسلية ومجاملة الأهل والأصدقاء، فأبدت رغبتها في عزلة تخلو فيها إلى نفسها ودرسها، واستجاب لمطلبها في العزلة أحد جيرانها، فبني لها كوخا أخضر السقف والجدران وجلله بالغصون وورق الشجر، ومن الداخل كساه بحرير أخضر، فسعدت ميّ بهذه العزلة في "شهور الشوير".

ولما اجتمع الجيران وأعيان المصيف لتكريمها في "أغسطس"عام ١٩١١، وقفت خطيبة بينهم قائلة: "لا أجرؤ على رفع كأسي، لأن من رفع كأسه في مثل هذا الموقف وجب عليه تأدية الثمن كاملا بليغا، وأني لي البلاغة، أنا التي يتعثر

لساني في اللفظ العربي البسيط؟ وكيف أجيء بالكلمة المحكمة أنا التي لا أعرف شيئا، وقد فاجأتني عنايتكم بقول جميل منظور ومنثور، وبثناء قد يستحقه عالم قضي عشرات الأعوام في البحث والتنقيب والإنتاج، ولكنه يدهش فتاة مازالت عاكفة على كتب التلمذة الأولى، تستظهر من الدروس ما يستظهره طلبة المدارس الابتدائية تقريبا..

لو علمت أن الاحتفاء بي وحدي مجردة لحبس الخجل كلمة الشكر على شفتي، ولاختلجت يدي وهي تحمل الكأس.. ولكني أعلم أن الغاية من هذا التكريم أبعد من أن تحصر في فتاة، وأعظم من أن توجه إلى فرد وإنما الغاية منه تشجيع الفتاة الشرقية عموما التي تقولون لها في شخصي إن الشرق روح جديدة تطلب نهضتها، وإن عيونكم ترقبها وقلوبكم ترعاها منتظرة ما يتم عن رغبتها في النهوض أو عن مجرد ميلها إليه، لتمدوها بالقوة والتنشيط الممكن [١١].

وفي مصر والوطن العربي شاعت الخطابة، فكان الشيوع حافزا لتقف على المنابر أسوة بالخطباء والمصلحين، لقد ذاع صيت ميّ الخطيبة من يوم أن وقفت موقفها الأول الرائعفي تكريم الشاعر خليل مطران عام ١٩١٣، على إثر الإنعام عليه بوسام ملكي، وقد بعث الشاعر جبران خليل جبران صديق مطران كلمة تقرأ في الحفل، فاختيرت "مي زيادة" لإلقائها وكان هذا في حفل رسمي حضره علية رجال القوم من وزراء وأدباء وصحفيين وقضاة وبعض المستشرقين، وعقبت ميّ على كلمة جبران بكلمة من إعدادها.. وفوجئ الجمهور بها وبصوتها الخفيض

---

[١١] السابق: جـ ١، ص ٩، ١٠.

الساحر الرقيق تنطق الفصحي بلغة خلابة تأسر السامع، في نبراتها موسيقى تمنح الكلمات خلجات نفسها فتستنطق الأحاسيس المدفونة وتثير العواطف، ومن الذين بهروا بميّ يومها طه حسين الذي كان بين المدعوين، فقد سمع كثيرا من الشعر، وكثيرا من الخطب، فلم يحفل بشيء مما سمع، لم يعجبه حافظ إبراهيم في ذلك المقام، ولم تعجبه قصيدة "مطران" لم يرض طه حسين عن شيء مما سمع إلا صوتا واحدا، سمعه فاضطرب اضطرابا شديدا وأرق له ليلته تلك.. كان الصوت نحيلا ضئيلا، وكان عذبا رائعا، لا يبلغالسمع، حتى ينفذ في خفة إلى القلب فيفعل به الأفاعيل.

وكان مما قالتهيومها معقبة على كلمة الشاعر جبران خليل جبران"كل ما تشتاقه الأرواح تبلغه الأرواح.. صدى الكلمات الأخيرة التي تموجت في مسامعكم أيها السادة ما زال يرن على أبواب فؤادي، مثيرا فيه ميلا إلى الكلام، منبها في أعماقه شبه قوة اكتفت بالإصغاء حينا وهيتحاول الانقلاب إلى همس، إلى نغمة إلى صوت أنسي ينقل إلى عالم السمع سرائر التأثيرات النفسية، في هذا الاجتماع البهي لم نسمع إلا أصوات الرجال مادحة، مقرظة، معجبة، شاكرة، مفتخرة، وصوتي الصوت الوحيد الغريب بين تلك الأصوات القوية الجميلة، إنما ارتفع ليقوم مقام صوت رجل غائب.

والآن أريد أن أتكلم بنفسي وبصوت جنسي..

أيها السادة، من يريد إكرام النبوغ الذي نحييه اليوم وتربية عاطفة الشكر في صدور الرجال، فليذهب إلى بيته ويعلم أبناءه ترتيل القصيدة الخليلية [١٢]، ويضع بين شفتي صغاره رنات تلك الأسجاع الموسيقية.."[١٣].

ومن يوم أن وقفت مي خطيبة في الحفل الذي أقيم لتكريم "مطران" والأدباء يترقبونها في المحافل والمنتديات الأدبية بصوتها الساحر.. فهي تعرف مجال التأثير في نفوس أحبت الخطبة الشاعرة، وكرهت القصيدة الخطابية.. واقتصرت الخطابة لدى أديبتنا على نطاق الخطابة الأدبية فقط بل تعدتها إلى الخطابة الاجتماعية.

ومن أمثلة ذلك وقوفها على المنابر والجمعيات النسائية في مصر تدعو إلى إغاثة لبنان في محنته الأليمة – ففي خلال الحرب العالمية الأولى فتك الجوع بالشعب اللبناني وهاجر بعض اللبنانيين إلى مصر – فكانلها الدور العظيم في إنقاذالجياع وإغاثة المشردين.

وفي ثورة عام ١٩١٩ التي قامت بمصر، كان للخطابة دور هام في إشعال حماس الشعب، فوقفتمواقف مشهودة تندد بالاحتلال وتنادي بالحرية والاستقلال.. "وإذ أعد الخطباء في أيامها وقد أسهموا في الوعي الوطني والثقافي أمثال سعد زغلول ومكرم عبيد والهلباوي، فإن ميا، ممن شاركوا في هذا الأمر بالخطابة، حتى إن المستشرقين الذين شهدوا مواقفها وسمعوا خطبها ذكروا في مؤلفاتهم أن مصر في هباتهم القومية كانت تعتز بخطيبين أديبين هما توفيق دياب وميّ زيادة"[١٤].

---

[١٢] نسبة إلى خليل مطران.

[١٣] المؤلفات الكاملة: جـ ١، ص ٩، ١٠.

[١٤] وداد سكاكيني: مرجع سابق، ص ٨٣ .

وقد وصفها الدكتور منصور فهمي بقوله: "لقد أعجبت بالآنسة مي محاضرة كما أعجبت بها كاتبة، فقد كانت في ذلك المضمار مجلية، ولا أعدو الحق إذا قلت إنها كانت محاضرة من أرقي طرازا وأعلى غرارا، ولعل أسبابا كثيرة اصطلحت على تفوقها في ذلك الميدان فقد كان لها من عذوبة صوتها، وحسن أدائها، وحلاوة إلقائها، ووسامتها وحسن سماتها معين على ذلك، وكانت تميزها حين تقف للخطابة في حفل أو المحاضرة في جمع ثقة بنفسها واعتداد بشخصيتها، فما عرفت أنها تهيب منبرا، أو خشيت موقفا أو غشيتها سحابة من جبن، أوجللتها غمامة من خوف، بل كانت دائما الواثقة الشجاعة"[١٥].

وكان لحديثها سحر يجذب المستمع، حتى أن الأستاذ العقاد نفسه يقول: "إن ميا كانت فيما تتحدث به كالذي تكتبه بعد روية وتحضير، فقد وهبت ملكة الحديث في طلاوة ورشاقة قادرة على إدارة الحديث بين جلسائها المختلفي المزاج والرأي والثقافة والمكانة".

حتى عندما ابتليت بمحنة الاضطهاد في بيروت.. كانت تستقبل زوارها في منزل أجر لها في "رأس بيروت"، وكتب الأستاذ القاضي خليل الخوري مقالا ذكرفيه جلساء ميّ في محنتها، قال فيه: ".. يختلف إلى نزل النابغة ميّجماعة من الأصدقاء لمواساتها، بل للاستمتاع بمجالسها والإصغاء إلى حديثها الذي لا ينضب معينه.. فقد ضربت بسهم وافر في كل معلوم ومجهول، وإنك لتلمس في حديثها الروح الحي والظرف الذي به تجعل الموضوع الجاف الذي لا يحبه كل الناس كالتاريخ مثلا موضوعا يلذ لك سماعه من لسان ميّ، وأظهر ما فيها مقدرتها

---

(١٥) محمد عبد الغني حسن: مرجع سابق، ص٢١٧.

على استهواء كل جليس، فهي تستطيع التحدث إلى الساذج فتنزل اليه وتصبح كأنها شخص آخر، ثم تصعدبه قليلا حتى يرقي عن سواه"..

"عهدنا الناس على العموم، المتعلم منهم والجاهل، ينفرون من الإصغاء إلى الأحاديث الجدية التي في استيعابها كلال للذهن، ولكنا رأينا ميّ تسيطر عليهم بما وهبها الله من قوة تستطيع بها جعل الإصغاء إليها لذيذا حتى في الموضوعات الحديثة فيستفيد منها العالم والجاهل والرجل والمرأة والطفل، فهي تسلب الألباب جمعاء يزورها أصحابها ليمكثوا معها وقتذا فإذا بهم مكثوا أضعاف أضعافه وقد مرت كالبرق الخاطف.." [١٦].

ويرى الأستاذ سلامة موسي أن أحاديث أديبتنا أروع من كتاباتها ويرجع سبب هذا إلى كونها شرقية تخاف أن تبوح بالكتابة بكل ما تفكر فيه، ولكن الخوف يزول عنها حينما تتحدث..وكانت كذلك محاضرة بارعة، لا تتكلف ولا تتصنع بل كانت على سجيتها في الأداء والإلقاء وكانت أول محاضرة لها عام **١٩٢١**م في الجامعة المصرية عنوانها "غاية الحياة"، تقول ميّ عن غاية الحياة: "لا أعرف كلمة خطيرة كهذه وأكثر تفلتا من حدود التعريف، إن لفظة "الحياة" في معناها التام تشمل الكون بأسره مما يري وما لا يرى، وهي ذلك التيار الخفي النافذ في كل شيء، المحيط بكل كائن، وقد حوي من الاقتدار والجبروت ما ألقى في روعنا أنه من روح الله، كأننا نحسب الحياة من نسمات نور وانعاش منطلقة من صدر تلك القوي الكبرىالتي نسبح جميعا في بحار وجودها ونسميها الله.. فإذا شمل معنى الحياة جميع الموجودات فأني لنا تعيين غايتها؟ من ذا الذي يجرؤ على تعيين غاية

---

[١٦] جريدة "المكشوف": ع ١٤٨، بيروت، ١٩٣٨.

الفلك في دورته، والنجوم في سيرها، والمذنبات في تكوينها، والشموس في تشععها واحتراقها، والنيازك في تساقطها على الأرض أحجارا سوداء؟ من ذا الذي استشف من البحار غاية المد والجزر ومن القمر غاية الاكتمال والانتقاص، نحن نعرف بعض الأسباب الطبيعية في الخليقة وما ترتب عليها من النتائج، ولكن لماذا تعمل تلك الأسباب، وما غاية هذه النتائج، وإلى أين يقودنا هذا الوجود وهذا الفناء؟ لغز رائع لا يحله الإنسان مهما ارتقي علما وفضلا وإخلاصا.. "[17] .. وكانت ميّ في محاضرتها خصبة الرأي والفكر فياضة في بيانها، واقعية في نزعتها الخطابية، ولما ألقت ميّ محاضرتها.."فضل المرأة على الحضارة الإنسانية" في الجامعة الأمريكية بالقاهرة تصدى لها الدكتور طه حسين في نقد دعابي نشره في مجلة "الرسالة" عام ١٩٣٢م.

"فقد كان صديقها الدكتور طه في طليعة المستمعين لمحاضرتها، فأحب أن يخالف عن رأيها في فضل المرأة على الحضارة الإنسانية، زاعما بأن الحضارة نفسها هي صاحبة الفضل على المرأة والرجل، ولو أن محاضرة ميّ كانت عن الحضارة العلمية لحق لناقدها الدكتور طه أن يتهكم على ادعاء ميّ، فضلا للمرأة على الحضارة ولا ينكر المنصف ما كان للمرأة قديما وحديثا من مشاركة قوية أو ضعيفة في الحضارة الإنسانية حتى في مجال العلم الذي أحب الدكتور طه أن ينفي فضل المرأة فيه، وينسي مدام كوري وأمثالها.."[18].

---

[17] المؤلفات الكاملة: جـ ١، ص٦٤٥، ٦٤٦.

[18] وداد سكاكيني: مرجع سابق، ص ٨٧.

ولأديبتنا محاضرات وخطب عديدة في مختلف المجالات والمناسبات قد جمع معظمها في كتب والبعض الآخر لم ينشر، فكتابها "كلمات وإشارات" يضم العديد من الخطب، وقد جمعت الباحثة سلمي الحفار الكزبري بعض الخطب والمحاضرات لميّ وجمعتها في كتاب كان هو الجزء الثاني لـ"كلمات وإشارات"، ومن الكتب التي ضمت محاضرات ميّ أيضا كتابها "ظلمات وأشعة" و"الصحائف" و"بين الجزر والمد"، بجانب محاضرات أخرى منشورة على صفحات المجلات.

وقيل إن آخر محاضرة ألقتها كانت بالجامعة الأمريكية في بيروت عام ١٩٣٨، ولقد شاءت أن تثبت للملأ فداحة ما اتهمت به، ولقد صمت صوتها لحظات وهي تلقي المحاضرة فخشى الحضور أن يسقط النسر المحلق.. لكن مي صمتت ليتكلم دمعها.

وقفت أديبتنا قرابة "ساعتين" تتحدث في قوة دافعة، ومقدرة ساطية عن رسالة الأدب في الحياة، وترى "أن رسالة الأديب تعلمنا أن العالم العربي على تعدد أقطاره وحدة واحدة تشغل مكانا فسيحا في القارتين الآسيوية والإفريقية.. وتعلمنا أن نفاخر بلغتنا العربية الممتازة على سائر اللغات بأنها ولدت لغات قديمة اندثرت منذ قرون، ومازالت العربية تفيض حياة، مجارية حتى أحدث اللغات بالقوة والمرونة والجزالة والرشاقة، كل أمة تسعى الآن إلى نشر لغتها بين الأمم الأخرى، باذلة في سبيل ذلك المال والإغراء والدعاية والجهود، أما نحن فانتشار لغتنا شيء واقع وميزتها هذه تربط بين العربية برباط قوي جاعلة الفرد الواحد منا ملايين".

رسالة الأديب تعلمنا كيف نخلق حضارة أدبية، إذ بها لابغيرها، تقاس مواهبنا ويسبر غور طبيعتنا، وهي التي تثبت وجودنا، وتنطلق بلساننا مترجمة عن مبلغ الإنسانية فينا.."[١٩].. لقد كانت مي زيادة خطيبة ومحاضرة رقصت لذكرها المنابر وطربت بسحر بيانها أندية الخطابة، ونطقت بآيات خلبت الألباب، لقد كانت تتكلم وأجفان سامعيها مشدودة إليها بالأهداب..وفي رأينا أن هناك عدة مقومات اجتمعت في شخص مي فجعلتها تتفوق كخطيبة ومحاضرة من هذه المقومات:

ثقافتها المتعددة والمتنوعة، التي جمعت الشيء الكثير من العلوم والمعارف العصرية كالفلسفة القديمة والحديثة والمنطق والتاريخ والاقتصاد وفلسفة العمران والشرائع والأديان، وكان لها معرفة بآداب اللغة العربية وبعض اللغات الأجنبية.

سلامة الذوق في انتقاء موضوع "الخطبة" أو المحاضرة مما يجعل الكلام مطابقا لما تقتضيه الحال وذلك عين البلاغة، فأسلوبها السهل الممتنع الذي كان غاية في السلاسة يدخل الآذان بلا استئذان والمعاني يأخذ بعضها برقاب بعض، وكان كلاهما من اللحن الذي كثيرا ما يشوه الخطب ويذهب بطلاوتها وبهائها.

استخدام الإشارات.. فإشارات الخطيب عامل هام من عوامل التأثير في السامع.. وتلك الإشارات التمثيلية كانت تبدر من مي رشقية.. طبيعية تأتي في موضعها بلا تصنع ولا كلفة.. ويري بعض البلاغيين الخطباء أن ثلث تأثير الخطيب لعباراته وثلثاً لإشارات الخطيب وثلثاً لنظراته الساحرة.. وقد استتب لمي العناصر الثلاثة.. فكانت بليغة فصيحة البيان وأن مؤلفاتها لهي خير شاهد على هذا.. وعن إشاراتها فيذكر من أحد مواقفها أنها ذات مرة وقفت تنتقد في

---

(١٩) المؤلفات الكاملة: جـ ٢، ص ٢٦٠، ٢٦١.

محاضراتها سلوك بعض السيدات الذي يتذبذب بين القديم والجديد، وضربت لهذا مثلا بالسيدة التي تضع على وجهها برقعاشفافا، بينما هي تسير عارية الساقين بلا جوارب.. وعندما كانت تلقي هذه العبارة مدت يدها إلى طرفي فستانها لتمثل هذه الواقعة.. فإذا بالقاعة كلها تضج بالتصفيق لهذه الحركة.

أما الناحية الثالثة وهي نظراتها، فكان لعينيها سحر قوى تجتذب بهما وإليها الأبصار والأفكار.

تأثير صوتها.. الناس يتفاهمون بطرق متنوعة منها الكتابة والإشارات والعيون والأصوات ولكن أهم هذه الطرق الصوت، لأنه حي وله قوة عجيبة في إثارة العواطف وإذابة حبات القلوب، لاسيما إذا صحبته الحركات الرشيقة وصوت مي كان رخيما.. ليس بالأجش الخشن الذي يعافه السمع ولا هو بالضعيف الذي لا يكاد يسمع، ولا بالحاد الذي يكاد يمزق طبلات الأذن.

الشخصية الجذابة.. فاللغة ليست الموصل الوحيد لأفكار الخطيب إلى عقول وقلوب سامعيه، بل إن هناك موصلا آخر روحانيا، لا يدرك بالحواس الظاهرة يساعد على إصال أفكاره اليهم، وقد رأي بعض المثقفين أن هذا الموصل هو "المغناطيسية الشخصية"، فكل من أصغ بإلى جماعة من الخطباء على التعاقب يدرك الفرق بين من كلامه يخدر الأعصاب، وينوم السامعين وبين من يثير الانتباه ويجذب السامعين، ومي قد خصها الله سبحانه وتعالى بنصيب كبير من هذه المغناطيسية أو الجاذيبية، حتى صح فيها قول الشاعر:

كأنما أوجد الرحمن صورتها   من "مغنطيس" لها الأبصار تجتذب

إخلاصها.. كانت مي مخلصة.. صادقة فيما تتفوه به، لا تنطق إلا بما تعنيه لا تعني إلا ما تقوله، والصلة بين قلبها ولسانها تامة، فالكلام الذي ينبع من القلب يصل إلى القلوب بلا حواجز أو سدود، والكلام يتفوه به اللسان ولا يقتنع به قلب قائله لا يتجاوز الأوزان.

قوة التصور.. يفتقر الخطيب إلى قوة التصور ليس فقط لتكون لكلامه صورة جلية في ذهنه، بل ليتمكن من أن يتلاعب بالمعاني وصور التعابير على نسق شائق يأخذ بمجامع الأفئدة، وقوة التصور للخطيب والمحاضر بمثابة الريش للطائر يحلق به إلى سماء الخيال، فيوحي إليه منسور الحكمة وآيات البلاغة ما لا يوحي إلى من كان عاجزا عن هذا التحليق ومي عرفت بسمو خيالها، فلا عجب أن تجري آيات البلاغة على لسانها [٢٠].

في أدب المقال

كانت بداية رحلة أديبتنا مع أدب المقال وهي طالبة صغيرة في المدرسة، حيث كانت تدون مذكراتها على شكل مقالات باللغة العربية تارة وبالفرنسية تارة أخرى.. وقد نشرت مقالاتها الأولى في جريدة والدها "المحروسة" وفي مجلة "الزهور" وكانت توقع بعض مقالاتها – لاسيما في بواكير إنتاجها الأدبي – بأسماء مستعارة منها "عائدة" و"السندباد" و"خالد رأفت" وغيرها من الأسماء.. وبعد أن رسخت قدماها في عالم الأدب، اعتمدت اسم "مي" في سائر أعمالها المنشورة وعرفت به.

---

[٢٠] داود قربان: مي في سوريا ولبنان، د. ن، بيروت، ١٩٢٤، ص ٢٤. بين المد والجزر١٩٢٤.

ومن استعراضنا وقراءاتنا لأعمالها الأدبية، نلاحظ أن كفة المقال لديها غلبت ورجحت على سائر الفنون الأخرى من أشعار ومحاضرات وترجمات وغيرها، ولها أربعة كتب تضم ما نشرته من مقالات في الصحف والمجلات من عام ١٩١١حتى عام ١٩٢٤ وهذه الكتب الأربعة هي:

سوانح فتاة	١٩٢٢
ظلمات وأشعة	١٩٢٣
الصحائف	١٩٢٤
بين المد و الجزر	١٩٢٤

وفي رأينا أن رجحة المقال في أدبها، يرجع لأسباب عدة منها:

– أن المقال هو أقرب وسيلة فنية لمخاطبة جمهور القراء والمثقفين.

– تطور الصحافة العربية في النهضة الحديثة، فارتبط أدب المقال بالصحافة، فاعتمدت الصحافة على المقال اعتمادا شبه كلي.

– تحرر المقال من رق الصنعة اللفظية والإطناب والتكرار، وكان لأدباء المقال في مطلع هذا القرن فضل عظيم في هذا.

– المقال هو الوسيلة الأولى للأدباء والمصلحين والساسة، للإصلاح والبناء.. ومن أبرز الأدباء الذين لمعت أسماؤهم في فن المقال العقاد وطه حسين والمازني وغيرهم.

والحقيقة أنها لم تتأثر في أدب المقال بأدباء مصر ولا أدباء الوطن العربي، بل تأثرت في هذا الفن بالذات بأدباء المهجر كجبران وميخائيل نعيمة والريحاني..

وتعددت الموضوعات التي عالجتها في مقالاتها من السير والتأملات والخواطر والرحلات والمقال العلمي والفلسفي وغير ذلك.. وتميز أسلوبها بالشاعرية المرهفة والرومانسية المحلقة في خيال التصوير، ومن هنا كانت لينة في معالجتها للموضوعات لا تميل إلى العنف ولا إلى التجريح أو الشدة.. فكان القارئ لا يسأم من مقالاتها سواء طالت أو قصرت.

ومنذ عام ١٩٢٢ لمع اسمها في جريدة "الأهرام"، وكانت تكلف بكتابة المقال الافتتاحي من حين لآخر، وظلت تواصل نشر مقالاتها في الأهرام حتى عام ١٩٣٥وكانت تشرف مي على الصفحة النسوية في جريدة "السياسة الأسبوعية"، وكانت تلك الصفحة تحفل بمختلف المقالات والسوانح والخواطر الثقافية والاجتماعية، وكانت تكتب مي مقالا شهريا في مجلة "المرأة الجديدة" اللبنانية التي كانت تشرف عليها الأديبة اللبنانية "جوليا طعمة".

غير أن هناك ملمحا مهماً من ملامح أدب المقال لدى"مي زيادة" ألا وهو اقتراب المقال لديها من فن القصة، فلو طال عمرها لسايرت مسيرة تطوير القصة العربية الحديثة، ولاسيما أنها نشرت ما يشبه القصة في مضمونها منها ما نشرته في مجلة "الهلال": "الحب في المدرسة" و"شمعة تحترق".

ونبتت فكرة جمع "بواكير مقالاتها" المنشورة على صفحات الصحف والمجلات من يوم أن كتب لها الأديب الشاعر ولي الدين يكن عام ١٩١٤، متمنيا أن تجمع مقالاتها في كتاب لما فيها من أفكار تعلو بالمدارك وإشراق ينير جوانب النفوس، ولاقي اقتراحه قبولا في نفسها، فجمعت مقالاتها وعنونتها بـ"سوانح فتاة"، لكنها تريثت في نشرها حتى عام ١٩٢٢، وصدرت هذه

المقالات، وفي مقدمتها نشرت رسالة الأديب ولي الدين يكن التي بعث بها إليها قبل سبع سنوات مقترحا جمع مقالاتها، وضم هذا الكتاب مجموعة كلمات وخطرات في موضوعات مختلفة لم تجمع بينها أواصر ولا علاقة، ربما ذلك بسبب أنها نشرت متفرقة في الصحف والمجلات كل موضوع مستقل بناحية ما.

وتبع هذا الكتاب كتابها الثاني في أدب المقال "ظلمات وأشعة" الذي يضم مجموعة مقالات مختلفة الموضوعات، والكتاب مقسم إلى ثلاثة أقسام: من كوة الحياة، ونحو مرقص الحياة، وفي مرقص الحياة، ومقالات هذا الكتاب تدل على آراء مي ونظرتها إلى مختلف الموضوعات كالحياة والسعادة ووظيفة الأم وغير ذلك.

أما كتابها "الصحائف" فضم مجموعة من الدراسات النقدية والاجتماعية "القصيرة"، تناولت فيه بعضا من كتاب الغرب أمثال "مدام دوسيفينيه" و"بييرلوتي"، وكتابا من الشرق أمثال "جبران خليل جبران" والشاعر "إسماعيل صبري" والشاعر "ولي الدين يكن" وغيرهم، وعنونت جزءا من كتابها بـ"رحلات السندباد البحري الثاني" سجلت فيه رحلاتها أيام صباها ورحلاتها بين فلسطين ولبنان ومصر.

وفي العام نفسه الذي صدر فيه كتابها "الصحائف" عام ١٩٢٤.. نشرت مطبعة الهلال كتابها "بين الجزر والمد"، وهو أيضا يضم يبن دفتيه مجموعة من مقالاتها، التي نشرت قبل أن تجمع في كتاب على صفحات الصحف والمجلات.

وقد قدم الكتاب للقراء الأديب سلامة موسى، متناولا أسلوب مي الجذاب، ومكانة أدبها ودورها في الحركة الأدبية العربية.. وكيف أنها ذات غيرة على لغتها العربية الفصحي، فتحافظ عليها ولا تستعمل العامية، وقال أيضا أنها تسعإلى إجادة العديد من اللغات الأجنبية، للاستفادة منها والاطلاع على ما يبدعه الغرب.

ولعل أبرز ما ميز هذا الكتاب الصفحات التي تتحدث فيها عن اللغة والأدب والحضارة، فنجدها دافعت عن مقومات الأمة ونقدت معوقات النهضة الحديثة.. وفي الكتاب طائفة من البحوث القومية والأدبية القصيرة والمناقشات، التي خاضتها بلباقة وكياسة.

في الدراسات الأدبية والنقدية

"ما نفع النقد"؟ يتساءل شارل بودلير..ثم يجيب: "الفنان يلوم الناقد في أنه لا يفلح في تعليم المتفرج الرسم والنظم، وهو كذلك لا يعلم الفنان الذي لولا فنه ما كان النقد، ولكن هذا اللوم لا ينطبق إلا على النقد الذي لا يرى ولا يشعر ولا يدرك".

كيف يكون النقد إذن؟

"أعتقد بإخلاص أن خير نقد هو النقد المنوع الشعري المبهج، لا ذلك النقد البارد الذي يسلك طريقه علم الجبر في حل المسائل الرياضية، فيزعم شرح كل غامض وفض مغالق الطبيعة، دون تحيز ولا نفوز، بل بتجريد نفسه اختيارا من كل مزاج وكل نزعة.." هذه بعض أقوال بودلير في النقد الفني.. وهو الذي كان ناقدا ممتازا كما كان شاعرا مطبوعا .. والكلام على النقد الفني.. ينطبق على

النقد عموما.. إذ إن النقد كالحرية والعلم والفن لا يأتي بالطفرة، بل هو تمرين متتابع طويل.. تحديد الخطأ والصواب أساس في نقد العلوم الرياضية والطبيعية واللغوية.. أما النقد الأدبي فلا إطلاق فيه.. وعمل الناقد البصير هو التحليل لتقرير ماهية كتاب أو أثر فينبئ الناقد بذلك نفسه، وينبئ الجمهور معينا نزعة من نزعات العصر[٢١].

ومن الظواهر التاريخية في حركات الفكر العربي المعاصر، الذي كان تواقا في بوادر التطور والإصلاح للتحرر من قيود الصناعة اللفظية والطريقة التقليدية أن الذين برزوا نقادا موهوبين كانوا قلة من الرواد، ثاروا على القديم الذي عوق التطور والانطلاق في حياة الأدب وثقافته. ولم تكن بينهم رائدة من أندادهم شاركت على طريقتها، وطاقتها في النقمة على التخلف والجمود، وفي الخصومات النقدية، وإن لمعت في زمانهم صحافيات وموهوبات في الشعر والنثر أنشأن المقالات وألقين المحاضرات في صدد الأسرة والمجتمع، وما ينبغي لهما من عناية خاصة وفي تحرير المرأة العربية من الضيم والجهل والاستبداد، غير أن هؤلاء الكاتبات لم يتأثرن بالفكرة الثورية في النقد الأدبي، وبالاقتباس من الثقافة الغربية في التعبير والاتجاه إلا بعد حين، وما جربن الانطلاق في التأليف والتعبير على نسق مستحدث، بل بذلن الجهود للتوجيه النسائي والجمعيات الخيرية والوطنية في مقالات ومجلات تولين بأنفسهن وأقلامهن إدارتها والتحرير فيها.. وعملهن على نشرها في مختلف البلاد العربية[٢٢].

---

(٢١) وداد سكاكيني: مرجع سابق، ص ٢٩ .

(٢٢) انظر "بين المد والجذر"، ط دار الهلال، القاهرة، ١٩٢٤.

ولما كتبت الدراسة الأدبية والنقدية كانت مجددة في أسلوبها وفي طريقة تناولها للموضوع الذي تتعرض له. فمن أبرز مؤلفاتهافي هذا المجال "باحثة البادية" عام ١٩٢٠، و"عائشة تيمور"عام ١٩٢٦، و"وردة اليازجي" عام ١٩٢٦، فحللت مي أدب هؤلاء النسوة الموهوبات تحليلا اجتماعيا ونفسيا وفنيا،وكانت تنفذ إلى أغوار الشخصية برفق ولين، وإذا نقدت فهي أشبه بالطبيب الذييستخدم مبضعه برفق ودقة بالغتين، ولا عجب أن تكون مي ناقدة جيدة، فمنذ صغرها، وهي مطبوعة على الملاحظة والتمعن والتأمل في الأشياء، وكانت تدون ملاحظاتهاوخواطرها الأولى، ولعل اسم مي لم يلمع بين نقاد عصرها، لأنها لم تخض معارك الرأي والقلم ولم تتعصب لفكرة أو نظرية أو مبدأ، فجاءت دراساتها النقدية معبرة عن طبعها ونزعاتها.. تميز كتابها الأول "باحثة البادية.. ملك حفني ناصف" بالتحليل الدقيق لهذه الشخصية وعصرها وبيئتها التي نشأت فيها، وليس أدل على ذلك من عناوين فصول الكتاب: "المرأة – المسلمة – المصرية – الكاتبة – الناقدة المصلحة – .. إلخ ".

ويرى الأستاذ العقاد أن كتاب ميّ عن باحثة البادية يمثل أكبر جانب من تفكيرها وطبيعتها وأسلوبها.. يقول الدكتور منصور فهمي عن هذا المؤلف: "له عندي ثلاث ميزات ترفعه إلى أوج الكتب القيمة التي يستبقي لها تاريخ الأدب مكانته الأولى – إنه أول كتاب فيه نموذج للنقد العلمي المفيد، الثانية – إنه على رأي صديق أديب أول كتاب من كتب النهضة الحديثة فيه صدق ووفاء علمي الثالثة – أنه أول كتاب في تاريخ سيدة عربية وضعته سيدة عربية"[٢٣].. أما كتابها

[٢٣] المرجع السابق: ص ١٢٨.

"عائشة تيمور.. شاعرة الطليعة" فإنه يتكون من سبعة فصول تتناول حياة وأدب عائشة تيمور.. وبإلقاء نظرة على عناوين الفصول يتضح لنا هذا: "عصر الشاعرة، النشأة والزوج، بيئة الشاعرة، أشعارها، نثرها.. إلخ ".. وأصل هذا الكتاب محاضرة ألقتها في جمعية "مصر الفتاة" بالجامعة المصرية ورأت مي أن حديثها عن شخصية "عائشة تيمور" حديثمتفرد، لأنه لا توجد دراسات أدبية عن هذه الشاعرة.. كما أن حياتها وأدبها جديران بالدراسة. تقول مي[٢٤]: "فطالعت كل ما عثرت عليه من آثارها، وجمعت من المعلومات عنها ما تيسر، وفكرت في نشر بحوث عنها. وكان يدفعني إلى ذلك:

أولا: أن لعائشة فضل المتقدم بيننا وهي في طليعة اليقظة النسوية في هذه البلاد.

ثانيا: إن الجمهور يعرف أنها "شاعرة" دون أن يلم بما تتكون منه شاعريتها، ودون أن يقف على حال من أحوال حياتها أو يحلل ميلا من ميولها.

ثالثا: أن النظرة في مقدرتها، إنما هي اكتناه للذات المصرية، ليس من الجانب النسوى بل بوجه عام، وسنرى بعد التحليل أن لعائشة مكانتها بين أدباء عصرها، وليس بين الأديبات الشرقيات وحدهن.

رابعا: إنها من عمال دولة القلم عاشت في وحدتها كثيرا.. وأعطتنا في شعرها ونثرها صورة مؤثرة، أما رأيها في الحياة فجدير بالانتباه والتبصر، لأنه رأي جمهور كبير من الشرقيين والشرقيات كان شائعا في زمانها وليس بالنادر في أيامنا هذه.

خامسا: إن هذا البحث يرافقه سرور متضاعف، أليس أن جميع طبقات الناس تلذلها الروايات، وهي إنما تمثل حياة أشخاص وهميين؟ فكيف بحياة أشخاص

---

[٢٤] السابق: ص ٢٤٠.

عاشوا قبلنا وعانوا صامتين كل ما يعانيه أبطال الروايات، وهم الذين توفرت لديهم شروط اليقظة أيام كان الجمهور منا في سبات واستكانة! وكم من نابه قضي تاركا آثاره فاكتفينا بالثناء عليها وعليه ثناء النائحات على كل ميت، فظلمناه في مماته بعد أن كان مظلوما في حياته! فلم نسجل من آرائه رأيا ولم نحلل من العوامل التي كونته عاملا.

أما كتاب مي الثالث في مجال الدراسات الأدبية.. عن حياة الشاعرة "وردة اليازجي" فقد تناولت فيه حياتها وآثارها الأدبية، وقد حثها على تناول هذا الموضوع الأستاذ "سليم سركيس"، كما هو بين في تقديمها للبحث (الطبعة الأولى منه).. وأصل هذا الكاتب محاضرة ألقتها مي في القاهرة (أيار ١٩٢٤) ثم نشرته تباعا في "المقتطف"، وصدر عن البلاغ في القاهرة في طبعته الأولى عام ١٩٢٦ م.. وقد يتساءل النقاد والقراء عن الأسباب التي دعت "مي" لاختصار سيرة "وردة اليازجي" بمحاضرة، الجواب وجدناه في مقدمة الدراسة، حيث قالت مي: "وأردت أن أقوم بالواجب نحو اليازجية مع علمي بصعوبة الكتابة عنها لتشابه المعاني التي تركتها في الشعر والنثر، ولخلو آثارها مما قد كان يرسم صورة عن طبيعتها وميولها الصحيحة".

والكتاب مقسم إلى أربعة فصول هي على التوالى: تعريف بوردة اليازجي – لمحة في حياتها – ديوان حديقة الورد – شعرها – نثرها.. ومنهج هذه الدراسة يتفق مع المنهج الذي سارت عليه مي في كتابها عن عائشة تيمور من حيث طريقة التناول والتحليل والنقد.

إن أهم ما يميز الدراسات الأدبية والنقدية التي عالجتها أديبتنا، أنها كانت مجددة لا مقلدة، وتسعي للإحاطة بجميع جوانب "الموضوع" أو "الشخصية" التي تكتب عنها وتتمثلها في مراحل حياتها وبيئتها، فتقدم لنا دراسة نابضة بالصدق والفهم الحقيقي لطبيعة الموضوع الذي تتناوله.

والملاحظ أن تلك الدراسات التي ألفتها كانت حول شخصيات نساء شهيرات، وهذا يعني أنها كتبت الدراسة الأدبية عن طريق السير والتراجم.. وهذا لم يكن متبعا في فن كتابة السير في الأدب العربي.. ولا أبالغ إذا قلت إن ميا أول من أرسي الأصول الفنية لكتابة السير، ولعل كتابها الأول في السير عن باحثة البادية هو خير ما يمثل المنهج الفني الذي اتبعته في الدراسات الأدبية والنقدية.

المترجمة

شاركت كاتبتنا في نقل بعض الآثار الغربية إلى اللغة العربية فترجمت ثلاث روايات أولهما: رواية الحب الألماني (Deuche Iiebe)، وهي رواية رومانسية نشرها المستشرق الألماني (فريدريك ماكس مولور(Frederich Max Muller)، وقد صدرت الطبعة الأولى من الترجمة عام ١٩١٢م .. ولكن "مي" لم تكن راضية عن ترجمتها وتنقيتها وطبعت ثانية ١٩٢١.

والرواية كتبت على طريقة المذكرات.. الذكري الأولي.. الذكرى الثانية.. الذكرى الثالثة.. وهكذا، إلا أنها تميزت بتحليقها في عالم الخيال والأديب الرومانسي دائما يشعر بروابط قوية تشده إلى الطبيعة، فيلجأ إليها هربا من المجتمع الصاخب الذي يقيد روحه ويسيء فهمه.

وهذا المجتمع الذي خلقته المدنية مجتمع زائف يصور له الفرق بين الخير والشر، والظلم والعدل والبغض والمحبة إلخ.. غير أن الطبيعة تلغي هذه الثنائية العرضية وتجسد حقيقة وحدة الوجود في أكمل مظاهرها.. ويأخذ الحب عند الرومانسي طابع الذاتية، يؤكد الهوة التي تفصل بين عالمي الخيال والواقع إذ ينسلخ الحب عن الواقع ويصبح وهما يعذب صاحبه.. ولعل سبب ذلك يعود إلى قوة الخيال التي تسيطر على عاطفة الحب وتسكرها. إن الرومانسي لا يستطيع أن ينظر إلى الحياة إلا بعين خياله وأحلامه، لذلك نراه ينسج طيف محبوبته من أحلامه وأمانيه ومثله، ويعشق عاطفة الحب لذاتها، ولعل الكآبة التي تغمر الرومانسي هي نتيجة انهيار آماله الواسعة، وعدم الظفر بالمال المنشود، والجفوة بينه وبين المجتمع الذي يضن عليه بتقدير ما فيه من صدق العاطفة ونيل الإحساس. وربما يقترب في لحظات خاطفة من السعادة الحقيقية، ولكنه يدرك في قرارة نفسه بأنها ستزول فيعاوده الأسى[٢٥]، وكل هذا ينطبق تماما على رواية ماكس موللر التي ترجمتها مي وعنونتها بابتسامات ودموع.

أما ثاني الروايات التي ترجمتها رواية "رجوع الموجة" (**LeRETQUR Ju Flot**) للكاتب الفرنسي"برادا" **Brada**، وهي رواية رومانسية تتميز بالحزن والكآبة وتقع في نحو أربعة وثلاثين فصلا.

أما الرواية الثالثة فكان عنوانها "اللاجئون" (**The Refugres**) وهي من تأليف الكاتب الأسكتلندي "آرثر كونان دويل" (**Arthur Cona Doylesir**)، والرواية عربتها ميّ عن الانجليزية وغيرت عنوانها إلى "الحب في العذاب"

---

(٢٥) أميه حمدان: الرمزية والرومانتيكية في الشعر اللبناني، دار الجاحظ للنشر، بغداد.١٩٨١،ص٢١،٢٠.

ونشرتها في عام ١٩١٧م.. ورغم أن أحدا من الباحثين لم يوفق في العثور على نسخة منها، لكن الباحثة الأديبة سلمي الحفار الكزبري.. وفقت في جمع فصول هذه الرواية ونشرت ضمن المؤلفات الكاملة لمي زيادة الصادرة عن مؤسسة نوفال ببيروت عام ١٩٨٢، وهذه الرواية تاريخية أدبية حدثت في عهد لويس الرابع عشر.

أيضا كتبت مي رواية بالإنجليزية ونشرتها في مجلة "سفانكس Sphinx" القاهرية عام ١٩١٧.. والرواية عنوانها "ظل على الصخر" on the Rocshadow ولكن لم يوفق أحد من الباحثين في جمع فصول هذه الرواية.

وقد عالجت مي زيادة فنونا أدبية أخرى لم نتعرض لها مثلأدب الرسائل ومقالاتها المتفرقة في الفنون التشكيلية والموسيقي والاجتماع والسياسة وبعض الأقاصيص التي ألفتها والمسرحيات القصيرة.. ولا أحسب أن عدم تعرضنا لمثل هذه المتفرقات يعد إهمالاً منا، لأن هدفنا الإشارة إلى الخطوط الرئيسية في أدب مي.. كما أننا آثرنا ألا نكرر كلاماً معاداً فأدب الرسائل الذي اشتهرت به مي.. قد تعرضنا له في الباب الثاني من دراستنا[٢٦].. أما متفرقات مي في مختلف الفنون، فليس من شأن هذه المتفرقات أن تحدد قسمات أدب مي.. مادمنا قد تعرضنا للكليات.. ونترك هذا أيضا لموضع آخرأكثر اتساعا لدراسة أدب مي زيادة دراسة تحليل تفصيلية.

لا شك أن ميّ زيادة تعتبر ظاهرة فذة في عصرها وفي نوعها، وسمات أدب تلك الرائدة في اعتقادنا يتمثل في الجوانب الآتية:

---

[٢٦] انظر: الفصل الثاني من هذا الكتاب،"مي عاشقة ومعشوقة".

أولا: تنوع الفنون الأدبية التي عالجتها من شعر بالفرنسية أولا، ثم الاتجاه إلى الترجمة وأدب المقال على اختلاف أغراضه وموضوعاتها.. كذلك بالخطابة والدراسات الأدبية والنقدية والاجتماعية.

ثانيا: أنها قد استنت لنفسها أسلوبا خاصا، له نكهته المتميزة في سلاسته وانطلاقه من أسر التكلف، فهي لم تقلد أحدا، والتجديد الذي ميز أسلوبها تركز في تحرره من الصنعة اللفظية واعتماد أسلوبها على الطابع الشاعري وقصر الجمل. واستخدام لغة تصويرية بطريقة الومضات، أواللفتات السريعة وطرزت هذا الأسلوب بالحكمة والتدبر.

ثالثا: أنها قد اهتمت باللغات، فقد أتقنت خمس لغات أجنبية، واطلعت على روائع الآداب العالمية.. وبقدر ما تتنوع المناهل التي ينهل منها المفكر أو الأديب بقدرما يتنوع العطاء الفكري ويوصف بالدسامة.

رابعا: تأثرت بغير وعي منها بكتاب المهجر كما يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات "ولكن أدبها – يقصد أدب مي – على الرغم من نشوئه وبلوغه ونبوغه في القاهرة، لم يتأثر بأدب مصر، وإنما تأثر في شكله وموضوعه بأدب لبنان لأن الأدب اللبناني كان وحده في أواخر القرن الماضي، وأوائل القرن الحاضر مظهر الحياة والجدة والتنوع في الأدب العربي"، كذلك تأثرت دون وعي بالشعراء الرومانسيين أمثال لامرتين وألفرد دي موسيه وغيرهما.

خامسا: الحزن والكآبة سيطرا بشكل واضح على أدبها، وذلك يرجع إلى طبيعتها العاشقة للخلوة والتدبر وانطوائها الشديد .. وكبت مشاعرها الأنثوية الفياضة. فقد فرضت على نفسها التحفظ، في حين أنها كانت تعيش بين اشتياقها إلى التحرر

والانطلاق، من ناحية، ومن ناحية أخرى القيم والمبادئ وحواجز المجتمع الذي يمنعها من ذلك. والحقيقة أن سائر الأديبات العربيات في النصف الأول من القرن العشرين وحتى بعد هذا الحين أيضا، واجهن هذه الأزمة وبدت آثارها واضحة في آثارهن الأدبية.

ومن أمثال هؤلاء الأديبات باحثة البادية وفدوي طوقان ونازك الملائكة وغيرهن.

سادسا: لا أحد يستطيع أن ينكر أن ميّ زيادة رائدة من رائدات الأدب النسائي العربي الحديث، وليس هذا فحسب، بل لها فضل الريادة الأولى في احتراف الصحافة والمحاضرة والدراسات الاجتماعية والمراسلات.. ولو لم تترك لنا من آثارها سوى مراسلاتها الأدبية مع كبار مفكري وأدباء عصرها لاستحقت الريادة في فن كتابة "الرسالة الأدبية".

النقد بين تيارين

ميّ زيادة ظاهرة أدبية فريدة، لفتت الأنظار إليها، وهي بحق أهل لكل مظاهر التكريم والحفاوة التي لقيتها في حياتها الأدبية، وأهل للألقاب التي أطلقها عليها أعلام عصرها.. ومن هذه الألقاب "الأديبة النابغة" و"سيدة القلم العربي"، كما سماها الأديب مصطفى صادق الرافعي في إحدى رسائله لها عام ١٩٢٣ م و"أديبة العصر"، كما دعاها الأمير شكيب أرسلان.

نعم.. كانت أهلا لكل تقدير لما قدمته للمكتبة العربية من مؤلفات، وكانت من رواد التجديد في عصرها، وكانت في طليعة كتاب جيلها الذين منهم العقاد وطه حسين والمازني وعبد الرحمن شكري وغيرهم.. إن مؤلفات ميّ زيادة حملت مواهبها وجسدت أسلوبها وأفكارها وحياتها أيضاً.. لا أبالغ إذا قلت إنها لو انصرفت إلى التخصص في فن أدبي واحد، لأثرت المكتبة العربية والغربية أيضا بنفائس عظيمة. تصنع تيارا فكريا خالدا.. إن أديبتنا خطبت وحاضرت وترجمت وفتحت صالونها للأدباء والمفكرين.. وكل هذا بالطبع وزع إنتاجها ومواهبها.

أما موقف النقاد من أدبها فانقسم إلى نوعين:

الأول: تقريظ للعمل الأدبي ومزيج من الثناء والمدح والإطراء.. سواء كان المؤلف صائباً، في أفكاره أو غير صائب، ولايهتم هذا النوع من النقد بالتحليل والولوج إلى جوهر العمل الأدبي.. فالإعجاب والاغتباط ليسا هما النقد.. وإن كان كذلك – في نظر بعض الناس – فإنها نظرة سطحية تضر بالعمل الفني، لأن الفكر ليس سلعة تباع وتشترى.. بفضل الدعاية لجودة هذه السلعة.

النوع الثاني: هو نقيض للنوع الأول وأصحابه يبعدون عنه كل مصطلحات الإطراء والثناء.. فيكون هذا النقد أشبه بحكم المحكمة أو بالبلاغ العسكري يعلن الأحكام العرفية.. وهذا النقد المتحامل نصيب الهدم فيه أكثر من نصيب البناء والتوجيه.

وكان نصيبها في النوع الثاني من النقد وفيراً، فنظر هذا النقد إلى مؤلفاتها نظرة استخفاف بالمرأة ومواهبها وقدراتها.. رغم أن "مي" ترى أن النقد وحي لأنه يدرك الوحي ويحتضنه، وحرية "لا تمييز في العبودية" رغم أن النقد، كثيرا ما يضل نتيجة لمفهومنا الخاطي للنقد، وأحسب أن النقد التحليلي أقل حظا في الانتشار من الهجوم والطعن وحب التقول.. وكانت، كما قال العقاد:"شديدة التبرم بالنقد وكانت تتوقاه كثيراً، ولو تبين لها أنه صادر عن نية حسنة، فإذا حدث أنها تعرضت لنقد في سبيل تصرفها بالترجمة، فإني أعتقد أن هذا لما أعلمه من مزاجها وحذرها كاف للعدول عن هذا التصرف أو لاستدراكه إذا أتيح لها أن تستدركه.. وحين قرأت نقدا لتصرفها بالنقل عن الألمانية لكتاب "فريد ريك مكس مولر"، وكانت مبتدئة بالنقل عن هذه اللغة عادت إلى ترجمة الكتاب في طبعته الثانية من جديد

فتقيدت بالأصل، محاولة إبراز الكتاب في العربية بصيغته الشعرية البسيطة خاليا من الاستعارة الغربية والتنميق الشرقي".

ولما نشرت الطبعة الثانية من هذه الترجمة لكتاب "الحب الألماني" أو"ابتسامات ودموع" حسب اختيارها تناول هذا الكتاب بالنقد العنيف الكاتب اللبناني الكبير "ميخائيل نعيمة"، وكان مغتربا في نيويورك إذ وجد الرواية المعربة لا تستحق نقلها من لغتها إلى العربية، فعدها من الطبقة الثانية أو الثالثة بين الروايات – على حد قوله "وليس ما يدعو إلى الأسف سوى أن "مي" لم تصرف وقتها في ترجمة كتاب أفضل منه، بل حرام على كاتبة من طبقة مي أن تتلهى بالترجمة ولها من عواطفها وأفكارها ما تقدر أن تنسج منهما قصائد وروايات ومقالات كثيرة".

ولعل "مي" بعد أن قرأت هذا التهكم واللوم في نقد الأديب نعيمة لترجمتها "الحب الألماني" قد عدلت عن نقل ماراقها من روائع الأدباء الغربيين إلى اللغة العربية، وحسنا صنعت في التعبير عنأدبها لا التعريب لغيرها، على أن الناقد نعيمة لم يقتصر على التهكم بترجمة مي وما جاء في مقدمة الكتاب المترجم بقلمها، بل تناول بالتهكم محاضرة لها عنوانها "غاية الحياة"، وقد ألقتها في الجامعة المصرية عام ١٩٢١م.

كان نعيمة في نقد هذه المحاضرة أشد عنفا وسخرية، مما جاء فيالمحاضرة، فمن قوله "لا شك عندي أن السيدات اللواتي سمعن خطاب مي في الجامعة المصرية صفقن لها تصفيقاً حاداً أكثر من مرة وفي أكثر من موقف واحد، ومما لا شك فيه كذلك أنهن انطلقن إلى بيوتهن معجبات بحلاوة الخطاب وبراعة الخطيبة، إنما غير عالمات عن "غاية الحياة"أكثر مما كن يعلمن حين دخلن قائمة

الخطابة، وذلك لأن الخطيبة انصرفت إلى نحت ألفاظها وصقل عباراتها أكثر مما انصرفت إلى ربط أفكارها وتسلسل براهينها، فكانت مقودة بقوالبها اللغوية أكثر منها بتحاليلها الفلسفية، فجاء ما قالته طليا جميلاً، منمقا كتمثال من رخام، أما روح ذلك التمثال فظلت مدفونة في قلبه الحجري[1].

وبالطبع كان للنقد العنيف الجارح وقع مؤلم في نفس ميّ، لكنها كانت تسعي دائما إلى تجويدما تكتبه.

ومن الذين سخروا منها الكاتب الصحفي محمد التابعي –كما قال بعد موتها – وعبر عن سخريته في مجلة "روز اليوسف"، واصفا كتاباتها بأنها سلسلة متصلة الحلقات من الاقتباسات بين نثر ونظم يربط بين حلقاتها عدد كاف من الأقواس والنقط وجمل اللحام مثل: "وأذكر أني قرأت لفيلسوف ألماني".. أو "يحضرني في هذا المقام ما قاله شاعر اللتين..".

يقول التابعي: "هذا بعض ما كتبت.. وكانت سخرية قاسية عاتبني عليها يوما أنطون الجميل – يرحمه الله – ولكنيكما قلت، كنت في شبابي قاسيا طويل اللسان"[2].

هذا جانب من النقد – أو ما ادعي أصحابه أنه نقد . الذي تعرضت له ميّ في حياتها وهناك أضعاف هذا، لكن نشير مجرد إشارة إليه، لأن مثل هذا النقد سيان إن ذكرناه أو لم نذكره، لا يضيف جديدا إلى أدبها. وإن كان أصحاب هذاالاتجاه النقدي تحاملوا على مؤلفات مي.. ففي الجبهة الأخرى نقيض هذا الاتجاه.. وهو اتجاه الثناء والإطراء..

---

(١) وداد سكاكيني: مرجع سابق، ص٢١٤، ٢١٥.

(٢) السابق: ص ٢١٦.

وعلى سبيل المثال نلاحظ أن سلسلة المقالات التي كتبها الشاعر الكبير كامل الشناوي ونشرت في جريدة "أخبار اليوم" القاهرية عام ١٩٥٥م عن مي زيادةلا تخلو من ثناء وإطراء، وصل إلى حد المبالغة، واصطنع الشناوي مختلف الأساليب للإثارة والتشويق والتلفيق كذلك، كل هذا ليرضي نزوع القارئ الذي يهوي الإثارة والدعابة للتسلية الرخيصة.. وما كان هذا ينتظر من أديب كبير ككامل الشناوي، له مكانته الأدبية المرموقة، كان ينتظر منه أن يدرس حياتها وأدبها من منطلق رصين جاد.

وقد صدر للناقد محمد عبد الغني حسن في عام ١٩٢٤ كتاب "حياة ميّ " والذي يضم مجموعة من الحوارات والمطارحات مع نخبة من الأدباء والمفكرين والشعراء الذين عرفوا ميّ وأعاد عبد الغني حسن طبع كتابه عام ١٩٦٤ موبدل عنوان كتابه إلى (مياً زيادة.. أديبة الشرق والعروبة)، وأضاف إلى الكتاب دراسة مختصرة عن حياة ميّ وأدبها ونماذج منه.

إن المؤلف أدخل في طبعته الجديدة لكتابه الكثير من الآراء المزعومة لغيره، التي فيها تشهير وتجريح لمي.. وتكرير لما قالته بعض الصحف والمجلات عن ميّ، فكانت تلك الإضافات حشوا زائدا.. ضارا للكتاب.. وأحسب أن الكتاب في طبعته الأولى الصادرة عام ١٩٢٤ م كان أكثر دقةوصدقاً.. وإن قولي هذا لا يقلل من قيمة الكتاب، فهو أهم الكتب التي من الممكن الرجوع إليها في دراستنا لحياة ميّ وكتاب"أدباؤنا" للأديب اللبناني عبد اللطيف شرارة.. الذي تحدث فيه عن ميّ ولم يأت بجديد، بل هو إعادة لكتاب "ميّ زيادة أديبة الشرق والعروبة" للأستاذ عبد الغني حسن، بالإضافة إلى أن في الكتاب الكثير من

المغالطات والمبالغات والتأويلات الخاطئة التي لا يجيزها عقل[٣] وهذه المبالغات تتعلق بطبيعة ميّ وأنوثتها ومحنتها وما كنت أظن – إطلاقا –أن كاتبا كالأستاذ شرارة يؤلف كتابا بهذه السطحية..!.

إن "ميَ" ليست فوق النقد .. هذا لا جدال فيه، لكن النقد الجاد الواعي افتقرته حتى يومنا هذا مؤلفات ميّ زيادة.. إننا في حاجة إلى النقاد الجادين الذين نأمل أن يتناولوا أدبها في ضوء أدب عصرها.

"إن مذاهب النقد في كل أدب إقليمي أو عالمي متفقة على اصطلاح واحد في أن لكل زمان ومكان مقاييس للنقد ومدلولات يختلف أكثرها من جيل إلى جيل، فما كان النقاد يرويه في نتاج الكتاب والشعراء أيام ميّ قد تتجافي عنه المقاييس التي يصطنعها النقاد في أيامنا لتأثرهم بأشتات المذاهب الفكرية والاجتماعية، فمن الحيف والتعسف أنطبق المقاييس الحديثة المصطنعة على أدبهاوأسلوبها، فإذا شاء باحث أو ناقد أن يتناول آثار هذه الأديبة بالتمحيص والتحقيق، فلا ينبغي أن يقارنه بأدب اليومولا بنتاج الأديبات الحديثات، بل بأدب أمثالها وأترابها من أدباء الطليعة، لأن العصر قد تغير وتطورت الأذواق والموازين"[٤].

إن الجيل الجديد لم يقف مع مؤلفاتها وقفة تأمل وهذا يرجع لأسباب كثيرة منها أن مؤلفاتها لم تعد تطبع طبعات جديدة.. وأن ذكري وفاتها أصبحت تهمل من قبل الجهات الثقافية العربية، فأضحي الكثير من القراء لا يعرفون مياً وإذا

---

[٣] انظر: أدباؤنا،منشورات صادر، بيروت، ص ٦ ،٧، ٦٨.

[٤] وداد سكاكيني: مرجع سابق، ص ٢١٨.

عرفوها فهي معرفة أسوأ من النسيان.. كماأن العديد من مقالاتها وخواطرها لم تجمع حتى الآن، بل ما زالت متناثرة في ثنايا الصحف والمجلات المصرية والعربية.

إن خير تقدير لميّ قراءة آثارها ودراستها، فهي التي كتبت تقول: "النظر في كتابات الأديب، والتحدث عنها هو خير الوسائل للاحتفاء بذكراه، بل هو أحسنها على الإطلاق".

الشعر في موكب الرثاء

إذا ألقينا نظرة على الصحف والمجلات الأدبية الصادرة في شهر أكتوبر ونوفمبر وديسمبر عام ١٩٤١.. وجدناها حافلة بالمقالات والخواطر النثرية والقصائد التي ترثي مي.

وأقيم في دار الاتحاد النسائي الذي ترأسه "هدى شعراوي" حفل تأبين لرحيل ميّ.. والتقى في ذلك الحفل الكثير من أدباء العرب من كل قطر. واستمع الحضور إلى قصائد الشعراء خليل مطران وأحمد محرم وعباس محمود العقاد وغيرهم.. ووقف الدكتور طه حسين تلك الليلة من مساء الرابع من ديسمبر ١٩٤١ قائلا:

خليلي عدا حاجتي من هواكما ومن ذا يواسي النفس إلا خليلها؟

ألما بميّ قبل أن تطرح النوى بنا مطرحا أو قبل بين يزيلها

فإلا يكن إلا تعلل ساعة قليلاً فإني نافع لي قليلها

وظن الكثير من السامعين أن تلك الأبيات من نظم الدكتور طه حسين، لأنه ألقاها حزينا.. رصينا، يخرج الحروف من مخارجها بحزن وأناة.. وكانت الأبيات

التي ألقاها الدكتور من شعر ذي الرمة "الشاعر الأموي المعروف".. وألقي الدكتور كلمته في رثائها وختم حديثه بأن كرر البيت الأخير مرة ثانية:

فــإلا يكــن إلا تعلــل ســاعة   قلــيلاً فــإني نــافع لــي قليلهــا

وقد يكون من باب الاحتفاء بخلود الشعر ووفائه أن نسجل نص قصيدتي الأستاذ العقاد وخليل مطران.. تاركين التحليل والتأويل للقارئ ثقة منا بعقليته..

آه من التراب!

شعر.. عباس محمود العقاد

أين في المحفل "ميّ" يا صحاب؟   عودتنــا هــا هنــا فــصل الخطــاب
عرشــها المنبــر مرفــوع الجنــاب   مــستجيب حــين يــدعي مــستجاب

أين في المحفل "ميّ" ياصحاب؟

ســائلوا النخبــة مــن رهــط النــدى   أيـن "مـيّ" هـل علمـتم؟ أيـن مـيّ.؟!
الحـديث الحلـو واللحـن الـشجي   والجبــين الحــر والوجــه الــسني

أين ولي كوكباه؟ أين غاب؟

أســف الفــن علــى تلــك الفنــون   حـصدتها– وهـى خـضراء –الـسنون
كــل مــا ضــمته منــهن المنــون   غــصص مــا هــان منهــا لا يهــون

وجراحات، ويأس، وعذاب

شــيم غــر رضــيات عــذاب   وحجــي ينفــذ بــالرأي الــصواب
وذكـــاء ألمعـــي كالـــشهاب   وجمـــال قدســـي لا يعـــاب

كل هذا في التراب. آه من هذا التراب

كـــل هـــذا خالـــد فـــي صـــفحات   عطـــرات فـــي رباهـــا مثمـــرات

إن ذوت فـي الـروض أوراق النبـات   رفرفـــت أوراقهـــا مزهـــرات

وقطفنا من جناها المستطاب

مـــن جناهـــا كـــل حـــسن تـــشتهيه   متعـــة الألبـــاب والأرواح فيـــه

ســـائغ ميـــز مـــن كـــل شـــبيه   لـــم يـــزل يحـــسبه مـــن يجتنـــيه

مفرد المنبت معزول السحاب

الأقـــاليم التـــي تنميـــه شـــتى   كـــل نبـــت يـــانع ينجـــب نبتـــا

مـن لغـات طوقـت فـي الأرض حتـى   لم تدع فى الشرق أو فى الغرب سمتا

وحواها كلها اللب العجاب

يالـذات اللـب مـن ثـروة خـصب   نبـــر يقـــيس مـــن حـــس وقلـــب

بـين مرعـى مـن ذوى الألبـاب رحـب   وغنـــي فيـــه وجـــود مـــستحب

كلما جاد ازدهي حسنا وطاب

طلعـــة الناضـــر مـــن شـــعر ونثـــر   كرحيـــق النحـــل فـــي مطلـــع فجـــر

قابـــل النـــور علـــى شـــاطئ نهـــر   فلـــه فـــي العـــين ســـحر أي ســـحر

وصدى في كل نفس وجواب

حـــي "ميـــا" إن مـــن شـــيع ميـــا   منـــصفاً، حيـــا اللـــسان العربيـــا

وجـــزي حـــواء حقـــا ســـرمديا   وجـــزى ميـــا جـــزاء أريحيـــا

للذي أسدت إلى أم الكتاب

للذي أسدت إلى الفصحى احتسابا   والـــذي صـــاغته طبعـــا واكتـــسابا

والــذي خالتــه فــي الــدنيا سرابــا   والـــذي لاقـــت مـــصابا فمـــصابا

من خطوب قاسيات وصعاب

أتراهـــا بعـــد فقـــد الأبـــوين   سـلمت فـي الـدهر مـن شجو وبـين

وأســـي يظلمهـــا ظلـــم الحـــسين   ينطوي في الصمت عن سمع وعين

ويذيب القلب كالشمع المذاب

أتراهـــا بعـــد صـــمت وإبـــاء   ســـلمت مـــن جـــسد أو مـــن غبـــاء

ووداد كـــــل مافيـــــه ريـــــاء   وعـــداء كـــل مـــا فيـــه افتـــراء

وسكون كل ما فيه اضطراب

رحمـــة الله علـــى "مـــيّ" خـــصالا   رحمـــة الله علـــى "مـــيّ" فعـــالا

رحمـــة الله علـــى "مـــيّ" جمـــالا   رحمـــة الله علـــى "مـــيّ" ســـجالا

كلما سجل في الطرس كتاب

تكلـــمُ الطلعـــة مازلـــت أراهـــا   غـــضة تنـــشر ألـــوان حلاهـــا

بـــين آراء أضـــاءت فـــي ســـناها   وفـــروع تتهـــادي فـــي دجاهـــا

ثم شاب الفرع والأصل وغاب

غـــاب والزهـــرة تـــؤتي الثمـــرات   ثمـــرات مـــن تجاريـــب الحيـــاة

خيـــر مـــا يـــؤتي حـــصاد الـــسنوات   بعثـــرتهن الريـــاح العاصـــفات

ورمتهن ترابا في خراب

رد مـــا عنـــدها ياهـــذا التـــراب   كـــل لـــب عبقـــري أو شبـــاب

فـــي طويـــاك اغتـــصاب وانتهـــاب   خلقـــا للـــشمس أو شـــم القبـــاب

خلقا، لا لانزواء واحتجاب

ويــك! مــا أنــت بــراد مــا لــديك أضــيع الآمــال مــا ضــاع عليــك

مجــد "مــيّ" غيــر موكــول إليــك مجــد "مــيّ" خــالص مــن قبــضتيك

ولها من فضلها ألف ثواب

فجيعة الشرق

شعر.. خليل مطران

قـــد تـــولى رفاقنـــا وبقيـــنا يعلـــم الله بعـــدهم مـــا لقـــينا

هل من الصاب في كئوسك سؤر قـــد ســـقينا يـــادهر حتـــى روينـــا

أو داع يتلو وداعاً، وتأبين على الإثر معقب تأبينا

أيهــا الــشاعر الــذي كــان حينــا يتغنـــي، وكـــان ينحـــب حـــينا

حطــم العــود إن كــر الليــالي لــم يغــادر فــي العــود إلا الأنينــا

أن يلـــم الـــردي بمـــيّ غـــداة يـــا لقـــومي بـــأي خطـــب دهينـــا

طـــالع الـــسعدهل تحـــول نـــوءاً يبعـــث الـــريح والـــسحاب الهتونـــا

فـــإذا مـــا أقـــر أمـــسي عيونـــا قـــرح اليـــوم بالـــدموع العيونـــا

نعمــة مــا ســخا بهــا الــدهر حتــى آب كالعهـــــد ســـــالبا وضـــــنينا

أيهـــذي الثـــري ظفـــرت بحـــسن كـــان بـــالطهر والعفـــاف مـــصونا

لهــف نفــسي علــى حجــي عبقــري كـــان ذخـــراً فـــصار كنـــزا دفينـــا

إيـــه يـــاميّ أســـرف اليـــتم تبـــر يحـــا بـــروح كـــان الـــوفي الحنونـــا

فقــدك الوالــدين حــالاً فحــالاً جعــل البــيض مــن لياليــك جونــا

ورمي أصغريك رامي الكبيرين فذاقا قبل المنون منونا

أقفر البيت، أين ناديك ياميّ إليه الوفود يختلفونا؟

صــفوة المــشرقين نــبلا وفــضلا فــــي ذراك الرحيــــب يعتمرونــــا

فتــساق البحــوث فيــه ضــروبا ويــــدار الحــــديث فيــــه شــــجونا

وتــصيب القلــوب وهــي غــراس مــــن ثمــــار العقــــول مــــا يــــشتهينا

في مجال الأقلام آل اليك السبق في المنشآت والمنشئينا

أين ذاك البيان يأخذ بالألباب فيما تجلين أو تصفينا

في لغات شتى، وفي لغة الضاد تجيــــدين صــــوغ مــــا تكتبينــــا

أدب قــد جمعــت فيــه علومــا يخطــــئ الظــــن عــــدها وفنونــــا

وتــصرفت فــيه نظمــا ونثــرا باقتــــدار تــــصرف الملهمينــــا

تبتغــين الــصلاح مــن كــل وجــه وتعــــانين شــــقوة المــــصلحينا

وحتى قلب يفيض بالحب للخير، ويهدي إليه من يهتدونا

ويــود الحيــاة عــزا وجهــدا لا يــــود الحيــــاة خــــسفا ولينــــا

فهــو آنــا يبــث رفيقــا يمــــلأ الــــنفس رحمــــة وحنينــــا

وهــو آنــا يثــور ثــورة حــر عاصــــفا عــــصفةتدك الحــــصونا

يبصر العقل، يكشف الجهل، يوحي العدل، يرعي الضعيف والمسكينا

أين ذاك الصوت الذي يملك الأسماع في كل موقف تقفينا

فجع الشرق في خطيبته الفصحى، وما كان خطبها ليهونا

أبلــغ الناطقــات بالــضاد عيــت بعــــد أن أدت الــــبلاغ المبينــــا

أطربتـــه، وهذبتـــه، وحثتـــه   علـــى الـــصالحات دنيـــا ودينـــا

بكـــلام حـــوي الطـــريفين تتغيمـــا   كمـــــا يـــــستحب، أو تلوينـــــا

قدرتـــه لفظـــا، ولحظـــا، وإيمـــاء   بمـــــا ودت المنـــــي أنيكونـــــا

ذاك في العيش ما شغلت به والغيد   تلهـــــو، وأنـــــت لا تلعينـــــا

لـــم ترومـــي إلا الجليـــل، وجانبـــت   الأباطيـــــل وأتقيـــــت الفتونـــــا

وجعلـــت التحـــصيل دأبـــا، وأتيـــت   جنـــــاه، فطـــــاب للمجتنينـــــا

فعليـــك الـــسلام ذكـــراك تحيـــا   وبـــــرغم البعـــــاد لاتبعـــــدينا

مؤلفات ميّ زيادة

– أزاهير حلم Fleurs du Reve بالفرنسية ١٩١١م، نقله إلى اللغة العربية الدكتور جميل جبرا، ١٩٥٢م.

– رجوع الموجة، رواية مترجمة عن اللغة الفرنسية، ١٩١٢م.

– الحب في العذاب، رواية مترجمة عن اللغة الفرنسية، ١٩١٢م.

– ابتسامات ودموع، رواية مترجمة عن الألمانية، ١٩١٣م. وأعيد إصدارها في ترجمة منقحة ١٩٢٢.

– باحثة البادية "ملك حفني ناصف"، دراسة أدبية نقدية، ١٩٢٠م .

– غاية الحياة، محاضرة ألقتها في الجامعة المصرية، ١٩٢١م.

– سوانح فتاة، مجموعة خواطر وآراء في الحياة، ١٩٢٢م.

– كلمات وإشارات، مجموعة خطب اجتماعية وأدبية وفلسفية، ١٩٢٢م.

– المساواة، بحث في المساواة بين الناس والعدالة الاجتماعية والديمقراطية، ١٩٢٣م.

– الصحائف، مختارات من مقالات نشرتها في الصحف والمجلات، ١٩٢٤م.

– بين الجزر والمد، خواطر ومقالات في الأدب والفلسفة والحضارة،١٩٢٤م

– وردة اليازجي، دراسة أدبية نقدية، ١٩٢٦م .

– عائشة تيمور، دراسة أدبية نقدية، ١٩٢٦م.

– رسالة الأديب في الحياة العربية، محاضرة ألقتها في الجامعة الأمريكية ببيروت، ١٩٣٨م .

– الرسائل، نشرتها السيدة مادلي أرقش فيبيروت، ١٩٤٨م.

وقيل إن لميّ عدة كتب لم تطبع أو طبعت لكن لم يعثر عليها أحد من الباحثين.. منها "ليالي العصفورية"، "من الأدب العالمي"، "الخيال على الصخرة"، وتلك الكتب مفقودة، بالإضافة إلى أن لميّ مجموعة من القصص والخواطر متناثرة في الصحف والمجلات لم تجمع حتى الآن.

المراجع

أولاً: الكتب:

(أ) مؤلفات مي زيادة:

– جمع وتحقيق: سلمي الكزبري، المؤلفات الكاملة لميّ زيادة،ط مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٨٢.

– مجـ ١: باحثة البادية، وردة اليازجي، عائشة تيمور، بين الجزر والمد، المساواة، غاية الحياة، الحب في العذاب.

– مجـ ٢: كلمات وإشارات جـ ١، كلمات وإشارات جـ ٢، ظلمات وأشعة، الصحائف، سوانح فتاة، ابتسامات ودموع، رجوع الموجة.

(ب) مؤلفات عن مي زيادة:

– جبرا جميل جبرا: أزاهير حلم.. تأليف ميّ زيادة، ترجمة عن الفرنسية إلى اللغة العربية، دار بيروت، ١٩٥٢م.

– سلمي الحفار الكزبري: بحث نشر فيمقدمة المؤلفات الكاملة لميّ زيادة، مؤسسة نوفل، بيروت،١٩٨٣م.

– طاهر الطناحي: أطياف من حياة ميّ، دار الهلال، القاهرة، ١٩٧٤م .

– عباس محمود العقاد: سارة، دار المعارف، ١٩٨٥م .

– عامر العقاد: غراميات العقاد، "بالكتاب فصل يتناول علاقة العقاد بميّ"، دار حراء، القاهرة، ١٩٧١م.
– فاروق سعد: باقات من حدائق ميّ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٣، ١٩٨٣م.
– محمد عبد الغني حسن: ميّ زيادة أديبة الشرق والعروبة، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٦٤م.
– وداد سكاكيني:ميّ زيادة في حياتها وآثارها، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م.
– وديع فلسطين: ميّ، حياتها وصالونها الأدبي، مؤسسة المعارف والطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣م.

(جـ) مؤلفات أخرى عن ميّ زيادة اطلعنا عليها ولم نستخدمها كمراجع:

– العوضي الوكيل: مطالعات وذكريات (بالكتاب فصل خاص بميّ وعشاقها)، القاهرة، ١٩٧٢م.
– جبران خليل جبران: الأجنحة المتكسرة، دمشق ،١٩٤٣م.
– جميل جبرا: ميّ في حياتها المضطربة، بيروت، ١٩٥٣م .
– عبد السلام هاشم حافظ: الرافعي وميّ، القاهرة، ١٩٦٤م.
– عبد اللطيف شرارة: ميّ زيادة، بيروت،١٩٦٥م.
– فاروق عبود: جدد وقدماء "في الكتاب فصول تتناول علاقة الحب والمراسلات بين ميّ وجبران"، بيروت، ١٩٤٥م.
– كامل الشناوي:الذين أحبوا مي، القاهرة، ١٩٧٢م.

– منصور فهمي: مي زيادة ورائدات الأدب العربي الحديث، القاهرة، ١٩٤٥م.

– محاضرات عن مي زيادة، القاهرة، ١٩٥٥ م.

– مي "سلسلة المناهل"، بيروت، ١٩٤٥ م.

– هدي شعراوي: ذكري فقيدة الأدب النابغة مي "مجموعة الخطب والقصائد التي ألقيت في حفل تأبين مي"، القاهرة، ١٩٤٢ م.

ثانيا: الدوريات:

– مجلة آفاق عربية، بغداد، ع ٢، شباط، ١٩٨٦م.

– مجلة أدب ونقد، القاهرة، ع ١١، مارس، ١٩٨٥ م.

– مجلة الدوحة، قطر، ع١٠٣ – يوليو، ١٩٨٤م.

– مجلة صوت المرأة، القاهرة، ع ١، ١٩٤٩ م.

– مجلة الهلال: القاهرة، ع ديسمبر ١٩٧٤، ع مايو ١٩٤٨، وإعداد يناير وفبراير وإبريل وديسمبر ٢٦٩١، وعددا إبريل ويوليو ١٩٦٤، وعدد فبراير ١٩٨٦ م.

رسائل مخطوطة

في ٢٨ نوفمبر ١٩٢٤

يا أبا العلاء،

مبروك، حقك يرد إليك كما يرد إلى الشباب المصري حقه عندك!

أود ان أذكرك اني تنبأت بهذا في إيوان أبي الهول بتاريخ ١٤ يوليو، وكاهن أوزيريس يشهد.

قلت يومئذ ان الجامعة المصرية ستدعوك إليها خلال شهر نوفمبر، ولم يكن في ذلك الحين من حديث أو شبه حديث عن الأزمة التي ظهرت في الشهرين الأخيرين

أتعد، يا أبا العلاء وقولك معاً، أتعد بتصديق المرأة بعد اليوم؟

لقد كنت طول هذه المدة رجلاً، وعرفت ان تتألم كرجل حقاً

لديّ الآن كلمة واحدة أرجو ان تغتفر ما فيه من أنانية: إني سعيدة

"مي"

أخي الجليل

أكتب إليك من المستشفى وأنا مريض شديد . وقد [illegible]
أيضاً قد مضى أكثره ولم أظفر بأجازة . فقد صادفت كثرة
الانشغالات [illegible] ، ووجدت كبار موظفيها الا
القليل منهم إجازاتهم أو [illegible] ليتزودوا [illegible] في قدوم
السنوات المقبلة من أعمال كثيرة . فلم أر [illegible]
وقوتنا الحالية أن أفكر في إجازة لو راحة . وإنما
هي [illegible] في آخر كل أسبوع [illegible]
[illegible] بنسيم البحر [illegible] ..
أما السفر الى الاسكندرية فأمر صعب في الوقت الحاضر .
وهكذا [illegible] ..
[illegible] .
[illegible] . بل اني أرى

[illegible] .. [illegible]
[illegible] ؟ [illegible]
[illegible]
أو الصور [illegible] .. [illegible]
[illegible] . [illegible] ؟ .. لقد
[illegible]
[illegible] ؟ .. [illegible] .. إن كل شيء
[illegible] .. [illegible]

لو كنت انا المخطوط؟ هل أتوهم.. فأنا أحسبه مجابة
بجدارة أكثر كما يشيع لأحمد الصالح.. ولكني بأمثالي
أورثها اعترف انى لا استطيع معه شيئا.. وما أهون أن أحمل
أقلامي لأكتب من كتابيه وأختلف مع المؤلف أو أتشدد مع المشتبهة
ولكني متأثر ما الذي أصب إليه وماذا أؤلف؟.. الأمر هادئ
الآن أحسبه أوثق هذه الصفحات.. وأنا أعتبرها كأنها شهادة..
وللمكرم.. وأرجو أن اعتبرها رتبة أولى كأديب عندما يكتمل
لاستيعاب أكثر ملأ حيا.. فالمؤلف أوثق من أديب
نابغا.. وما الأديب إلا الذي استطاع أن يصيب
مقعده بكتابة ورقة أولى من نوعها.. وهذا معناه أنه
يجب أن يبدأ أول ما يبدأ بالتجربة في أحداثها الأولى..
أما بعد فإني أرجو أن تكونوا جميعا في أحسن حال
من الصحة والهناء وأن تبلغوا تحياتي للسيدة الكريمة
والمؤنس ووقيه وأني في انتظار أخباركم في السنة الجديدة.
ولكم مني أطيب التحية وأصدق المودة

المخلص
[illegible]

العنوان التلغرافي (فرقومية)

الفرقة القومية المصرية

شارع عماد الدين رقم ١٤٠

تليفون رقم ٥٦٣٤٠

القاهرة في ٢٧/٧/٣٨

حضرة صاحب العزة الأستاذ الجليل الدكتور طه حسين بك

عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية

اتشرف بابلاغ عزتكم شكر لجنة ترقية المسرح المصري وشكري الخاص
لما تفضلتم به على الفرقة القومية المصرية من التحفة النفيسة باهدائكم الينا
ترجمتكم لقصة انتيجون احتسابا لخدمة الفن ونشر الثقافة المسرحية
وقد عاقني عن وصول هذا الشكر الزكي اليكم في حينه انني لم اظفر بالعنوان
الا اليوم على اثر زيارة زرتها لفضيلة سيدنا الشيخ شقيقكم بوزارة الاوقاف
وأملي ان تكونوا مع الاسرة الكريمة في اتم صفاء
وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ؟

مدير الفرقة القومية المصرية

خليل مطران

صح : عنواني من اول أغسطس الى اول اكتوبر ١٩٣٨ هو بيروت (لبنان) بشباك البريد

النقابة الزراعية المصرية العامة
شارع الشيخ ابو السباع رقم ٨

العنوان التلغرافي : سنديكول بمصر
تليفون رقم { ٠٤١٠٠ / ٠٤١٠٦

الموضوع

قلم .... مطلوب الرد ....

نمرة القيد	
نمرة الكوبيا	
عدد المرفقات	

القاهرة في ٢٧ / ٨ / سنة ١٩٣٦

حضرة الأخ الأستاذ الكبير

ورد الساعة كتابك ورد اليّ شيئاً من العافية فأنا أستطيع الكتابة اليك من الفور وفي النفس من تبريح الشوق ما فيها.

اني لسعيد اولا بانك تنعم بطيب الجو وسلامة الجسم وانك الى ذلك تضيف لذة روحية قوية هي لك في العزلة تسلية وستكون به للشرق بل للعالم الادبي مفخرة من تلك المفاخر التي تتحف بها الالباب آناً بعد آن.

واني لسعيد ثانيا بان صحة السيدة المصونة الفاضلة قرينة استاذنا في صحة وسرور وان نجليكما العزيزين على ما تحبان وتحبها. ادام الله لكم هذه النعم بل زادها وبارك فيها ليطرد نموها.

الفرقة القومية اجهدتني فيما اجهدته من عمل آخر وقد بترت منه اللجنة ما كانت مصرة على بتره وانفذ الامر وبذلت ما اوتيت من قوة في جلسة الجراح لتخفيف ما استطيع تخفيفه وقد اطلعتكم من شأنه ببعض ما استطعت اصلاحه وكاني تذكرني سيما ارجو انه يوفق

اما سير الفرقة بعد هذا فمنتظم ومنهج لكم من الروايات ما لدينا بأوسع ما يسمى بالتأليف او بشبهه وعند عودة استاذنا بالسلامة اعرض له كل ما يجدر بالعرض عليه ولا افعل الآن تجنبا لزيادة المجهود في الكتابة

واختم جوابي هذا على الرغم مني دون ان اتمكن ان اقول الشيء الكثير، مهديا اليك والى الاسرة المحترمة العزيزة تحيات ود واجمل بها درة عن صميم الفؤاد.

المخلص
خليل مطران.

UNIVERSITY OF CALIFORNIA, LOS ANGELES

BERKELEY • DAVIS • IRVINE • LOS ANGELES • RIVERSIDE • SAN DIEGO • SAN FRANCISCO  SANTA BARBARA • SANTA CRUZ

١٢/٦/١٩٧٥

NEAR EASTERN CENTER
LOS ANGELES, CALIFORNIA 90024

عزيزي غالي،

تحياتي. أكتب إليك لأبلغك أني سأترك لوس انجيليس يوم ١٧/٦/١٩٧٥ في طريقي إلى القاهرة مرورا بنيويورك ولندن وباريس والمنتظر أن أكون في القاهرة في أواخر يونيو أو أوائل يوليو. ولا تكتب إلي حتى يصلك مني خطاب آخر من القاهرة.

للأسف حتى الآن وعملية كتاب تاريخ الفكر المصري الحديث المجلد الثالث من عصر إسماعيل إلى ثورة ١٩١٩ تتعثر أو تسير ببطء. وقد وصلتني أمس صورة عقد غير مطلوب وبعد الاطلاع عليه وجدته غير مرضٍ. وقد علمت من ميشيل أن الأفضل للجميع أن أضع بنفسي صيغة العقد، وقد فعلت هذا الصباح وأرسلت إليه الصيغة المقترحة. فأرجو أن تتم الإجراءات بسرعة. وفي العقد المقترح بند ينص على أني وكلت ميشيل لترتيب العقد نيابة عني ولتمثيل مصالحي في العقد. فأرجو أن يقبلوا هذا التوكيل، وأن ينتهي كل شيء بسرعة.

بدأت في إنجاز المجلد الثاني من نفس الفترة الخاص بالفكر السياسي والاجتماعي ومجلد الخلفية التاريخية لعصر إسماعيل - ١٩١٩. ويشمل نحو ١٥٠ أو ٢٠٠ صفحة بحسب النشاط. مبتدئا كبيرا عن الأفغاني إلى مصر. وعند عودتي سأكتب عن يعقوب صنوع وعبد الله نديم ومحمد عبده وقاسم أمين ولطفي السيد وربما بعض مفكري الدرجة الثانية مثل ولي الدين يكن وعبد العزيز جاويش الخ..

وأرسل لك صورة من بحث عن الأفغاني أرجو أن تقرأها وأن تعطيها لميشيل لقراءتها وأحب أن أعرف رأيك فيها ورأي ميشيل

وارجو أن تحافظ على هذه الاوراق فى مكتبتك رغم أن الاصل عندى ولكن احدا لا يعرف الظروف فربما اضطررت لنشرها غيابيا. على كل حال فارجو أن تنفذ بدقة ما اقوله: هذا البحث ليس للنشر فى مجلات او جرائد وانما فى كتاب، وسأوافيك بالباقى عندما اكتبه ولا يجوز أن يصدر فى كتاب الا بعد صدور كافة أجزاء الملحمة التاريخية.

ولعل من المهم أن تعلم ان هذه المقالات (او الفصول) عن الافغانى كتبت أولا كمقالات للاهرام وقد ارسلت الثلاثة الاولى منها لاحمد بهاء الدين فى نوفمبر الماضى عندما كان رئيسا لتحرير الاهرام وطلبت اليه ابلاغى ان كانت ستنشر ام لا حتى اوافيه بالباقى منها. وبالفعل ابرق الى فى اوائل نوفمبر ١٩٧٤ بأنها ستنشر، وبالتالى ارسلت اليه باقى الفصول، ولكنها مع الاسف لم تنشر حتى الآن. ولست اعرف السبب. ترى هل اصبح شخص الافغانى ايضا "مقدسا" بحيث لا يجوز لمثلى تناوله بالبحث؟ على كل حال كل شىء بحسبان وكل شىء بأوانه. وبالطبع سأحاول عند عودتى اقناع الاهرام بنشر مجموعة الافغانى لانها جزء هام من التنقيب فى اعماق النفس المصرية وما داخلها من مؤثرات خارجية.

ارجوك الا تشير الى هذه الاشياء كتابة فيما تكتب او تنشر. عسى ان تنكشف هذه الغمة الثقافية التى تعانيها مصر بصفة خاصة والعالم العربى بصفة عامة.

ولو وجدت عندى بعض المال مررت ببيروت فى طريقى الى القاهرة ولو ليومين او ثلاثة، ولكنى ارجح انى لن امر هذه المرة. وفى خلال اصدار تاريخ الفكر المصرى الحديث من دار الفارابى أو غيرها، لا تنس ان تحاول مع ... التفاوض مع دار نشر لاعادة نشر جميع أعمالى، فى بيروت فى طبعة تشمل كل العالم العربى ولا تشمل مصر مع رجاء الا تراسلنى بالبريد وانا فى مصر فى امثال هذه الامور الا فى حدود العموميات فانا اعيش مع ... ان يكون ... وعقد القارئ يصلح ... وتقبل سلامى. وكونوا جميعا حذرين ... "اكو ..." كما نقول، وقد عادت لبنان الى سفك الدماء. ربنا يستر.

لويس عوض

الفهرس